إحسان عبد القدوس



العذراء والشعر الأبيض

قصص

الدار المصرية اللبنانية

العذراء والشعر الأبيض

قصص

العذراء والشعر الأبيض: قصص /إحسان عبد القدوس .

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 2019.

تدمك : 9789777952026

1- القصص العربية .

أ-العنوان . 813

رقم الإيداع : 2018/17684

16 عبد الخالق ثروت القاهرة .

تليفون : 23910250 202 +

فاكس : 23909618 202 + - ص. ب 2022

E-mail:info@almasriah.com

www. almasriah.com

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى : 2019م

الدار المصرية اللبنانية

جميع الحقوق محفوظة للدار المصرية اللبنانية، ولا يجوز،

بأي صورة من الصور، التوصيل، المباشر أو غير المباشر، الكلي أو الجزئي، لأي مما ورد في هذا المصنف، أو نسخه، أو تصويره، أو ترجمته أو تحويره أو الاقتباس منه، أو تحويله رقميّا أو تخزينه أو استرجاعه أو إتاحته عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من الدار .

العذراء والشعر الأبيض

قصص

إحسان عبد القدوس

الدار المصرية اللبنانية

أصحاب السوابق

دخل الأستاذ أحمد عبد اللطيف مكتب الوزير وانتفض السكرتير يستقبله في احترام مبالغ فيه، وقال الأستاذ أحمد في هدوء

- هل أستطيع أن أرى سيادة الوزير؟

وقال السكرتير في رعشة

- طبعًا يا افندم طبعًا ثانية واحدة

وما كاد السكرتير يدير ظهره حتى لوى شفتيه في قرف وأطلق زفرة من صدره كأنه يستغيث بالله، وفتح الباب ودخل إلى الوزير وقال كأنه يبلغه بأنباء نكبة

- الأستاذ أحمد عبد اللطيف هنا

ورفع الوزير حاجبيه في دهشة وقال

- ماذا يريد؟

- يريد أن يدخل

- ألم يسبق أن طلب تحديد موعد؟

- لا

وأطلق الوزير أنفاس الضيق، وعاد السكرتير يقول

- هل أقول إن سيادتك في اجتماع وأحدد له موعدًا في الساعة الثانية

- لا

- ولكنه سيبتلع كل وقت سيادتك كلنا يعرف أنه إذا بدأ مناقشة فلا ينتهي وفي الساعة الثانية يكون موعد العمل قد انتهى فتستريح من مناقشاته

- لا لا أحد يستطيع أو يريد أن يتهرب من أحمد دعه يتفضل

- سأتصل بسيادتك بعد عشر دقائق لأبلغك أنك مرتبط بموعد هام، حتى لا تطول المقابلة

- لا إنك لا تدري من هو أحمد عندما يوجد بيننا في أي مكان فهو صاحب الحق الأول في التصرف دعه يتفضل وأوقف جميع المواعيد إلى أن يخرج

وعاد السكرتير وفتح الباب وقال للأستاذ أحمد عبد اللطيف في احترام كبير

- اتفضل يا افندم اتفضل

ودخل الأستاذ أحمد عبد اللطيف، وخرج الوزير من وراء مكتبه واستقبله في منتصف الحجرة يصافحه في حرارة

- أهلًا أحمد أهلًا منذ مدة لم أرك ربما منذ أكثر من ستة شهور

وقال أحمد في صوت وقور ينطلق من خلال ابتسامة هادئة

- لم أكن أريد أن أثقل عليك

- يا رجل لا تقل هذا الكلام كلنا يتمنى أن يلقاك

وأجلس الوزير أحمد على مقعد في جانب الحجرة وحاول أن يجلس بجانبه ولكن أحمد قال في لهجة وكأنها لهجة إصدار قرار

- فهمي اجلس وراء مكتبك إنك في مكان عمل واحترام العمل يتطلب منك أن تجلس بجانب عدة العمل أي بجانب التليفون وبجانب أوراقك إن تكريم الضيف لا يكون على حساب العمل ولا يتطلب الابتعاد عن عدة العمل إن هناك دائمًا أهم من المهم فلو افترضت أن الحديث معي مهم فإن التليفون قد يبلغك ما هو أهم فلا تبتعد عنه هذه غلطة يقع فيها كل المسئولين

وابتسم الوزير فهمي عباس وقال في لهجة لا تخلو من سخرية

- حاضر يا أحمد إنك دائمًا أول من يكتشف الأغلاط

وانتقل الوزير وجلس وراء مكتبه وقال أحمد وهو يجلس بجانب حافة المكتب

- إنني دائمًا أثقل على الناس بآرائي إلى أن أصبحت هذه الآراء تثقل عليّ أنا شخصيًّا، فقررت منذ أكثر من عام أن أبتعد عن الناس انعزلت عشت وحيدًا ولكن هذه العزلة والوحدة لم تستطع أن تعزلني عن نفسي بل أصبحت أعاني

من ثقلي على نفسي أكثر مما كنت أتصور أن الأصدقاء يعانون من ثقلي عليهم

وقال الوزير كأنه يحاول أن يخفف عنه

- صدقني أنك لا تثقل على أحد، وبالتالي لا يمكن أن تثقل على نفسك كل ما هناك إن آراءك تثير بيننا جدلًا طويلًا ولا شك أنها تثير نفس الجدل بينك وبين نفسك

وقال أحمد

- لا يهم المهم لقد خرجت من عزلتي وجئت إليك لأني في حاجة إلى واسطة إلى وساطتك

واتسعت عينا الوزير فهمي عباس ولمع وجهه بالفرحة وقال من خلال ابتسامة كبيرة

- أي شيء يا أحمد أي شيء اطلب

وقال أحمد كأنه يسخر من فرحة الوزير

- إنك تعلم أني لم أطلب أبدًا شيئًا منكم

وقاطعه الوزير

- ولكنها ليست غلطة أحد فأنت الذي كنت ترفض كل ما يعرض عليك كان يمكن أن تكون الآن وزيرًا

وضحك أحمد قليلًا

- ربما لأني أنبه منك فإن كل وزير يصبح بعد قليل وزيرًا سابقًا وأنا أكره أن أحمل لقب «سابق» إنه أقرب إلى لقب «المرحوم» هل تذكر أخانا مختار رفعت إنه وزير سابق ورئيس وزراء سابق، وهو أيضًا رئيس مجلس إدارة سابق، وسكرتير هيئة سابق، إنه الآن يعتبر من أصحاب السوابق وهو يعيش فعلًا كأصحاب السوابق، حائر في تحقيق مكانه وصفته في المجتمع إني أعرف أن الذي يصاب بلقب «سابق» يصاب بجرح خطر يؤثر في كل تفكيره وفي كل أحاسيسه إنه بعدها يصبح إما من أكبر المغالين في النفاق وفي التزلف وفي الاستسلام، وإما أن يصبح من أكبر المتطرفين في المعارضة وفي النقد ولا علاج له إلَّا أن يعود إلى الوزارة وكثيرون عادوا إما لجهودهمِ في النفاق

والاستسلام. وإما لإسكاتهم عن الكلام والنقد، والذي يعود لا يعود أبدًا كما كان، إنه يعود وهو مجروح ويزاول عمله وهو يحسب في كل يوم أن يتلقى السهم المسموم من جديد ويصبح «سابقًا» مرة أخرى، ولذلك فهو يعمل لما بعد خروجه من الوزارة أكثر مما يعمل لمسئولياته كوزير ولست في حاجة لأن أضرب لك الأمثلة، فهي معروفة

وقال الوزير في حرارة وقرب

- ولكن يا أحمد كل وزراء العالم يدخلون ويخرجون ومنذ وجد الإنسان لم يوجد وزير بقي العمر كله وزيرًا إلّا في القصص الخرافية

وقال أحمد وهو لا يزال يضحك

- هناك فرق فهناك وزارة بأكملها تترك الحكم، أو وزير يخرج من الوزارة نتيجة معركة سواء معركة سياسية أو معركة فنية خاصة باختلاف الرأي الفني وفي هذه الحالة لا يتأثر الوزير بلقب سابق لأنه يعيش وضعًا مستمرًّا وهو المعركة السياسية أو الفنية فهو مقاتل دائم وكل ما هناك أنه غير موقعه داخل هذه المعركة ولكن الذي يصاب ويجرح هو الذي يصبح «سابقًا» بمجرد شلوت شلوت قد يرفعه إلى أعلى كأنه يخرج من الوزارة ليصبح مستشارًا أو بعد أن يمنح وسامًا جليلًا، وقد يكون شلوتًا إلى أسفل ويجد نفسه في الشارع المهم أنه لم يدخل معركة يعرفها ويستطيع أن يستمر بها سواء داخل الوزارة أو خارجها، ولكنه أُلقي فجأة من الشباك وقرأ خبر وفاته في الصحف وبدأ يستقبل المعزين دون أن يستعد لاستقبالهم، أو يقيم صيوانًا لاستقبالهم إن آثار الشلاليت على بنطلونات كثير من الوزراء السابقين لا يمكن أن تمحى أبدًا حتى لو أخذ بنطلونه وذهب به إلى أكبر الإخصائيين في إزالة البقع والفتوق !

وقال الوزير فهمي عباس في حدة

- اسمع يا أستاذ أحمد إن هذا الكلام يمسني ولابد أنك تقدر ذلك وأحب أن أقول لك إنه لا يهمني أن أخرج من الوزارة اليوم أو غدًا لا يهمني في أي لحظة أن أكون سابقًا كل ما يهمني هو إحساسي بأني أجلس على هذا المكتب لأؤدي خدمة لبلدي إني أخدم بلدي سواء وأنا جالس إلى مكتب وزير أو إلى مكتب موظف درجة سادسة

وقال الأستاذ أحمد دون أن يبدو عليه أي تأثر بحدة سيادة الوزير

- هذا ما فكرت فيه عندما عرضت عليّ الوزارة منذ سنوات كما تعلم فكرت في خدمة بلدي وأنا كما تعلم محام وخريج كلية الحقوق وكل دراستي خاصة

بالقانون والعلوم السياسية والاجتماعية، ولكن الوزارة التي كانوا يعرضونها عليّ هي وزارة المواصلات وقدرت أني في حاجة على الأقل إلى ثلاث سنوات لدراسة علوم المواصلات حتى أستطيع أن أقرر بعدها إذا كنت أستطيع أن أكون وزيرًا أو لا أستطيع. أي أني لم أتعال على الوزارة ولكني فقط درست قدرتي وإمكانياتي على حمل المسئولية و .

وقاطعه سيادة الوزير

- يا أستاذ أحمد إن الوزارة ليست مركزًا فنيًّا كل الاختصاصات الفنية يتولاها وكلاء الوزارة أما الوزير فهو مركز سياسي

وقال أحمد في هدوء

- هذا هو الخطأ الأكبر الذي تقع فيه وتقع فيه كل الدول العربية وأيضًا معظم دول العالم الثالث وهو أن يعتبر مركز الوزير داخل نظم الحكم التي يعيشونها مركزًا سياسيًّا أبدًا إن مركز الوزير لا يكون مركزًا سياسيًّا إلّا داخل نظم تعدد الأحزاب لأن الوزارة تنفذ مبادئ وخطط وبرامج الحزب في مواجهة حزب آخر ونحن ما زلنا متأثرين بالماضي عندما كانت الوزارات سياسية حزبية كان الوزير سياسيًّا لأنه وفدي أو لأنه دستوري أو لأنه مستقل، ولكن الآن أي صفة سياسية يمكن أن يحتاج إليها الوزير لقد أخطأنا يومًا ووضعنا للوزراء صفة التمثيل السياسي الخارجي كنا في مرحلة التفاهم مع أمريكا نختار وزيرًا له موقف سياسي رأسمالي، وفي مرحلة التفاهم مع الاتحاد السوفييتي نختار وزيرًا له موقف سياسي شيوعي وكل هذا لم يؤد إلى نتيجة سياسية، لأن الواقع هو أن الوزارة كلها ليس لها اختصاص سياسي ولا تستطيع، وليس من حقها أن تقبل أو ترفض أي قرار سياسي إن السياسة مركزة في تنظيم آخر خارج الوزارة وكان الحل الأمثل هو الاعتراف بكيان هذا التنظيم وأن تتفرغ الوزارة ككيان فني تنفيذي ولكن هذه اللخبطة بين السياسة والتخصص العلمي أدت إلى ضياع صفة الوزير لا هو سياسي ولا هو فني أنت مثلًا. إنك خريج كلية الآداب قسم اللغة العربية و .

وقاطعه الوزير وقد اشتدت حدته قائلًا

- يا أحمد أنت أستاذنا جميعًا ونحن نقدر لك استمرارك في التفرغ للمحاماة و .

ورد أحمد مقاطعًا

- حتى مكتبي كمحام تعرض لكل هذا الخلط وكل هذه الأوضاع الغريبة فأنت تعلم أن عدد الموكلين أو الزبائن الذين يعتمدون على مكتبي محدود، فرغم

أني متفرغ للمحاماة كعمل فعلًا إلّا أني أكثر تفرغًا للفكر السياسي منذ تخرجت وقبل أن أتفرغ وكانت صورتي وسمعتي السياسية والكتب السياسية التي كتبتها ونشرتها، ثم ما هو معروف عني من عمليات ثورية كنت أقوم بها في شبابي، كل ذلك أثر في إقبال الناس على مكتبي كمحام وكنت أعطي الناس العذر، فمع افتراض أنهم يقدرونني كسياسي عاشوا معه جيلًا كاملًا، إلّا أنهم لا يحتاجون في قضاياهم إلى سياسي بل يحتاجون إلى محام ثم قد يكون القاضي مختلفًا معي في آرائي السياسية فيتأثر بهذا الخلاف في حكمه، فما ذنب صاحب القضية؟! إن من صالحه دائمًا أن يختار محاميًّا متفرغًا تفرغًا كاملًا للمحاماة هذا ما كنت أعتقد إلى أن قابلت مرة الرئيس في لقاء خاص، وأنت تعرف إني تعودت أن ألقاه كثيرًا كصديق، ولكن في هذه المرة نشرت المقابلة في الصحف ضمن المقابلات الرسمية، وكانت الصدمة التي تعرضت لها هي أني فوجئت في اليوم التالي مباشرة بعدد كبير من الزبائن بدأوا يترددون على مكتبي زبائن جدد وأنواع جديدة من القضايا وفرح عبد العاطي وكيل المكتب الذي عاش معي العمر كله وهو يعاني تقتير القدر عليه في الزبائن، واستحملت أنا أسبوعًا وأسبوعين وأنا أقابل كل من يأتي إلى المكتب وأقرأ وأبحث كل قضية ثم توقفت إنها ليست قضايا، إنها عمليات تحتاج إلى وساطات، وكل هؤلاء الزبائن الجدد لم يلجأوا إليّ كمحام، إنما لجأوا إليّ كأحد المقربين بعد أن قرأوا الخبر في الصحف إن الذي يقابل الرئيس يستطيع بلا شك أن يقابل رئيس الوزراء، ويستطيع أن يقابل الوزير، ويستطيع أن يقابل رئيس هيئة أو أي وكيل وزارة ويستطيع أن يحقق المطالب ويكسب القضايا و وكانت النتيجة هو أني اعتذرت عن جميع القضايا التي جاءتني بهذا الفهم الجديد لقيمتي، بل إني أغلقت مكتبي وذهبت إلى القرية وبقيت هناك ثلاثة أشهر

قال الوزير فهمي عباس ساخرًا

- لأن لك قرية تغنيك عن المكتب ولكن لو لم يكن لك شيء في القرية أين كنت تذهب؟! اعذرني يا أستاذي عن هذا السؤال

وقال أحمد دون تأثر

- تقصد أكل العيش إني أستطيع أن أعيش بلا عمل لأني أملك أرضًا في القرية، ولذلك أستسلم لكل آرائي السياسية لأني لست محتاجًا هذا ما تقصده وهذا ما جئت لأطلب وساطتك فيه

ودق جرس التليفون بجانب الوزير، وكان السكرتير يذكره بأنه على موعد وقال الوزير في عجل

- لا لا لا مواعيد

ثم التفت إلى أحمد قائلًا

- في خدمتك يا أستاذ أحمد

وقال أحمد

- أخشى أن تفاجأ إلى حد أن تخيب أملي

وقال الوزير مبتسمًا

- لقد عودتنا على المفاجآت

وقال أحمد

- لقد اخترتك ولجأت إليك لأني مقتنع بأنك خير من يستطيع أن يحلل كل موقف وأن يقدر وأن يفهم الصعب

وقال الوزير كأنه يتعجله

- شكرًا كلنا من تربيتك

وقال أحمد في هدوء وبين شفتيه ابتسامة حزينة

- جئت لأوسطك حتى تسعى لإقناعهم بوضعي في السجن !

وقال الوزير كأنه ينتفض

- ماذا تقول السجن؟ !

وقال أحمد في هدوء

- نعم السجن إن الشيء الوحيد الذي أطلبه من الثورة بعد هذا العمر الطويل وبعد أن أصبحت الثورة دولة، هو إصدار قرار بوضعي في السجن !

ونظر إليه الوزير كأنه ينظر إلى مجنون، وقال

- ماذا فعلت وجئت تعترف به حتى تدخل السجن؟ !

- لم أفعل شيئًا بعد

- ولكن بأي سبب تريد أن يدخلوك السجن؟ !

- تحت التحقيق

التحقيق في ماذا وأنت لم تفعل شيئًا

- التحقيق في احتمال أن أفعل شيئًا .

- أنت رجل قانون وتعرف أن الاحتمالات لا تكفي لتوجيه أي اتهام

- ليس القانون ولكني أحد المقربين إليكم كل الناس تعرف أني من المقربين والمقربون لهم امتيازات كثيرة، والامتياز الوحيد الذي أطالب به هو إدخالي السجن

- ولكن لماذا؟ !

لأن القرية لم تعد تكفي

- تكفي لماذا؟

- لهربي من نفسي إن السجون وجدت لتحمي الناس وتحمي الدولة وأنا أريدها لتحمي نفسي من نفسي !

- لا أفهمك

- حتى تفهمني يجب أن تقدر أولًا أني تعبت إني الآن في الستين من عمري الواحد والستين ورغم ذلك ففكري لا يزال في شبابه لا يريد أن يشيخ معي ولا يريد أن يستسلم لواقعي وأصبحت أخشاه وليس هناك من وسيلة إلّا أن أحبس نفسي في زنزانة حتى لا يستطيع فكري أن يتحكم في تصرفاتي ولا حتى في لساني

وزفر الوزير زفرة زهق وقرف وأسند رأسه بين يديه كأنه لم يعد يستطيع أن يسمع مزيدًا من هذا الكلام، ثم قال

- صدقني يا أحمد لقد جعلت من نفسك مشكلة لا يمكن حلها

وقال أحمد وهو ينظر إلى الوزير بكل عينيه كأنه يرجوه أن يحتمله

- يكفي أنك اعترفت أني أصبحت مشكلة وحتى تصل إلى تحديد خطوط مشكلتي يجب أن تعرف أني لا أقبل أبدًا أن أحمل لقب «سابق» أفضل أن أموت قبل أن يعلن أني أصبحت من أصحاب السوابق وأنا ليس لي صفة أعتز بها وأحرص عليها إلَّا صفتي كثائر فكر ثوري وإيمان ثوري ولا أريد أن أعيش حتى أصبح في نظر وتقدير الناس ثائرًا سابقًا واحد من ثوار زمان واحد لا يستطيع أن يلاحق بثورته الأجيال الجديدة والتطورات السياسية والحضارية. وبما إني في الوقت نفسه أريد أن أستريح من نفسي ومن ثورتي فإن أفضل مكان وأشرف مكان يمكن أن يستريح فيه الثائر هو السجن إن وجودي في السجن هو تأكيد لصفتي كثائر وفي الوقت نفسه إعفائي من أداء مهنتي كثائر

وقال الوزير ساخرًا

- كنا نعرف أيام زمان نوعًا من الشبان يفتعل الحركات الثورية ويفتعل الاحتكاك بالبوليس حتى يقبض عليه وينشر اسمه في الصحف ويشتهر كأنه أحد الثوار. وهو ليس بثائر، إنما مجرد نصاب باسم الثورة، وأخشى بعد هذا العمر الثوري الطويل الذي عشته أن تحسب من بين هؤلاء تريد السجن لتبدو بطلًا

وقال أحمد في هدوء

- لا ألومك على تصور هذا الاحتمال لقد تصورته أنا أيضًا خشيت أن تعتبروا سعيي إلى السجن نوعًا من البحث عن الشهرة والبطولة ولكن يجب أن تقدروا أني لم أقم بأي عمل يمكن أن يبرر دخولي السجن إني أدخل السجن بناء على طلب شخصي أي يمكن أن يصدر القرار في صيغة «تقرر حبس الأستاذ أحمد عبد اللطيف حبسًا مطلقًا بناء على طلبه الشخصي» ثم لا ينشر هذا القرار في الصحف ولا يدري أحد أين اختفيت أرجوك افهمني يمكن أن تعتبرني مريضًا في حاجة إلى دخول مستشفى والمستشفى الذي يصلح لي هو السجن !

- أنت لست مريضًا والسجن ليس مستشفى وأنت تطالب الدولة بقرار استثنائي لا يقره القانون فإنك تريد أن تستغل صداقتك واحترامنا لك لتحقيق مطلب شخصي

- هذا صحيح ولكنه مطلب لا يكلف الدولة شيئًا وأنت تعرف كم كلفت الدولة المطالب الشخصية الأخرى

وسكت الوزير برهة ثم رفع رأسه وملأ عينيه من وجه الأستاذ أحمد كأنه يريد أن يتأكد أنه هو نفسه الأستاذ أحمد الذي يعرفه ثم قال

- أستاذ أحمد إن ما يحيرني هو اعتقادك أنك يجب أن تهرب من فكرك الثوري لماذا؟! إن الثورة لا تزال مستمرة ولا تزال قادرة على احتواء أي فكر ثوري ولا أعتقد أنك ضد الثورة أو معارض لها بحيث تتصور أنها لن تحتمل أفكارك

وابتسم أحمد ابتسامة الأستاذ وقال

- هناك فرق بين الثورية المضادة وبين اختلاف الموقف داخل الثورة الواحدة وأنا وأنتم أصبحنا من زمن نختلف في الموقف وأنا أقف في الشارع وأنتم تقفون في الداخل والذين يقفون في الشارع هم الذين اختاروا الحرية المطلقة حرية بلا مسئولية تنفيذية إنها حرية الفكر والذين يقفون في الداخل يقيدون حريتهم بعشرات السلاسل والأغلال السلاسل والأغلال التي تفرضها المسئولية التنفيذية وكل من الطرفين على حق في موقفه الذي يقف في الداخل يعارض هذا المشروع لا لأنه ضد الشعب ولكن الآن الدولة لا تملك ألف مليون جنيه أي أن الثائر المطلق لا يتقيد بالواقع بل يرفضه ويثور عليه ويركز كل فكره الثوري على المستقبل، أما الذي يحمل المسئولية التنفيذية فهو مقيد بالواقع وهو مضطر إلى الإبقاء على هذا الواقع وصيانته حتى لو اضطر إلى تسليط البوليس على رجل الشارع، وليس معنى ذلك أنه لا يفكر في المستقبل ولكن تفكيره قد يكون مجرد الإيمان بأن الواقع قادر على التطور لتغطية المستقبل، أو قد يكون تفكيره هو مجرد الاتكال على الغيب، ومواجهة كل المشاكل بهذا الاتكال ربنا يحلها و

وقاطعه سيادة الوزير فهمي عباس قائلًا

- المهم أنك قلت إن كلًّا من الطرفين على حق في موقفه أي يمكن التفاهم بينهما و

وقال أحمد مقاطعًا

- لا التفاهم هو اتجاه الضعفاء المستسلمين لا يمكن لأي ثورة أن تتقدم في مواجهة المستقبل إلَّا تحت ضغط وهو إما أن يكون ضغطًا من خارجها أو ضغطًا من داخلها ضغط قوة شعبية قائمة مستمرة تملك أن تجعل كل مسئول في حالة مستمرة من الدفاع عن نفسه وكي يدافع عن نفسه يجب أن يثبت قدرته على التقدم على التطور على مواجهة كل مطالب المستقبل على تحقيق المبادئ الثورية فإذا اختفى هذا الضغط أو ضعف، أصيب المسئولون عن الحكم بالغرور لأنهم تخلصوا من الإحساس بالدفاع عن النفس والغرور هو أخطر ما يتعرض له الحكم، وهو ما يمكن أن يجعل من الدولة مجرد شركة مقاولات لا تتصرف إلَّا في حدود ما يطلبه صاحب الملك المغرور ثورات كثيرة عجزت عن تحقيق مبادئها لأنها لا تواجه قوة ضغط الثورة الشيوعية مثلًا إن

مبادئ ماركس لم يطبق واحد على مائة منها حتى اليوم والمجتمع السوفييتي لا يزال يعاني من الانفصال الطبقي، ولو أن الطبقات تحولت إلى طبقات بيروقراطية لماذا؟ لأن الثورة قضت على قوة الضغط الخارجي عليها، ثم قضت على قوة الضغط الداخلي أيضًا أي قضت على الفكر الشيوعي الذي يقف في الشارع وفي أيام ستالين أعدم ثلاثة ملايين شيوعي كانوا يمثلون قوة ضغط على الحكومة، ثم بدأ المجتمع الشيوعي بعد ستالين يتقدم في بطء لأن الحكومة سمحت بظهور بارقة من الضغط الداخلي لهذا لا يمكن استمرار الثورة على أساس التفاهم بين الفكر المنطلق والفكر التنفيذي المسئول أي التفاهم بين المقيدين بالواقع والمتطلعين إلى المستقبل لا يمكن أن تستمر إلّا تحت قوى ضاغطة كل منها يضغط على الأخرى

وقال الوزير وهو يبتسم كأنه توصل إلى الحل الذي يرضي أحمد

- إذن فإني أتعهد لك باسم جميع الأصدقاء أن تترك لك حرية التعبير عن القوة الضاغطة إننا نثق فيك حتى لو اختلفنا معك

وصاح أحمد وقد احتد لأول مرة

- لا لا لا أستطيع قلت لك إني تعبت تعبت من نفسي ومنكم أريد أن أستريح أن أحال على المعاش ولا أطلب وسامًا ولا حتى خطاب شكر أريد أن أستريح في السجن إني كمن يرسل كتابه الذي انتهى منه لوضعه في غلاف محترم له والسجن هو الغلاف الذي أريد أن أغلف به حياتي هل في هذا شيء يصعب على الدولة؟ !

وقال الوزير وقد علا صوته هو الآخر

- إني لا أستطيع أن أتوسل لك في مثل هذا الطلب الغريب إنهم سيتهمونني بالجنون لمجرد أني أنقل إليهم فكرة مجنونة كفكرتك !

وهدأ الأستاذ أحمد وقال وهو يبتسم ابتسامة مسكينة ضعيفة

- لقد فكرت في الجنون أيضًا فكرت أن أدعي أني أصبت بمرض في عقلي وفي أعصابي وأطلب من الطبيب أن يضعني في مستشفى المجاذيب واخترت مستشفى بهمان بالذات لأن نزلاءه أقل خطرًا والانتهاء بالجنون هو نهاية مشرفة أيضًا لصاحب أي فكر ثوري لأن معناها أنه أجهد عقله في سبيل وطنه إلى أن جن، وقد يعتبر الناس أن الدولة هي التي وضعتني مع المجاذيب كما يحدث لكثير من المتهمين السياسيين تخلصًا من محاكمتي

وقال الوزير في تأثر

- أستاذي إني أشفق عليك من كل ما تفكر فيه من كان يصدق أن هذه يمكن أن تكون أفكار الأستاذ أحمد عبد اللطيف !

وقال أحمد

- هل تعرف ما فكرت فيه أيضًا فكرت في الانتحار إن الكاتب الأمريكي هيمنجواي انتحر لأنه اكتشف أنه أصبح أعجز من أن يقدم شيئًا جديدًا لقرائه وأنا ربما كانت هذه هي سر أزمتي لم أعد أستطيع أن أقدم فكرًا جديدًا لوطني لم أعد أستطيع أن أستمر باتجاهي الثوري وأصبح من حقي أن أنتحر على الأقل فإني أفضل لقب «مرحوم» على لقب «سابق» الثائر المرحوم أشرف من الثائر السابق

وقال الوزير وهو يتطلع إلى أحمد بنظرة إشفاق

- تستطيع أن تفكر في شيء آخر تستطيع أن تفكر في اعتزال العمل السياسي والتفرغ لمشروع زراعي أو اقتصادي كثير من زملائنا كما تعلم أنهوا وضعهم الثوري وتركوا كل مسئولية سياسية ونجحوا نجاحًا كبيرًا في مشروعات تصدير واستيراد أو غيرها من المشروعات

ونظر أحمد إلى الوزير كأنه يلومه وقال

- تريدني أن أكون واحدًا من هؤلاء إنهم جميعًا استغلوا الثورة في الاتجار لقد وجدت كتابًا أصدره واحد منهم في إحدى دول الخليج دول البترول وكتب عليه اسمه وكتب تحت اسمه صفة «عضو مجلس قيادة الثورة» رغم أنه لم يكن عضوًا في مجلس القيادة، ورغم أن الكتاب كله لا علاقة له بالثورة إنما هو كتاب عن مشروع تجاري ربح منه الثائر السابق أكثر من مليون جنيه استرليني هل هذا ما تريده مني؟! هل يهون عليك أستاذك إلى هذا الحد؟! هل تهون عليك الثورة لتنتهي إلى يد أمثال هؤلاء؟ !

وقال الوزير وهو يحاول أن ينهي الحديث

- لا لا أقصد هذا النوع من الناس هناك مشروعات أخرى مشرفة تستطيع مثلًا أن تقيم في القرية مزرعة دجاج الدجاج الآن يمثل حاجة شعبية ويحل أزمة حادة من أزماتنا، وهي أزمة المطالب الغذائية كل صاحب أرض يقيم الآن مزرعة فراخ وشخصيات معروفة من الشخصيات الثورية السابقة تعيش الآن على مشروعات الفراخ

وقال أحمد ساخرًا

- إن كل ما أجيده هو التعامل مع عقول الناس عقلي وعقلهم تبادل الفكر ولا أستطيع أن أتعامل بعقلي مع عقل فرخة وإن كانت الفراخ كما تقول أصبح لها قيمة شعبية ودور وطني

وقال الوزير وهو يضغط بيده على حافة المكتب كأنه يهم بالقيام حتى يلفت نظر أحمد إلى ضرورة إنهاء المقابلة

- على كل حال يا أستاذي أنا آسف لن أستطيع أن أعرض مشروعك على أحد لا أستطيع أكرر أسفي

وقام أحمد من على مقعده ومد يده يصافح الوزير مودعًا قائلًا

- كنت أنتظر هذا وقد قلت لك في أول الحديث إنك ستفاجأ وعلى كل حال من حقي أن أختار إما السجن أو مستشفى المجاذيب أو الانتحار !

والوزير يودعه حتى الباب قائلًا

- لا تنس مشروع الفراخ

وقال أحمد ضاحكًا

- هذا إذا قامت الفراخ بثورة !

الساعات الأخيرة قبل الغروب

كنت أقضي أيامًا في جزيرة رودس سائحة تبحث عن الهدوء والجمال وكنت جالسة في حديقة فندق «جراند أوتيل» على حافة حمام السباحة أقرأ كتابًا يضم مجموعة قصص قصيرة لكتّاب إيطاليا عبر الأجيال المتعاقبة من أول بوكاسيو وميكافيللي إلى الكاتب المعاصر مورافيا ووقف أمامي شاب وسيم رشيق كأنه رسم خطوط وعضلات جسده بنفسه وبذوق فنان، وفيه سمرة أوربا التي تختلف قليلًا عن سمرتنا سمرة مصر وهي سمرة يتميز بها شباب جنوب اليونان وجنوب إيطاليا وجزر البحر المتوسط وقد حاولت أولًا أن أتجاهل هذا الشاب ولكنه ظل واقفًا أمامي حتى اضطررت أن أرفع عينيّ إليه والتقيت بابتسامة حلوة بين شفتيه شدت ابتسامتي إليه وقال وكأنه يعرفني من زمان

- سيدتي منذ أيام وأنا أراك لا تفعلين شيئًا إلَّا القراءة في الكتب إنك تستطيعين القراءة في أي بلد ولكن جزيرة رودس ليست مخصصة للقراءة، إنها جزيرة تستطيع أن تعطي أكثر مما يعطي أي كتاب

وكان يتكلم بالإنجليزية وبلهجة إيطالية .

وقلت وابتسامتي تتسع بلا افتعال كأني فرحة بهذا الجمال الذي يعرض نفسه عليّ

- إني لا أستطيع أن آخذ شيئًا من رودس قبل أن أنتهي مما يعطيه لي هذا الكتاب

قال وهو ينظر إلى الكتاب بين يديّ في زهق كأنه ينظر إلى منافس خطير

- هل يأخذ منك وقتًا طويلًا؟

قلت

- إني أقرأ في قصة قصيرة .

قال

- قد تأخذ منك ساعة

قلت

- ربما أقل

قال وعيناه مركزتان على وجهي كأنه يحاول أن يكتشف مصيره معي

- هل أعود إليك بعد ساعة أقصد نصف ساعة؟

قلت وقلبي يضحك

- حاول

قال في إصرار وكأنه انتهى من تحديد مصيره

- سأحاول

وابتعد عني وعيناي تجريان وراء قوامه الممشوق المرسوم بخطوط فنان وتتعلقان بشعر رأسه إنه لا يطلق شعر رأسه بلا حساب كما هو موضة الشبان هذه الأيام ولكنه يضعه في قالب معتدل يتفق مع ملامح وجهه، وهو ليس شعرًا ناعمًا لامعًا ولا شعرًا خشنًا غامقًا، ولكنه شعر متموج في لون الساعات الأولى من الغروب، وأحسست إحساسًا قويًّا بأني أريد أن أمد يدي وأغرز أصابعي بين خصلات شعره وطبعًا قاومت هذا الإحساس ورفعت كتابي أمام عيني أحاول أن أهرب منه وأعود إلى القراءة

ومنذ بدأت أعتمد على القراءة لملء الفراغ الواسع الذي أتعرض له في كثير من أيامي، وأنا لا أقرأ إلّا القصص القصص الطويلة والقصص القصيرة ولا أحس وأنا أقرأ القصص بمجرد التسلية وتضييع الوقت، كما لا أحس بأني فقط أنتقل لأعيش في الخيال، بل أحس وأنا أقرأ قصة كأني أقرأ دراسة اجتماعية إن القارئ يستطيع أن يتعرف على كل طبائع الشعوب وكل مميزات الشخصية الإنسانية من خلال القصص التي يكتبها كتاب كل شعب ولذلك أصبحت هوايتي أن أجمع القصص التي تكتب في كل بلاد العالم قصص روسية وقصص يابانية وقصص هندية و و بل إني قرأت أيضًا قصصًا كتبها كتّاب من غانا ومالي وكوبا و وأصبحت أحس كأنه من السهل عليّ أن أكتشف شخصية أي إنسان من أي بلد في العالم، حتى هذا الشاب الذي وقف أمامي ألبرتو إني أعرفه من خلال قصة قرأتها منذ أكثر من عشر سنوات كتبها كاتب ألماني بعنوان: «قيمة الحب عشرة» وبطلها شاب احترف اصطياد السائحات العجائز الإنجليزيات والأمريكيات ويعطيهن كل ما يطلبن من متع نظير أجر غال، واتسعت أعماله إلى حد أنه افتتح بيتًا كاملًا مخصصًا لاستقبال عجائز النساء،

واتسعت شهرة هذا البيت في مجال السياحة في ألمانيا حتى أصبح يتردد عليه النساء الصغيرات أيضًا، وهو لا يبخل أبدًا بقواه كرجل يبيع الجنس، ولكنه بدأ يحس أنه في حاجة إلى بعض المقويات، ثم لم تعد المقويات تكفي لتغطية طلبات الزبائن فاستعان باثنين من الشبان ليعملا معه داخل البيت، ولكنه كان دائمًا هو المطلوب وهو صاحب الشهرة بين العجائز والشابات إلى أن أحب أحب فتاة لا تعرف شيئًا عن مهنته ولا تعرف كيف جمع هذه الثروة الضخمة، وأحبها فعلًا بكل عقله وقلبه وقرر أن ينهي أعماله الخاصة بالسائحات ويتفرغ للحب، ولكنه عندما بدأ يعطي للحب عندما بدأ يمارس الحب فشل لم يستطع وكان يعود ليمارس مهنته مع سائحة عجوز فينجح، ثم يجري إلى حبيبته معتقدًا أنه استرد ثقته في قواه ولكنه يفشل واعتقد أن الحب يرفض أن يستجيب مع آلته، وهو قد حوّل نفسه وجسده إلى آلة لا تستطيع أن تعيش الإحساس الإنساني الإحساس بالحب فانتحر

هذه هي القصة التي ذكرني بها ألبرتو وحكمت بها عليه إنه هو أيضًا يصطاد السائحات العجائز إنه يحترف مهنة يطلق على صاحبها لقب «جيجولو» وهي مهنة منتشرة في كل فنادق العالم، وفي فنادق مصر أيضًا وحتى أمس كان ألبرتو في خدمة امرأة أمريكية ربما كانت في السبعين من عمرها، ولعلها سافرت هذا الصباح وتركت رودس فجاء يعرض نفسه عليّ

وأنا

هل أنا عجوز؟! إني - بلا كذب - في التاسعة والخمسين من عمري، ولن أعترف بأني وصلت الستين عندما أصل إليها، ولكني محتفظة بقوامي ونضرة جلدي المشدود فأبدو كأني في الأربعين من عمري، وصدقوني أني لم أجر عملية شد جلد وهي العملية التي أجرتها معظم سيدات المجتمع الراقي في مصر أبدًا وربما كان احتفاظي بنضارتي يرجع إلى هدوئي الدائم، ورضائي عن نفسي، ونجاحي العائلي نجاح زوجي ونجاح أولادي وبناتي إن النجاح في حد ذاته عملية تجميل تشد الجلد وتحتفظ بنضارة اللمحات واتساق القوام

لا، إن ألبرتو لم يأت إليّ لأني عجوز. لقد جاء إليّ لأني وحيدة إنه يراني منذ أسبوع في هذا الفندق وأنا وحيدة ووحدة المرأة هي إغراء طبيعي ليتقدم إليها أي رجل الوحدة الفراغ إنهما أكثر ما يهدد تصرفات الإنسان سواء كان رجلًا أو امرأة وأنا أتغلب على وحدتي وفراغي بقراءة القصص

وعدت وفتحت الكتاب وحاولت أن أعيش في داخله كأني أحمي به نفسي من ألبرتو ولكني لم أستطع إن ألبرتو أثار في نفسي إحساسًا بأني مظلومة في وحدتي، برغم أنها ليست المرة الأولى التي أعيش فيها وحيدة وفي فندق وفي بلد أجنبي، فمنذ أكثر من ثلاثين عامًا وأنا أسافر كثيرًا مع زوجي إلى أوروبا،

وسافرت معه مرات إلى أمريكا، ومرتين إلى روسيا، وفي كل مرة كان ينتهي من عمله في العاصمة التي نقصدها، ثم يقنعني بأنه في حاجة إلى السفر وحيدًا إلى عاصمة أخرى، وغالبًا ما تكون لندن أو باريس، ونتفق على أن أنتظره في مدينة من المدن السياحية المعروفة وكنت أقبل هذه الفرقة بيني وبينه في بساطة وفرح لأنه في الغالب كانت ابنتي أمينة وابني طارق معنا، أو كانا يلحقان بي في البلد التي نختارها وأقضي معهما أسبوعًا أو أسبوعين في انطلاق عائلي حلو إلى أن يلحق بنا عبد اللطيف ونعود جميعًا إلى مصر ولكن أمينة وطارق كبرا أمينة الآن زوجة وأنجبت ولدين، وطارق يقيم في أمريكا ورغم ذلك فزوجي لا يزال يتركني وحيدة في كل مرة نسافر فيها إلى أن يعود إليّ إنه في حاجة إليّ عندما يسافر حتى يستكمل صفته الرسمية وحتى أكون بجانبه في الدعوات التي توجه إليه، ولأنه لا يطمئن إلى أحد في حفظ أوراقه إلّا إليّ، وقد أصبحت أعرف وأحفظ من هذه الأوراق أكثر مما يعرف هو نفسه ثم بعد أن تنتهي العملية يصبح وليس في حاجة إليّ فيبتكر الأعذار ليتركني، وكان زمان يجد في الأولاد حجته فهو يريد أن يدخلهما مدرسة في جنيف أو يريد أن يلحقهما بالدراسة الصيفية في أكسفورد أو كمبردج، أو يريد لهما أن يتمتعا بمصايف أوروبا، ولكن بعد أن كبر الأولاد لم تعد هناك حجة تقنعني إلّا أنه يريد أن يكون بعيدًا عني، وكنت أستسلم لما يريد ماذا يمكن أن يكون غرضه من هذه الفرقة المتعمدة أن يمتع نفسه كرجل يذهب إلى هذا الصنف من النساء الذي يعطيه بالثمن لا يمكن أن يكون عبد اللطيف مرتبطًا بأي علاقة جادة مع أي امرأة إني أعرفه إنه يلعب أو يعطي نفسه إجازة زوجية، وهو في حاجة إلى هذه الإجازة خصوصًا بعد أن وصلنا إلى هذه السن إنه الآن في الثانية والستين ولا يزال محتفظًا بكل رجولته إني أعرف رغم إني فقدت القدرة منذ سنوات على إثارة هذه الرجولة إن كل ما يحتاج إليه مجرد امرأة يدفع لها نفس الصنف الذي ينتمي إليه ألبرتو امرأة تبيع نفسها. ورجل يبيع نفسه ولكني لم أشعر أبدًا بحاجتي إلى رجل من هذا النوع ولا من أي نوع آخر إني عشت وحيدة في مصايف أوروبا وفي جزر البحر الأبيض في كابري وسيسليا وكريت وجزر كناري في المحيط الأطلنطي أصبحت أنا التي تختار الملجأ الذي أعيش فيه إلى أن ينتهي زوجي من لعبه وأنا التي اخترت جزيرة رودس لمجرد أنها قريبة من أثينا التي كنا فيها للعمل

وفجأة وجدت ألبرتو واقفًا أمامي يقول من خلال ابتسامته الرزينة

- هل انتهت القصة؟ !

ورفعت عينيّ إليه وطارق جديد يلح على عقلي لماذا لا أجرب؟! ماذا سأخسر؟! إنها مجرد تسلية تريحني من وحدتي وفراغي ومن قراءة القصص وقلت وأنا أبتسم له ابتسامة كبيرة

- الواقع أنها لم تنته

وربما شجعته ابتسامتي فمد يده وأخذ الكتاب من بين يدي وقال

- سأروي لك قصة أمتع مما تقرئين ومن يدري ربما استطعنا أنت وأنا أن نكتب قصة هل نكتبها بالعربية أم بالإيطالية؟ !

وقلت في دهشة

- كيف عرفت أني أكتب بالعربية؟ !

قال وهو يشد مقعدًا ويجلس بجانبي

- سألت لقد أخذتك أولًا على أنك إسبانية إن ملامحك من ملامح الإسبانيات ولكني عندما سألت عرفت أنك مصرية

وقلت ضاحكة

- وماذا عرفت أيضًا؟ !

قال كأنه يطمئنني

- لن أعرف أكثر مما تريدينني أن أعرف المهم ألَّا نبقى الآن هنا هل ذهبت إلى ليندوس؟ !

قلت

- سمعت عنها ولم أذهب لأني لا أحب الذهاب في أفواج سياحية

قال

- ستكونين أنت وحدك فوجًا كاملًا إنك تساوين عشرًا تعالي

وببساطة تركت له يدي يشدني منها ويبقى محتفظًا بها ونحن نسير إلى خارج الفندق ويدعونني للركوب بجانبه في سيارته إنها سيارة فيات صغيرة قديمة ورغم ذلك فرحت وأنا أركبها كأني أصبحت طفلة وجدت لعبة تلعب بها، أو ربما كانت هذه السيارة الصغيرة القديمة قد حررتني من كياني الاجتماعي الذي يفرض عليّ أن أركب السيارة البويك والمرسيدس الكبيرة الفخمة أصبحت حرة والطريق إلى «ليندوس» يعلو إلى قمة الجبل ويهبط إلى الوادي وكله

مكسو بأشجار الزيتون وأشجار البرتقال والجمال من حولي يكاد يطير بي لا ليس مجرد الجمال لقد عشت قبل ذلك في القمم والجبال وبين أشجار الزيتون والبرتقال، ولكن هذه هي المرة الأولى التي أحس فيها بأني أعيش مغامرة مع رجل غريب إن الإحساس بالمغامرة يجعل الإنسان يركز انتباهه أكثر إلى كل ما يمر به فيكشف مزيدًا من الجمال ولكن لماذا أسميها مغامرة؟! إنها مجرد رحلة سياحية أقوم بها على حسابي الخاص، وألبرتو ليس إلّا دليلًا سياحيًّا ترجمانًا وأنا مطمئنة إليه مطمئنة لأني سيدة كبيرة عجوز لا يمكن أن يطمع فيها أي شاب كألبرتو

وهو لا يكف عن الكلام طول الرحلة إنه يجعلني أضحك عندما يريد أن يضحكني ويزيد معلوماتي عندما يريد أن يزودني بمعلومات ويروي لي قصصًا مسلية تصلح ليضمها كتاب من الكتب التي أقرؤها وقد انتهزت فرصة سكت فيها وسألته

- ألبرتو ماذا تعمل ما هو عملك؟

ونظر إليّ كأنه استسخف السؤال وتلعثم قليلًا ثم قال

- أنا رجل أعمال

قلت

- أي نوع من الأعمال؟

وأطال نظرة اللوم إليّ ثم قال

- كل الأعمال تؤدي إلى نتيجة واحدة كلها محاولات لتحقيق سعادة الإنسان إن مدرس الأطفال يبيع السعادة للطفل بتعليمه والجرسون في بار يبيع السعادة بتقديم الخمر للزبائن ورئيس الوزراء في أي بلد يدعي أنه يبيع السعادة للشعب بتحقيق الحرية والرخاء وأنا أزاول أي عمل يحقق السعادة لا يهم نوع العمل المهم أن أكون سعيدًا به وأن أسعد به غيري

قلت

- إنك تسعدني فعلًا، ولكن هل أنت سعيد بي؟

قال

- إني الآن سعيد بالأمل فيك ولا يمكن أن يتحقق الأمل بمجرد نظرة أو مجرد لقاء إن الأمل يولد كالجنين ثم يأخذ في النمو إلى أن يتحقق ويستكمل نفسه وأملنا أنت وأنا لم يولد إلّا منذ لحظات ألّا تسمعين صراخه واء واء واء !

وضحكت وعدت أسأله

- هل تحقق الأمل بينك وبين السيدة الأمريكية التي كنت أراها معك؟ !

ونظر إليّ وبين شفتيه ابتسامة كأنه يشفق بها عليّ وقال

- أراهن أنك سيدة بلا تجارب إنك تجعلينني أحس كأني أول رجل في حياتك، بعد زوجك طبعًا

قلت كأني أنهره

- إنك لم تدخل حياتي بعد

قال

- أقصد أني أول رجل غريب تلبين دعوته

قلت

- هذا صحيح

قال

- وهذا ما يجعلك تحاولين أن تعرفي كل شيء عني رغم أني معروف في كل أوروبا تقريبًا وهذا أيضًا ما يجعلك تغارين من السيدة الأمريكية جاكلين و .

وقاطعته

- إني لا أغار ولكني فقط أحاول أن أعرفك

قال

- حتى محاولة معرفتي تجعلك كأنك طفلة صغيرة تجتاز تجربة لأول مرة، فإن معرفتي لا تهم في أي شيء، المهم هو اللحظة التي نقضيها معًا، هل أنت سعيدة بها وهل أنا سعيد بها أم لا؟! ولكن لا يهم سأروي لك قصة جاكلين لقد

عرفتها منذ عشر سنوات في فينيسيا وكنت لا أزال في أولى تجاربي، وكان لها فضل كبير عليّ علمتني كل شيء ورفعتني إلى الحياة التي كنت أحلم بها قدمتني إلى أرقى المجتمعات وعشت معها في أكبر الفنادق التي أصبحت الآن زبونًا دائمًا بها بل إن أصحاب الفنادق يتنافسون على دعوتي للإقامة عندهم كما يتنافسون على استئجار الفرق الموسيقية أو الفنانين المشهورين وقد أخذتني جاكلين معها إلى أمريكا إنها تملك أسهم إحدى شركات البترول في ولاية أوكلاهوما وعشت هناك أكثر من عام ثم لم أعد أطيق، رغم كل ما كانت تحيطني به جاكلين لقد اشترت لي طائرة خاصة لأتنقل بها داخل أمريكا، وكنت أطير بها إلى لاس فيجاس لألعب القمار وأخسر وجاكلين تتحمل، ورغم ذلك لم أعد أطيق وكانت كريمة فاتفقت معي على أن أعود إلى أوربا وتأتي هي إليّ كلما أرادتني لقد سافرت صباح اليوم ومنذ ثلاثة أيام منذ رأيتك في الجراند أوتيل وأنا مصمم أن أتقدم إليك بعد أن تسافر جاكلين وأقول لك بصراحة لو عادت جاكلين فسأضطر أن أعود إليها

قلت وأنا مبهورة بالصراحة التي يتكلم بها

- إنها كبيرة أكبر مني بكثير لعلك تحس بها كأم

قال في بساطة

- لا أحس بها وأحبها كعمل إن الطبيب لا يهمه سن المريض واعتبريني طبيبًا نفسانيًّا .

ويزداد انبهاري بصراحة ألبرتو إنه لا يخفي شيئًا عن طبيعة عمله بل يتحدث كإخصائي فخور بتخصصه إنه لا يخدعني ولا يحاول أن يصل إلى شيء لا أعرفه إنه يقدم لي نفسه ويتركني أختار والسيارة القديمة الصغيرة تعلو وتهبط بنا بين أشجار الزيتون والبرتقال، وفجأة بدأت السيارة تهتز ثم عجزت عن السير وتوقفت، وصرخ ألبرتو

- هذا ما كنت أخشاه

ونزل من السيارة وفتح غطاء الموتور وبدأ يعبث فيه إلى أن عاد إلى التحرك وعدنا نقفز في طريق الزيتون والبرتقال ثم عادت السيارة وتوقفت، ونزل منها ألبرتو قائلًا

- إنها غلطتي كنت أريد أن أشتري سيارة جديدة من روما وليس من هنا

ثم دار وفتح لي الباب قائلًا

- سنضطر أن نسير كيلو مترًا واحدًا ونصل إلى قرية «مالونا» إن هناك أحسن نبيذ هل تستطيعين السير كيلو مترًا واحدًا أستطيع أن أحملك بين ذراعي لو أردت

وقفزت من السيارة في خفة كأني أحاول أن أثبت له شبابي، وتركنا السيارة وراءنا دون أن يهتم ألبرتو حتى بإغلاق أبوابها، وبدأنا نسير على أقدامنا بين أشجار الزيتون والبرتقال وقلت

- ألا يستحسن أن نغلق أبواب السيارة؟

قال وهو يأخذ يدي في يده

- لم نعد في حاجة إليها ليأخذها من يريد

وسرنا حوالي نصف ساعة وكل ما حولي جميل والجمال في داخلي أحس كأني أعيش قصة بطلتها فتاة صغيرة خطفها فارس أحلامها ولم أكن أحس بألبرتو بالذات ليس هو وهو إلى الآن مجرد شاب من الشباب الذين تعودت أن أقيسهم بعينيّ وأنا جالسة في مقاهي أوروبا ولكن ما أحس به هو ما يحيطني به ألبرتو هو الإحساس بالمغامرة بالشيء الجديد بالجمال الجديد جمال التحرر من كل ما عشت فيه من تقاليد وتوقف ألبرتو تحت شجرة زيتون قائلًا

- استراحة لمدة عشر دقائق

ثم سقط على الأرض في ظل الشجرة وأسقطني معه ثم سكت عن الكلام وأخذ ينقل عينيه في أنحاء وجهي، ثم مد ذراعه ووضعها فوق كتفي، ثم قال في همس

- أريد أن أحاول

وعيناي متعلقتان بوجهه الوسيم وشعره المتموج في لون الساعات الأولى من الغروب ولكني حائرة لا أدري ماذا يريد أن يحاول؟! ولا أدري ماذا أريد أنا؟ !

ومال بشفتيه فوق عنقي، ثم تسلل بهما فوق وجنتي، ثم أحسست بهما بين شفتي وتجمدت شفتاي منذ أكثر من عشر سنوات لم أتلق قبلة بين شفتي زوجي عبد اللطيف كان قد استغنى عنهما كما يستغني عن الحذاء القديم، وأنا أيضًا شفتاي كانتا قد فقدتا الحاجة بالإحساس بالقبل ولذلك تجمدت شفتاي بين شفتي ألبرتو وهمس مبتسمًا

- إنك مازلت ساذجة أحس كأني يجب أن أعلمك كل شيء حتى القبل

وشفتاي لا تزالان متطلعتين إلى شفتيه كأنهما تستجديانه ألّا يتركهما وعاد إليهما وتركتهما له أطلقتهما من سجنهما الطويل ولكني وأنا أقبله أحاول أن أتذكر كيف كنت أقبل قبل أن أجتاز سن القبل وكنت أخشى أن أفعل شيئًا منفرًّا أو شيئًا لا يعجبه ولكن ألبرتو كان يتصرف بين شفتي تصرف الأستاذ إنه يعلمني القبل يلقي عليّ الدرس الأول وتغلبت عليّ نزعة كبرياء المرأة فأبعدت شفتيّ عنه قائلة

- كفى يا ألبرتو دعنا نعد إلى السير

وقفزت واقفة، وقفز معي وهو يبتسم كأنه يعلم كل أحاسيسي، وبدأنا من جديد، وبدأ يعود إلى أحاديثه كأنه يعزف لي الألحان بين أشجار الزيتون والبرتقال !

إلى أن وصلنا إلى قرية «مالونا» ودخلنا هناك دكان بقال واستقبلوه بالتهليل كأنهم يعرفونه من زمان طويل، وجلسنا لنتناول طعام الغداء والنبيذ، وهو يقوم بين الحين والآخر ليبدل الأسطوانات فوق «الديستوتك» وبعد أن انتهينا وقررنا أن نعود لنستأجر سيارة ونعود إلى «رودس» فتحت حقيبتي وأخرجت منها كل ما فيها من آلاف الدرخمات ومددت بها يدي من تحت المائدة إلى ألبرتو قائلة

- ألبرتو أرجوك ادفع عني الحساب

وكنت أعتقد أن هذا ما يجب أن أفعله بعد أن اعترف لي ألبرتو بعمله

ونظر إليّ ألبرتو في دهشة ثم ضحك ضحكة كبيرة وقال

- ليس هكذا أيتها الطفلة الساذجة

ثم دفع الحساب من جيبه، وأعتقد أنه كان سخيًّا في دفع البقشيش فقد أثار في الدكان كثيرًا من التهليل وصيحات المرح وأكثر من ذلك أخذني إلى دكان في القرية يبيع تحف السيراميك التي تشتهر بها رودس، واشترى لي قطعًا غالية دفع ثمنها من جيبه

وركبنا السيارة التاكسي وأنا حائرة لا أدري كيف أحدد أسلوب التعامل معه ترى كيف يتعامل زوجي عبد اللطيف مع النساء اللاتي يعطينه اللحظات الحلوة؟ !

وقال ألبرتو

- ضاعت منا «لاندوس» اليوم فالليل هناك بارد وهم ينامون بمجرد أن تنام الشمس ولكننا سنذهب غدًا أو بعد غد وبعد أن نجد سيارة جديدة

والتاكسي ينطلق بنا عائدًا بين أشجار الزيتون والبرتقال، وألبرتو يضع ذراعه فوق كتفي وأملت رأسي واسترحت بها فوق كتفه ثم رفعت يدي ودسست أصابعي بين خصلات شعره حققت ما كنت أحلم به منذ رأيته شعره المتموج في لون الساعات الأولى من الغروب لِمَ لا؟! إني أعيش في حالة نسيان نسيت عمري، ونسيت زوجي وأولادي، ونسيت مركزي إني أعيش قصة، ويبدو أن إدماني قراءة القصص جعل مني امرأة مخمورة بقصة تؤلفها وتعيشها !

وكانت الساعة الرابعة عندما وصل بنا التاكسي إلى الفندق وتركني ألبرتو على أن نلتقي في التاسعة إنه هو أيضًا الذي دفع أجر التاكسي وقد حاولت أن أدفع أنا ولكنه عاد وقال مبتسمًا

- لا تكوني ساذجة

ومن الرابعة حتى التاسعة كنت أشبه بالمجنونة كنت كأني أحاول أن أخلق نفسي من جديد لقد دخلت الحمام ولأول مرة أهتم بأشياء مضت سنوات طويلة لم أهتم بها إني أستعرض كل تفاصيل جسدي في المرآة، وأتحسس صدري لأطمئن إلى أنه لا يزال يحتفظ بشيء من تماسكه وساقي وذراعي وبطني لا شك أني لا أزال محتفظة باتساق قوامي وبذلت في الاستحمام مجهودًا لم أتعود أن أبذله، ولم أكن في كل ذلك أفكر في ألبرتو أو يخطر ببالي لم أكن أعد نفسي له ولكني كنت أعد نفسي لنفسي كنت أعيش شخصية جديدة أريدها هكذا ثم قررت أن أذهب إلى الكوافير رغم أن شعري ناعم وكنت قادرة دائمًا على أن أعقصه كما أريد بلا كوافير وعندما بدأت أختار الثوب الذي سأبدو به بدأت أبحث عن مظاهر أخرى غير التي تعودتها لقد تعودت أن أختار ثوب المساء لأظهر به في الدعوات الرسمية بصحبة زوجي، أو في السهرات الاجتماعية بصحبته أيضًا وكنت أتجه دائمًا إلى الأزياء الحشمة العاقلة، وكنت معروفة في كل المجتمعات باتساق ذوقي في اختيار ثوبي مع الاحتفاظ بهذه الحشمة العاقلة ولكنني الليلة لست حشمة ولا عاقلة، إني أفكر فيما يكشف عنه الثوب أكثر مما أفكر في الثوب نفسه ذراعي عنقي وإبراز صدري وخطوط ظهري كل ما أتخيل أنه جميل مني أحاول أن أبرزه !

ووقفت أمام المرآة معجبة ببطلة القصة التي أؤلفها ولكن ماذا أحمل معي لألبرتو؟! يجب أن أحمل له هدية تشجعه على أداء مهمته في إسعادي هكذا تتطلب القصة وألبرتو ليس «جيجولو» رخيصًا يقبل أن تدفع له المرأة حساب السهرة إنه محترف غالي الثمن وكنت قد اشتريت من باريس علبة سجائر

ذهبية وولاعة سجائر كارتيه هدية لأخي إسماعيل سأعطيهما لألبرتو وأشتري لإسماعيل هدية أخرى

واستقبلني ألبرتو في بهو الفندق كأنه بهر برشاقتي ولا أريد أن أقول جمالي على الأقل بهر بجمال ثوبي وإعدادي لنفسي وجلسنا نتناول العشاء في صالة الفندق. وأخرجت علبة السجائر والولاعة وقدمتهما له قائلة

- حتى لا تنساني

ولم يبد عليه أنه بهر بالهدية قلبها بين يديه وقال بلا حماس

- ألف شكر كنت في حاجة فعلًا إلى علبة سجائر وأفضل دائمًا ولاعات كارتيه .

قالها ببساطة كأنه تعود على أن يتلقى مثل هذه الهدايا ثم بدأ يثير اهتمامي بحكاياته ونكاته ويقضي وقتًا طويلًا في اختبار أنواع النبيذ، ويروي لي تاريخ كل نوع وأنا لم أتعود أن أشرب من النبيذ ولكنه استطاع أن يجعلني أشرب لم أسكر ولكني شربت وبين كؤوس النبيذ قال لي ألبرتو

- غدًا نذهب في رحلة بحرية بين الجزر وبعد غد نكون قد اشترينا السيارة ونذهب إلى ليندوس خبريني هل تفضلين المرسيدس أم الألفا روميو؟ !

وتوقف عقلي لحظة عند هذه الكلمة ماذا يقصد؟! ولكني بسرعة تجاهلت كل ما يخطر على بالي مما يقصده، وقلت

- ألفا روميو تليق بك والمرسيدس تليق بي إن فرق السن يتحكم أيضًا في أنواع السيارات !

وقال كأنه غضب

- لا تتكلمي عن السن مرة أخرى تعالي سأثبت لك أن لا فرق بيني وبينك

وقام من حول مائدة العشاء وقمت معه، وفي هذه المرة لم يدفع الحساب، قيد المبلغ في حسابي بالفندق، ويبدو أن الجرسونات في هذا الفندق وهو أكبر فندق في المدينة تعودوا كلما رأوه مع امرأة من النزلاء أن يضيفوا الثمن على حسابها وقلت وأنا ألحق بخطواته السريعة

- إلى أين؟ !

قال

- سترين

قالها وكله ثقة في نفسه وكأنه تملكني وكأني استسلمت له ثم توقف برهة عند مكتب البواب وطلب مفتاحًا، ونظر البواب إليّ وابتسم ابتسامة لم أرتح لها ثم أعطاه المفتاح، ثم أدخلني معه في المصعد وضغط على رقم الطابق الرابع إنه نفس الطابق الذي أقيم فيه ثم سار بي في نفس الممر الذي يؤدي إلى حجرتي ووقف أمام حجرتي فعلًا الحجرة 444 وفتح بابها بالمفتاح وقلت كأني أصرخ :

- كيف أعطوك مفتاحي؟

قال

- لقد كنتِ معي

قلت

- لم أسمعك تطلب مفتاحي، ولو سمعت لاعترضت

قال في ثقة

- لا أظن

ودخل الغرفة كأنها غرفته، كأنه يعرف كل تفاصيلها وكل ما فيها، ثم رفع سماعة التليفون وطلب زجاجة «ليكير» من عصير النعناع، ثم جلس على الأريكة العريضة وشدني ليجلسني إلى جانبه، وقال وهو يحتويني بعينيه الغامضتين وابتسامته الحلوة تكاد تلتقط شفتي

- يا عزيزتي إن العمر إحساس وأنا أحس بك الآن كأنك فتاة في الرابعة عشرة، وأحس بنفسي كأني وحش في الأربعين قرر أن يفترسك وأنت أنت في حاجة إلى هذا الإحساس الإحساس بأنك امرأة إن القدرة على الإحساس لا تضعف أبدًا ولا تذبل

وقد بدأت أحس فعلًا

وبين كؤوس العصير المسكر يشتد إحساسي بأني امرأة وأن ألبرتو رجل وأننا قريبان جدًّا من الفراش وألبرتو يتحكم فيّ بمهارة صنايعي يجيد الصنعة لا شيء بيننا سوى الصنعة المهارة في الإخراج وفي الوصول

واكتشفت أنه لا شيء هناك يسمى سن اليأس بالنسبة لأي امرأة قد يكون الوصول إلى سن اليأس هو توقف المرأة عن القدرة على الإنجاب، ولكن ليست هناك أبدًا سن تصل فيها المرأة إلى العجز عن الإحساس وقد كنت أعتقد أني وصلت إلى سن اليأس منذ سنوات، ولكني الآن مع ألبرتو أحس بالمتعة كاملة أحس كأني أعيش في جسد تنبض كل خلجة منه بالحياة ليس في داخلي قطعة ماتت أو فقدت الإحساس وربما كان هذا هو سر ما كنت أعانيه مع زوجي عبد اللطيف إنه يؤمن بما يسمى سن اليأس بالنسبة لي فتجاهل إحساسي كل هذه السنين إنه ما تعانيه كل نساء الشرق عندما يصلن إلى هذه السن وقد حررني ألبرتو من المعاناة

وتركني ألبرتو عارية فوق الفراش. قائلًا

- سأراك غدًا

وفي لحظة خلعت من أصبعي خاتمي السوليتير الذي يحمل فصًّا ماسيًّا زنته ثمانية قراريط. وكنت قد اشتريته منذ أكثر من عشر سنوات بثلاثة آلاف جنيه وربما يساوي الآن ثلاثين ألفًا، وأعطيته لألبرتو قائلة

- بعه واشتر لنا سيارة ألفا روميو

وأخذه ألبرتو بعد أن قبل أصبعي الذي خلعته منه

إنه ثمن غال دفعته للمفاجأة التي فوجئت بها مفاجأة أني ما زلت أعيش إحساسي كامرأة

ومهما كان الثمن الذي دفعته فلا يمكن أن يقاس بما دفعه زوجي عبد اللطيف خلال كل هذه السنوات وخصوصًا بعد أن تعدى الستين حتى يمارس إحساسه برجولته مع نساء أوربا اللاتي يقدمن نفس ما يقدمه ألبرتو يقدمن متعة الإحساس .

*

ونمت ليلتها لعلي لم أنم بل أغمى عليّ فقد كان ألبرتو قد استنزف كل قواي من ساعة أن قابلته في الصباح حتى تركني على فراشي بعد منتصف الليل واستيقظت في حوالي الساعة الثانية بعد الظهر لا لم أستيقظ ولكني فزعت نافرة من فوق الفراش كأن نارًا مستني، وكل ما حدث أمس ينطلق في رأسي كيف استسلمت لكل هذا؟! إن هذا الصنف من المحترفين أمثال ألبرتو

أعرفه وأسمع عنه منذ زمان ولكني لم أستسلم أبدًا بل لم يكن يخطر على بالي التعرض لمثل هذه التجربة وزوجي إنه يعيش حياته الخاصة منذ سنوات وقد احتملتها دون أن أحاول أبدًا أن أعطي لنفسي الحق في حياة خاصة بي انتقامًا منه أو ردًّا عليه ثم مركزي وقيمتي في المجتمع المصري والعربي والأوروبي إن المركز والقيمة لا يصنعهما ما يعرفه الناس عنك ولكن ما تعرفه عن نفسك وما أعرفه عن نفسي الآن يهدم مركزي وقيمتي وأولادي يا خبر! كيف أواجه أولادي وأحفادي وفي صدري خطيئة كبيرة أخفيها عنهم؟! إن الإحساس بأني أخفي عنهم شيئًا يضعفني أمامهم يجعلني أستسلم لأخطائهم، لو وقعت ابنتي أمينة في خطيئة ماذا أقول لها وأمها وقعت في نفس الخطيئة والله ماذا يفعل بي الله؟! إنه قد يغفر للرجل، بل منحه الحق في الزواج من أربع حتى يحميه من الخطيئة. أما المرأة فهو لا يغفر لها بسهولة ولم يمنحها شيئًا تحمي به نفسها إلا إيمانها واستسلامها لحكمته قد يصب غضبه عليّ في صحتي، أو في أولادي، أو في زوجي يارب كن غفورًا احمني من غضبك وقررت أن أقوم وأتطهر وأصلي ولكن هذه الحجرة كلها لم تعد تصلح لأداء صلاة إنها موقع الخطيئة

وتعذبت ساعات طويلة حاولت خلالها أن أقنع نفسي بأن ما حدث ليس شيئًا كبيرًا ولا غريبًا، وأني يجب أن أتحرر من التقاليد القديمة وأعيش المجتمع الحديث إن في الجزيرة عشرات من الرجال من أمثال ألبرتو وكل منهم يبيع بضاعته لسيدات كلهن في سني وأكبر مني وكلهن من عائلات كبيرة ثرية بل حتى المجتمع العربي كثير من السيدات المحترمات يتعاملن مع أمثال ألبرتو كلما خرجن من بلادهن بل إن سوق النساء العربيات أصبحت هي السوق الرائجة لصناعة ألبرتو بل ربما كان ألبرتو لم يخترني ليلقي عليّ شباكه إلّا لأنه عرف أني عربية، وأقيم في هذا الفندق فأنا ثرية ثراء بترولي وقد دفعت فعلًا ربما أكثر مما تدفع سيدات البترول

وبقيت في غرفتي حتى المساء لم أطلب شيئًا آكله ولا حتى كوب ماء ثم نزلت إلى بهو الفندق في المساء وقد قررت أن أنهي أي علاقة بألبرتو، ولا مجرد سلام

ووجدته أمامي كأنه كان في انتظاري وقلت له فورًا

- آسفة مسيو ألبرتو إني متعبة وفي حاجة لأن أبقى وحيدة

وقال في هدوء وابتسامته الحلوة تتطلع إلى شفتيّ

- هذا ما كنت أنتظر فإني أعرف أنك مازلت مبتدئة

وابتعد عني

وعيناي تجريان وراءه وإحساسي يأخذ في التحرك إحساسي بأني امرأة إني أريده إن ما تركه فيّ ليلة أمس لا يمكن أن أتخلص منه بمجرد قرار إني أحس بكل قطعة من جسدي في لهفة إليه شفتاي صدري ساقي لقد أصبحت أصبحت مريضة ولن أقاوم مرضي وأنا وهو في مكان واحد وبسرعة اتجهت إلى مكتب الفندق وحجزت مقعدًا في الطائرة التي تتجه إلى أثينا صباح الغد وما كدت ابتعدت عن المكتب حتى وجدت ألبرتو أمامي يقول في صوته المنغم الهادئ

- هل تسمحين أن أصحبك إلى المطار؟! هناك شيء يبقى دائمًا ولا يكلف شيئًا وهو الصداقة

وأجبت وأنا أهرب من إغرائه ومن ضعفي

- نعم نعم أراك في المطار

وعدت أجري إلى غرفتي دون أن أتناول طعام العشاء، وخفت أن أموت لو نمت دون أن آكل فطلبت قطعة من الساندويتش وكوب ماء

ولم أنم ليلتها أتعذب في صراع بين ما يريده هذا الإحساس الذي أثاره فيّ ألبرتو، وبين تصميمي على أن أعالج نفسي من هذا الإحساس

وفي الصباح لم ينتظرني ألبرتو في المطار ولكنه انتظرني في بهو الفندق، وقام بكل الإجراءات الخاصة بنقل حقائبي وتصفيه حسابي ثم وضعني في سيارة يقودها. ليست السيارة القديمة وليست جديدة، وقال

- إذا التقينا مرة ثانية ستركبين الألفا روميو

وكل ذلك دون أن يحاول إقناعي بالعدول عن السفر لم يطلب شيئًا أبدًا كأنه فعلًا طبيب يجد أن العلاج الوحيد لحالتي هو أن يتركني أتخذ القرار بنفسي

وقبل أن أتركه في المطار أعطاني بطاقة تحمل اسمه وعنوانه. قائلًا

- إنه عنواني في روما ولكنهم من هناك يستطيعون أن يتصلوا بي في أي مكان أنا فيه إذا احتجت إليّ

ورفعت عينيّ إليه ولم أتكلم ولا حتى كلمة وداع

وجريت إلى الطائرة

وفي أثينا اتصلت بزوجي عبد اللطيف في لندن وطلبت منه أن يأتي إليّ في اليوم نفسه ولكنه لا يستطيع أن يترك لندن قبل يومين، فقلت له إني مريضة وسأعود غدًا وحدي إلى القاهرة

وعدت

لعلي أنسى وأشفى من إحساسي بأني امرأة

*

بعد ستة شهور قرر زوجي عبد اللطيف أن يسافر إلى برلين في عملية جديدة، وأبلغني الخبر كان المفروض أن أسافر معه ولكني صرخت دون أن أتعمد الصراخ وكأنه فاجأني بشيطان مخيف

- لا لن أسافر

وقال في دهشة

- لماذا؟ !

قلت

- لأني زهقت من السفر ولم أعد أحتمل

قال

- ولكنه عمل والعمل في حاجة إليك وأنت تعرفين أنك عندما تكونين معي فإن ما يمكن أن أصل إليه في شهر أصل إليه في يوم إن الزوجة تفتح دائمًا أبواب المجتمع الجاد أمام زوجها عندما تكونين معي ندعى إلى جلسات عائلية تتعرفين على زوجات الآخرين وهذا هو أقصر طريق لنجاح العملية وعندما أكون وحدي أدعى في النوادي الليلية وفي المكاتب وكل واحد من الآخرين يتمنى أن أكون وحدي حتى يستغل ضيافتي في السهر بعيدًا عن زوجته ولكن هذا الأسلوب يعطل العملية ويفتح مجالات كثيرة غير محترمة وأنت تعرفين كل ذلك أنا أعرف أنك تتمنين لي النجاح ولن أنجح بغيرك

وكنت فعلًا أعرف كل ذلك ورغم أني حاولت كثيرًا أن أقنعه بإعفائي من صحبته إلّا أنه أصر واضطررت أن أقبل ولكني قلت

- في شرط واحد ألَّا تتركني وحدي غير مسموح لك بأجازة زوجية

وقال مستريحًا

- موافق ولا دقيقة وحدك

وسافرنا

وتمت العملية

وفي نفس اليوم بدأ عبد اللطيف يقنعني بأنه مضطر أن يسافر إلى لندن وحده، وصرخت

- خذني معك

قال

- ليس هذا في صالح العملية إني سألتقي بشخصيات عربية والعرب لا يصحبون زوجاتهم العمليات معهم تتم في النوادي الليلية والكباريهات كما تعلمين .

وكنت أعلم، ولكني أعلم أيضًا أن ما يسعى إليه عبد اللطيف ليس لقاء الشخصيات العربية ولكن الارتماء في حياته الخاصة، وقد أصر على السفر وحده، وقلت له إني سأعود إلى القاهرة غدًا أو بعد غد

وسافر زوجي

وكنت وحيدة في غرفتي بالفندق، ووجدت نفسي أبحث عن البطاقة التي تحمل اسم ألبرتو، وكنت أحتفظ بها كنوع من التحدي لنفسي نوع من إقناع نفسي بأني لا أهرب ولكني أقاوم وقلبت البطاقة في يدي وابتسمت ابتسامة ساخرة أسخر من نفسي

وطلبت روما بالتليفون، وردَّ عليّ صوت نسائي ناعم، وسألت عن ألبرتو، وقالت

- إنه في إسبانيا مايوركا احتفظي بالخط سأحول لك المكالمة

وسمعت صوت ألبرتو

وقلت في هدوء

- ألبرتو قابلني في سان مورتيز غدًا !

يا أنت دعني لغروري

أنت

لعلك تسألني لماذا انقطعت عنك طوال هذه الشهور والواقع أني لم أنقطع عنك وحدك ولكني انقطعت عن كل أصدقائي خارج لبنان، ربما لأني فقدت ثقتي بنفسي إلى حد أني لم أعد أستطيع أن أواجه أحدًا حتى ولو بمجرد تبادل الخطابات أو التحدث في التليفون

وأنت تعلم كم كنت مغرورة بنفسي خصوصًا عندما أكون خارج لبنان كنت أقيم من نفسي أستاذة على كل مجتمع أجد نفسي فيه، وأعطي لنفسي الحق في توزيع الدرجات على طلبة علم التقدم الحضاري وأنا - أستاذة علم التقدم الحضاري - لم أكن أقدر مستوى أي طالب في أي بلد عربي بأكثر من صفر وأنت وحدك كنت أمنحك درجتين من عشر درجات ربما لأني التقيت بك وأنا مازلت طفلة لم أستكمل بعد كل عناصر الغرور الجمال والذكاء، والثراء المكتسب بالعمل لإثراء الصدفة الذي تحققه آبار البترول، ثم قوة الجذب في كل المجتمعات العالمية التي حققت لي نجاحًا لا تحلم به أي فتاة أخرى كل هذا خلق لي الشخصية التي كنت أعتز بها شخصية الأستاذة شخصية العبقرية الشخصية التي كانت تمنحني الحق في أن أوزع نصائحي على كل من أقابله، وأتصور كل يد تمتد إليّ كأنها تستغيث بي لأنقذها أو لأسد حاجتها

وقد ضاع كل شيء

ضاع غروري

أصبحت كلما التقيت بأحد يخيل إليّ أنه ينظر إليّ نظرة إشفاق لا نظرة الإعجاب التي تعودتها وكلما مددت يدي لمجرد المصافحة أحس بأنه يستقبلها كأنها يد تستغيث به وتستجديه فإذا تحدث كان حديثه كله دروسًا ونصائح كأنه هو الذي أصبح أستاذًا وأنا التلميذة الفاشلة الغبية التي لا تساوي أكثر من صفر

وقاومت

قاومت نفسي حتى أظل محتفظة بشخصيتي المغرورة

ولكن

لا أمل لم تعد هناك وسيلة للاحتفاظ بهذه الشخصية إلّا أن أنعزل بها انعزلت عن كل الناس الغرباء وقد أصبح كل من ليس لبنانيًّا غريبًا عني لا يعيش إحساسي ولا يتكلم لغتي ولا يفهمني حتى أنت وكانت خطاباتك تصلني فأقذف بها بعيدًا وأنا أحاول أن أقنع نفسي بأن أتعالى عليك. وعندما تتحدث في التليفون أنكر نفسي عنك كأني أرفضك، لعلي بهذا التعالي والرفض أستطيع أن أحس بأني مازلت محتفظة بشخصيتي المغرورة، وإن كان الواقع هو أني كنت أخاف هذه الخطابات وهذه المحادثات التليفونية لأني أعلم أنها لا تحمل إلّا مجموعة من النصائح التافهة والاقتراحات الفارغة التي تشبع بها إحساسك بأستاذيتك وترضي بها شهوة الشماتة بي

الشماتة

إني أعيش في إحساس بأن العالم كله شامت فينا كل فرد من بني البشر يتلذذ بما يحدث لنا يتلذذ بدمائنا التي تغرق الشوارع، وكياننا الذي يتهدم، وصراخنا الذي يشق قلوبنا وقد يذرف العالم دموعًا شفقة علينا، ويلف كرافت أسود حدادًا على قتلانا ولكن وراء هذه الدموع وهذا الكرافت فرحة في القلب فرحة الشماتة فرحة سوداء وربما كانت شماتة الانتقام من سنوات الغرور التي عشنا نصبه على العالم شماتة التخلص من السيطرة اللبنانية التي لم تكن تعتمد على شيء إلّا على الذكاء الغروري. شماتة انتصار الشيء على اللاشيء وقد كنا لا شيء، ورغم ذلك كنا نسيطر على كل العالم العربي إلى أن انتصر علينا شيء شيء مجهول وربما لأنه مجهول فقد انتصر فالمجهول هو الله

ولعل الشماتة التي أحسست بها يومًا كأنها سكين تذبحني هي شماتة هذه المرأة التي تدعى إيفيت أنت تعرفها بل أنت الذي قدمتها إليّ دون أن تدري فإيفيت مصرية مسيحية يسري في عروقها دم أجنبي لا أدري أهو دم أرمني أم جريكي أم فرنسي، المهم أنها قدمت إليّ نفسها عندما جاءت إلى بيروت على أنها مصرية وأنت الذي عودتني على أن أحس بمسئوليتي عن كل فتاة مصرية تصادفني أحبها لمجرد أنها مصرية، وأعطيها لمجرد أنها مصرية ربما لأنك يومًا ما كنت مسئولًا عني مسئولًا عن تكوين عقليتي وفكري كان عقلك المصري هو الذي هذب عقلي اللبناني ولهذا تعودت أن أرد لك الجميل في كل ما هو مصري وكانت «إيفيت» تبدو مسكينة، غلبانة، رغم أنها جميلة وعرفت أنها من عائلة كانت غنية في مصر وكان أبوها يمتلك مصنعًا للرخام، ثم فرضت عليه الحراسة، وضاعت كل أمواله، ورغم ذلك بقي في مصر وبقيت «إيفيت» معه، تحاول أن تغطي حرمانها بأن تكتسب صداقة بنات وأولاد الطبقة المصرية الجديدة كما حاولت أن تكتسب صداقتي عندما جاءت إلى بيروت بصحبة بعض صديقاتي المصريات

ولا تدري ماذا فعلت لإيفيت إني منذ اليوم اليوم الأول أقمت من نفسي أستاذة عليها بحكم غروري بنفسي، وبدأت أقدمها لمجتمعات بيروت الراقية، وحتى تشرفني في هذه المجتمعات كنت أشتري لها الفساتين، وأعطيها من عندي الجوارب وأدوات المكياج. وأرسلها إلى حلاقي الخاص ليساوي شعرها ويرسل لي بفاتورة الحساب وكانت هي تقدر كل ذلك وكانت حريصة على أن تحتفظ لي بغروري وضعت نفسها كسكرتيرة لي دائمًا تتأخر عني بخطوة إلى الوراء ونحن ندخل أي مجتمع وقد تدهش لإحساسي بقيمة هذه المظاهر رغم أني فتاة مازلت في الثانية والعشرين من عمري لا يهمني أن أتظاهر بسكرتيرة أو بدلدولة تسير خلفي ولكن هكذا أنا أو ربما هكذا لبنان الغرور الحضاري أو ربما كانت هذه هي عقدة اللاشيء فإن اللاشيء يتظاهر بأنه شيء ونحن لا شيء

ولا شك أن إيفيت حققت نجاحًا في مجتمع بيروت ولأنها مسيحية فقد تخاطفها الشبان المسلمون فهذه هي أيضًا عقدتنا في لبنان الشاب المسلم يهمه أن يستولي على فتاة مسيحية، والشاب المسيحي يهمه أن يستولي على فتاة مسلمة مجرد شهوة طائفية

وكانت إيفيت حريصة على أن تقدم لي كل يوم تقريرًا عن كل علاقاتها مع المجتمع أو مع أي شاب كأنها تستأذني، أو كأنها تقنعني بأنها لا يمكنها أبدًا أن تستغني عني وكانت دائمًا تأخذ بنصائحي كنت أطلب منها أن تعتذر عن دعوة، فتعتذر، أو أنصحها بأن تقاطع شابًّا من الشبان فتقاطعه وكان كل ذلك يجري في إطار من الصداقة الحلوة وإن كان فيه ما يرضي غروري وفيه أيضًا ما يدفعني إلى الاستمرار في تحمل مسئوليتها

إلى أن تعرفت إيفيت بشاب من أثرياء الصدفة - أقصد أثرياء البترول - واستمرت في هذه الصداقة مع موافقتي إلى أن عرض عليها أن يأخذها معه إلى شواطئ الريفييرا ونصحتها أن تقبل بعد أن قضيت ليالي أشرح لها كيف يمكن أن تحتفظ به إنها لن تحتفظ به إلّا إذا احتفظت بشيء لم يأخذه منها أنا أعرف هذا أنا أستاذة التقدم الحضاري أنا المغرورة

وسافرت إيفيت وبقيت حريصة على أن تكتب لي إلى أن بدأت الأحداث في لبنان حدث كل هذا الذي حدث وبدأت نوبة الضياع وفقدان الثقة في نفسي تزحف على صدري، وفكرت أن أسافر إلى أثينا في اليونان لأرتاح وكنت أعلم أن إيفيت هناك لم أقرر السفر إلى أثينا لأنها هناك بل لأني تعودت أن أرتاح هناك أي أني لم أكن في حاجة إلى إيفيت لا يمكن أن أحتاج إليها أبدًا ولكن لأنها هناك فقد شرفتها بأن أرسلت لها برقية بموعد وصولي

ووصلت أثينا، ولم أجد إيفيت في انتظاري، ولكني وجدت سائق سيارة يحمل لافتة مكتوبًا عليها اسمي ويطوف بها بين الناس إن إيفيت لم تأت لاستقبالي

ولكنها أرسلت لي سيارتها ما شاء الله والله عال يا ست إيفيت ورغم ذلك ركبت السيارة وأنا أقول للسائق في لهجة أحاول أن أعبر بها عن كل غروري

- أوتيل هيلتون

وقال السائق في برود

- السيدة تنتظرك في البيت

يا سلام سلم جناب السيدة إيفيت تنتظرني في بيتها لا أدري لماذا سكت وقبلت ربما تغلبت عليّ عقلية الدبلوماسية اللبنانية عقلية إدارة الأعمال أن تأخذ كل زبون وفقًا لشخصيته

واستقبلتني إيفيت وفي عينيها نظرة كأنها تستقبل بها فتاة مسكينة فقيرة مشردة خيل إليها أنها نفس النظرة التي استقبلتها بها أنا عندما جاءت من مصر وهي مسكينة فقيرة مشردة

وقبلتني إيفيت كأنها تقبل صديقة مريضة راقدة على سرير في المستشفى أو ربما كانت قبلة أشبه بالبقشيش تحسن به على فتاة شحاذة وقالت وهي تبتسم لي ابتسامة ضعيفة خيل إليّ أنها محاولة فاشلة لمداراة شماتتها فيّ

- كنت أنتظرك من مدة وقد خصصت لك غرفة في البيت قد لا تكون على قدر غرفتك في بيروت ولكنها على الأقل غرفة في بيت

قلت وأنا أنظر إليها في دهشة

- لقد حجزت في الهيلتون

قالت كأنها أصبحت مسئولة عني

- لماذا الهيلتون؟! كوني واقعية وأقيمي معي هنا وقد دبرت لك كل شيء

قلت وقد بدأت أوجهها في سخط وتحد

- أفضل الهيلتون

قالت وهي تنظر إليّ في تعجب

- لا تكوني عنيدة

وابتسمت كأني أخفف عن نفسي ألم الجرح وقلت محاولة أن أحدثها بنفس الأسلوب الذي تعودت أن أحادثها به في بيروت

- المهم كيف حالك مع صديقك احكي لي بالتفصيل

وقالت وهي لا تزال واقفة أمامي كأنها أستاذتي

- ليس هذا مهمًّا المهم هو أنت إننا سنقيم في أثينا مدة طويلة و

وقاطعتها في حدة

- لن أقيم هنا إلَّا بضعة أيام

قالت في دهشة

- ثم إلى أين؟ !

قلت

- العودة إلى بيروت طبعًا

قالت كأنها تصرخ

- هل أنت مجنونة؟! بيروت انتهت صدقيني دبري أمرك من اليوم واتركي لبنان

فقلت وأنا أنتفض أمامها

- أنت مجنونة لم ينته شيء وأنا لست هنا كمهاجرة ماذا تتصورين؟! هل أصبحنا كالفلسطينيين كتبت علينا الهجرة من بلادنا؟! إن فلسطين أخذها اليهود أما لبنان فلا تزال لنا حتى لو عشنا فيها يقتل بعضنا بعضًا واسمعي كوني معي كما تعودت أن تكوني لا شيء تغير

ونظرت إليّ وبين شفتيها ابتسامة ساخرة تفضح شماتتها

- أعتقد أن كل شيء تغير

وخطوت نحو الباب كأني أجري منها قائلة

- سأذهب إلى الفندق اتصلي بي هناك

قالت وهي تجري ورائي

- انتظري

ومدت إليّ يدها بكمية من النقود اليونانية، وهي تقول

- كنت قد دبرت كل شيء على أن تقيمي معي بل إني اشتريت لك ثوبين وحذائين وأنا أعرف مقاسك ولكن ما دمت عنيدة وتريدين الإقامة في فندق فقد تكونين محتاجة

وأمسكت النقود بين أصابعي كأني أتحسس مجموعة من الديدان السامة، ثم ألقيت بها في وجهها بعنف وأنا أصرخ

- قلت لك إن لا شيء تغير

ونزلت أجري على السلم وأنا أغلي بالثورة في داخلي

إن الناس تظن أننا وصلنا إلى حد الإفلاس إنهم لا يعلمون أن سر ثراء بيروت أنها لا تحتفظ بأموالها في داخلها إن ما في بيروت هي أموال العرب أو أموال الأجانب وكل أموال اللبنانيين خارج بيروت لا يحتفظ لبناني في بيروت إلّا ما يكفي حياته اليومية ولكن ثروته كنزه دائمًا خارج بيروت ولذلك، رغم كل هذا الدمار، فنحن أقوياء أغنياء أقوى من شماتة الناس فينا

واعتذرت لإيفيت عندما حاولت أن تلقاني في المساء قلت إني متعبة وفي اليوم التالي سافرت إلى جزيرة كورفو قضيت أيامًا وحيدة أمتص حيرتي وعذابي ثم عدت إلى بيروت

العودة دائمًا إليها إلى بيروت

يا أنت

إني لا أكتب لك لأني في انتظار رأيك ولا استجداء لمواساتك، ولكن لأني فقط تعودت أن أرتاح وأنا أكتب لك، وأحس وأنا أطلعك على أسراري كأني ألقي بها في بئر لا قرار لها ولكن هل يمكن أن يكون في لبنان كله ما يسمى سرًّا؟! لا أظن إن المجتمع اللبناني عندما قرر التعامل مع الواقع مهما كان مضمون هذا الواقع، أراح نفسه من ثقل الأسرار ولكن الأسرار لها طعمها ولذتها وكنت أتمنى دائمًا أن يكون لي سر ولأني لا أجد لي سرًّا في لبنان فقد كنت أكتب إليك لمجرد إقناع نفسي بأني أبوح بسر لرجل غريب يعيش بعيدًا عني

وحكايتي مع طوني منذ بدأت لم تكن سرًّا في لبنان حتى لو تظاهرت أمامك بأنها سر خطير أطلعك عليه

أنا مسلمة وهو مسيحي ماروني

وعائلتي تقيم كما تعلم - أو كانت تقيم - في حي الأشرفية حي الأغلبية المسيحية ثلاث عائلات إسلامية فقط تقيم في شارعنا والباقي عائلات مسيحية معظمها مارون ولم يكن لذلك أي أثر في مجتمع حي الأشرفية أو على الأقل بين العائلات الكثيرة الغنية في الأشرفية كانت أعز صديقاتي هي عايدة وهي مسيحية من الروم الأرثوذوكس ونسرين وهي مارونية وفاتيما وهي بروتستانت و و كنا دائمًا معًا وسهرات البيوت تجمعنا كلنا نرقص معًا ونضحك معًا وقد نتنافس مسلمة ومسيحية على رجل واحد

ولم أعرف طوني وأنا صغيرة، ولم يكن من أبناء الجيران، ولكني التقيت به منذ عامين فقط خلال حفل ساهر أقامته إحدى عائلات الحي وفي خلال أسابيع أحس كل منا كأنه مرتبط بالآخر إلى الأبد ولم تمض شهور إلّا وكنت قد قررت أني لن أتزوج إلّا طوني كان المجتمع قد بدأ يستسلم لحبنا ولم يبق إلّا الزواج وليس هذا جرمًا في المجتمع اللبناني مسلمة تتزوج مسيحيًّا حتى لو تزوجت السُّنة بالمارون وابنة زعيم لبناني مسلم متزوجة من مسيحي سويسري وابنة زعيم إسلامي آخر متزوجة من مسيحي فرنسي وكبير قضاة لبنان المسلم متزوج من مسيحية لبنانية وأحد أصدقائك مسلم متزوج من عائلة مسيحية معروفة، وصديق آخر مسيحي ماروني تزوج من مسلمة، وابنة مؤسس دولة لبنان المسلم اعترف المجتمع اللبناني بحبها المسيحي وأصبح يستقبلهما على أنهما خطيبان رغم أنها لم يعلنا خطبتهما ولا قررا الزواج ليس غريبًا في المجتمع اللبناني أن يتزاوج المسلمون والمسيحيون ولم يكن غريبًا أن أقرر الزواج من طوني ولكن التقاليد في لبنان ترفض أن توافق العائلتان على هذا الزواج ثم يتركان للاثنين حرية التصرف فإن أعلن المسيحي إسلامه ليتزوج من مسلمة فرحت العائلة المسلمة وأقامت حفلًا صاخبًا كأنها تعلن انتصارها بالاستيلاء على مسيحي وضمه إلى حظيرة الإسلام أما إذا راعى الاثنان عدم جرح عائلتيهما فإنهما يسافران إلى قبرص ويتزوجان هناك زواجًا مدنيًّا، ويعودان زوجين لا يلبث المجتمع كله بما فيه عائلتاهما أن يعترف بزواجهما

وكان فكري يتجه إلى أن أتزوج طوني زواجًا مدنيًّا لا لأنه رفض اعتناق الإسلام حتى يتزوجني، ولا لأني رفضت اعتناق المسيحية لأتزوجه لا كان تفكيري قائمًا على اقتناع قائم على الارتفاع فوق الطائفية الدينية والإسلام - في اقتناعي - حرم على المسلمة الزواج من غير المسلم كوسيلة لنشر الدعوة نشر الإسلام من يريد مسلمة فليسلم والإسلام في لبنان لم يعد في حاجة إلى دعوة، فقد أصبحت أغلبية الشعب اللبناني مسلمة، والمسيحيون يدخلون في الإسلام

أفواجًا على الأقل حتى يحصلوا على حق الطلاق من زوجاتهم المسيحيات ثم إني أستطيع تقربًا إلى الله وتكفيرًا عن أنانيتي أن أجعل من أولادي وأولاد طوني مسلمين أفرادًا في طائفة الإسلام إني واثقة أني أستطيع

ولم يكن كل ذلك يعني أننا سنتزوج اليوم أو غدًا فطوني لا يزال في الخامسة والعشرين من عمره ورغم أنه من عائلة مارونية ثرية إلّا أنه لا يزال في حاجة إلى وقت حتى يقيم لنفسه شخصية مستقلة ويستطيع أن يتزوج حتى لو تحدى أهله ليس قبل أن يصل إلى الثلاثين ورغم ذلك لم يكن التخطيط للزواج يتوقف بيني وبين طوني

إلى أن بدأت الأحداث

وقد بدأت وكأن لا شيء يمكن أن يحدث مجرد تعبير عن الرأي بطلقات الرصاص وفي كل يوم كنا نؤكد عن إيمان بأن كل هذا سينتهي غدًا إن من طبيعة الشعب اللبناني التفاؤل، وكان تفاؤل كل طائفة يجعلها تتصور أنها ستنتصر غدًا ولكن لا شيء ينتهي وشوارع الأشرفية تزدحم بالشبان المسلمين، وكنت أعرف أنهم من أفراد الكتائب أو من أفراد حزب شمعون، ولكني عندما كنت ألمحهم في الطريق كان يخيل إليّ أنهم غرباء رجال آخرون غير رجال لبنان هذه النظرة التي يتطلعون بها إليّ لم أصادفها أبدًا من قبل وهذه الشفاه المقلوبة التي تكاد تطلق بصقة على وجهي لا يمكن أن تكون شفاهًا لبنانية وبدأ إحساس جديد يسيطر عليّ كلما خرجت إلى الشارع إحساس الخوف إننا لم نتعود الخوف في بيروت

والأحداث تزداد بشاعة القتلى يسقطون في حينا حي الأشرفية ورغم ذلك لم أكن أريد أن أعترف أو حتى أتصور أنها معركة بين المسيحيين والمسلمين إني ما زلت أتزاور وأتحدث في التليفون طول النهار والليل مع صديقاتي المسيحيات وعندما يسقط أحد المسلمين قتيلًا نبكي عليه كلنا وعندما يسقط مسيحي فربما يشتد البكاء أكثر لمجرد أنه يمثل أغلبية الحي ثم طوني إنه لا يزال حبيبي وسيبقى حبيبي بل إن أمي بدأت تتعلق به وتكف عن رفضها له، ربما لأنها أرادت أن تتخذ منه حماية لنا داخل الحي مسيحي في بيتنا فلا يمكن أن يعتدي علينا المسيحيون ولكننا لم نكن نستطيع أن نستمر في خداع أنفسنا أو التعلق بارتباط السنين الطويلة مع جيراننا المسيحيين والمارون بالذات

وصمم والدي على أن نترك الأشرفية أن نهاجر إلى حي آخر نحتمي فيه ونعيش فيه كمسلمين مع مسلمين وربما كان ما يدفع والدي أكثر إلى الهجرة من الأشرفية هو خوفه على أخي ياسر إن أبي نفسه هادئ عاقل يستطيع أن يتصرف بحكمة مع الأحداث وأنا وأختي وأمي لا خوف علينا لا يمكن أن يصل الاعتداء إلى النساء ولكن أخي ياسر، رغم عدم انتمائه إلى أي تنظيم من

التنظيمات المتقاتلة إلّا أنه شاب وهو جريء يهوى أن يعرف ويجرب كل شيء بنفسه ومن يدري لعله في خطوة يضيع

واستسلمت للهجرة بعيدًا عن الأشرفية وبعيدًا عن حبيبي طوني من أجل أخي ياسر

وكانت هذه هي الأيام التي سافرت فيها إلى اليونان لأستريح كما رويت لك وقد عدت بعد أسبوعين ولم أصدق أذني بما سمعته لا يمكن أن يحدث كل هذا! ويحدث في لبنان إنهم لا يكتفون بالقتل إنهم يشوهون قتلاهم يمزقونهم قطعًا وهم يعتدون على البيوت يسرقون ويدمرون كلهم كلهم ليسوا مسيحيين ولا مسلمين كلهم كلهم وصدقني أن الإحساس الذي كنت أعيش فيه هو أن كلهم ليسوا لبنانيين ولا حتى سُنة ولا شيعة ولا دروزا، ولا مارون، ولا روم أرثوذوكس، ولا كاثوليك، ولا بروتستانت ولا ولا إنهم ناس غرباء لا تعرفهم جيوش جاءت من الخارج واحتلوا مناطق محددة يتحاربون فيها، بدليل أن خارج هذه المناطق كل شيء هادئ إن أبي يمارس عمله وأخي يطير من بيروت إلى الكويت ليباشر عملياته هناك ثم يعود في اليوم التالي وأمي لا تزال مهتمة بالشخط في أم نعيمة حتى تجيد تقديم اللبنه والكبه وأختي تنتقي ثوبها الذي ستزور به صديقتها أنا وحدي التي ستجن

لقد اعتدى الغرباء على بيتنا في الأشرفية وكنا قد تركنا فيه أثمن ما يملكه بيت تركنا الكثير لأننا كنا نتصور أننا لن نغيب إلّا أيامًا السجاجيد العجمي، وقطع الأوبالين، وقطع من مجوهراتنا، وكل قطع ذكريات صباي وشبابي، بما فيها السلسلة المرصعة بالفيروز التي كانت أول ما أهداه لي طوني وكل العائلة استسلمت لهذا الاعتداء استسلموا لفقدان بيتنا أبي يحمد الله على أنه لا يزال يحتفظ بحياته وأخي يبصق على الأرض ويؤكد أنه سيشتري لنا أكثر مما ضاع منا، وأمي بكت أيامًا ثم استطاعت أن تتناسى أنا وحدي المجنونة أعيش كأنه لن يكون لنا أبدًا بيت بعد بيت الأشرفية إن طوني يستطيع أن يعيد لي بيتي إنه هناك في الأشرفية ويستطيع أن يعيد لي البيت

ومنذ وصلت وأنا أبحث عن طوني ولا أستطيع أن أجده

لم يعد أمامي إلَّا أن أذهب بنفسي إلى الأشرفية إلى بيتنا إنهم يعرفونني هناك ولن يعتدوا عليّ ثم إني فتاة من يعتدي على فتاة عزلاء حتى لو كان من هؤلاء الغرباء الذين يتقاتلون

ولم أقل إلَّا لأمي

وصرخت أمي يا مجنونة إنهم سيقتلونك

ولكني مصممة

سأذهب إلى الأشرفية إلى بيتنا إن طوني هناك وسأكون في حمايته

وخوفًا من أن تلجأ أمي إلى أبي ليحول بيني وبين الأشرفية، جريت من أمامها إلى الشارع، وإذا بها تجري ورائي وتلحق بي، ثم تمسك بيدي وتسير بجانبي وتقول وهي تقاوم دموعها

- سأذهب معك ربنا يستر

وركبنا سيارة أجرة وأمي لا تسكت عن ترديد آيات القرآن التي تحفظها ووقفت السيارة عند منطقة رفض السائق أن يتعداها ونزلنا إلى الشارع. وأمي قد توقفت عن ترديد القرآن، ولمعت عيناها لمعانًا غريبًا كأنها مقبلة على معركة تتحدى بها القدر. وبدأت تخطو بجانبي كأنها أقوى مني منصوبة القامة تدق بقدميها على الأرض

إننا نجتاز عرض الشارع الذي يفصل بين المنطقتين المتقاتلتين اجتزنا أكثر من نصف الشارع

وفجاة

انطلقت رصاصة

ونظرت حولي في دهشة كأني أتعجب ثم صرخت إنها أمي تترنح وتسقط وسقطت فوقها ماتت قتلوا أمي وفوق رأسي رجلان لا أستطيع أن أميز وجهيهما ربما كانا من أبناء الأشرفية، ولكن في هذه اللحظة كنت أراهما من خلال غمامة كثيفة تعميني وسمعت صوت أحدهما يسألني ساخرًا

- هل هي أمك؟

وتركت جسد أمي ووقفت أمامهما صامتة تائهة وكل خلجة مني قد شلت وعاد الرجل يقول وكأنه يضحك

- خسارة كان المفروض أن تكوني أنت

وقال الرجل الثاني

- اتركها سنأخذها معنا

وقال الأول

- انتظر حتى نعطيها ذكرى أمها

وانحنى على جثمان أمي، وأخرج سكينًا قطع به أذنًا من أذنيها. ثم اعتدل ووضع أذن أمي في يدي وهو يصيح مقهقهًا

- هدية من أمك حتى لا تنسي !

وأطبقت يدي على ما وضعه فيها وقطرات من الدم تسري بين أصابعي. دم أمي

وفجأة ظهر رجل ثالث يجري نحونا وهو يصيح

- مستحيل

إن الغمامة تنزاح من أمام عيني وأستطيع أن أراه

إنه طوني حبيبي طوني .

وفوق كتفه سلاح

إنه واحد منهم

وصرخ

- سميرة

ولف ذراعه حول كتفي وأخذ يصرخ في وجه الرجلين كلامًا لا يهمني أن أسمعه أو أفهمه

ثم صرخت وصرخت وصرخت وجذبت نفسي من تحت ذراع طوني وجريت عائدة إلى الناحية التي جئت منها وطوني يجري ورائي وهو يصرخ .

- سميرة يا مجنونة انتظري سأقول لك و

ولحق بي أحسست بيده وقد أمسكت بكتفي

وفجأة أيضًا

انطلقت رصاصة

وسقط طوني وسقطت بجانبه توقفت أنفاسه لقد قتل كأمي ولكني لا أحس شيئًا لم يعد فيّ ما أحس به راقدة بجانب جثة حبيبي الذي قتل أمي والطلقات تشتد بين ناحيتي الطريق وكلها تمر فوق رأسي كم مضى ساعة ساعتان لا أدري وتوقف إطلاق النار ورأيت رجلًا يزحف ناحيتنا ثم يعود وهو يشد وراءه جثة طوني وإنسان آخر اقترب وحملني إلى نهاية الشارع ثم وضعني بين زملائه إنهم يسألونني ويطمئنون إلى أني منهم وعندما تعجبوا لأني جازفت بعبور هذا الشارع بصحبة أمي، قلت

- كنا عائدين إلى بيتنا في الأشرفية

ونظروا إليّ كأنهم يشفقون على مجنونة ولمح أحدهم أذن أمي التي كانت لا أزال مطبقة عليها بأصابعي وصرخ

- الكلاب

ثم انحنى فوق جثة طوني وقطع إحدى أذنيه وألقاها بعيدًا ثم أخذ يمزق في بقية جسده

وانحنيت والتقطت أذن طوني

وضعتها مع أذن أمي في يد واحدة

*

يا أنت

لا تحاول أن تكتب لي كأنك تعتقد أني أسألك رأيك رأيك لا يساوي شيئًا أنا لبنانية وكل لبناني ليس في حاجة إلى رأي أحد وقد كتبت لك لمجرد أن أستريح ثم ألقي بما أكتبه في سلة المهملات آسفة لا أقصد أنك سلة مهملاتي

وعلى كل حال فلن أعطيك عنواني لتكتب لي فقد تركت بيروت أبي صمم على أن يقذف بي بعيدًا عن بيروت وإني أعيش هنا كما تعودت أن أعيش مغرورة أستاذة علم التقدم الحضاري وفوق صدري أعلق قالبًا صغيرًا من الذهب المرصع بالماس، وفي داخله أحتفظ بأذن أمي وأذن طوني إن القالب صنعه لي الجواهري الفرنسي المعروف كارتيه إنه تحفة فنية تثير حسد كل

البنات ولا تدري كم كلفني لا يهم إننا دائمًا نستطيع أن ندفع لم يتغير شيء
وعندما أعود إلى بيروت سأدعوك لتلمس بنفسك أنه لم يتغير شيء

وسأعود

ولن أنسى !

العذراء والشعر الأبيض

(1)

إن صرختها لا تزال تملأ أذنيه

- أنت لست أبي كن صريحًا مع نفسك وخذني كما أنا وأنا لست ابنتك

إنها صرخة تتردد كأنها صدى صوت القدر يزفه إلى مصيره كل ليلة قبل أن ينام

قبل أن ينام معها

ويصحو كل صباح وينظر إلى عينيها المغمضتين فوق وجهها الصغير ويبتسم ابتسامة تحمل كل أحاسيسه المتناقضة تحمل السعادة بنفسه والخجل من نفسه، والسخط على نفسه

وتعود الصرخة تدوي في خياله

- أنت لست أبي

وقد حاول كثيرًا أن يقنع نفسه وأن يحس بأنه أبوها إنها تحمل اسمه بثينة محمد عبد الله وهو الذي أعطاها هذا الاسم هو محمد عبد الله إذن فهي ابنته وقد قضى من عمره أكثر من ثمانية عشر عامًا وهو يحاول أن يقنع نفسه وأن يحصر إحساسه بأنها ابنته

ولكن

واتسعت ابتسامته وقد امتلأت بالسخرية من نفسه حتى كادت تنقلب إلى قهقهة مرة، وعاد فيلم الذكريات يطوف بخياله الفيلم الذي يعود ويتردد كلما خلا إلى خياله، دون أن يستطيع أن يقاوم الاستسلام له

كان لا يزال في بداية شبابه في السادسة والعشرين من عمره وكان قد انقضى على زواجه من (دولت) أربع سنوات إن دولت تكبره سنًّا بثلاث سنوات

وقد أحبها وهي زوجة رجل آخر، وربما كان أقوى ما في هذا الحب هو نشوة الاستيلاء عليها النشوة التي ترضي غرور كل رجل يصل إلى زوجة رجل آخر ولكن دولت لم تتركه طويلًا يتمتع بهذه النشوة. فقد استطاعت بعد عام واحد من لقائهما أن تطلق من زوجها وأصبح من الطبيعي أن يتزوجها، وقد دفعه إلى الاستسلام للزواج الجانب الآخر من حبه لدولت جانب الاعتماد عليها، فمنذ أن التقى بها وهو يعتمد عليها، وهي من الشخصيات التي تعبر عن الحب بالعطاء

كانت تعطيه كثيرًا وهو لم يكن قد بدأ في بناء نفسه بعد، كان قد تخرج في نفس العام من كلية التجارة، وكان يقيم وهو طالب في غرفة في بنسيون في أطراف الجيزة، وكان يعيش على ما ترسله له عائلته المقيمة في طنطا ليس غنيًّا ولكنه أيضًا ليس محتاجًا في حدود المستوى المتواضع الذي يعيش فيه ولكن دولت بدأت تعطيه ونقلته من غرفته في الجيزة إلى غرفة في بنسيون بشارع متفرع من شارع قصر النيل وقد حاول أن يرفض إن إيجار غرفته في الجيزة ثمانية جنيهات وهذه الغرفة الجديدة التي اختارتها دولت إيجارها خمسة عشر جنيهًا لا يستطيع أن يدفعها وحاولت دولت أن تقنعه بأنها ستتحمل عنه دفع الإيجار إنها غنية ورثت عن أبيها، وزوجها يعطيها كثيرًا ولا يدقق في الحساب ولكنه رفض

إنه يرفض التنازل عن اعتزازه بنفسه وإحساسه بأن الرجل هو المسئول عن المرأة التي يملكها ولكن دولت تلح وهي في حاجة إلى هذه الغرفة الجديدة أكثر من حاجته هو إليها فإنها تستطيع أن تصل إليه فيها دون أن يكشف سرها أحد. فالعمارة كبيرة في منطقة تجارية ومن يراها ذاهبة إليه يمكن بسهولة إقناعه بأنها في طريقها لأن تشتري بعض المشتريات أو في طريقها إلى الدكتور أو الخياطة اللذين تضمهما نفس العمارة، أما الغرفة التي يقيم فيها في الجيزة فهي فضيحة، لا أحد يراها ذاهبة إليه إلّا ويصب عليها نظرات اللعنة، وأصحاب الشقة أنفسهم رغم أنهم سكتوا نظير الهدايا التي تحملها إليهم كل مرة، ورغم أنه قدمها إليهم على أنها ابنة عمه إلّا أنهم يستقبلونها كل مرة كأنها يشلحون عنها ثوبها ليروا ما تحته ما يراه محمد وقد اقتنع محمد بهذا المنطق ورضي أن ينتقل إلى الغرفة الجديدة على أن يظل يدفع الثمانية جنيهات التي تعود أن يدفعها وتدفع هي الباقي

وضحكت دولت قائلة

- لا النصف بالنصف كل منا يدفع سبعة جنيهات ونصفًا

ولكنها كانت تدفع كثيرًا واستسلم بلذة وغرور إلى ما تدفعه نصف ثيابه أصبحت هدايا تقدمها له، والساعة التي يتباهى بها أمام أصدقائه، والقلم الذي

يكتب به، بل إنها تحملت مسئولية حياته الخاصة كأنها أصبحت زوجته، رغم أن فكرة الزواج لم تكن تخطر له على بال ولم يكن يعتقد أنها هي نفسها يمكن أن تفكر في أن تتزوجه فهي زوجة رجل محترم ناجح يوفر لها اجتماعيًّا وماديًّا كل ما تحلم به أي امرأة. وكان يعتقد أن كل ما بينهما هو ذلك النوع من الحب الذي لا يشمل كل شيء ولكنه يغطي جانبًا من النقص الذي يشعر به كل من الطرفين شيء ينقصها يعطيه لها، وشيء ينقصه تعطيه له

إلى أن فوجئ بأنها طلقت ولم يسبق طلاقها أية مقدمات أو حديث عنه بينهما مفاجأة صارخة بالنسبة له خصوصًا وأنه لم يكن قد مضى على زواجها أكثر من أربعة أعوام، ولم يكن قد مضى أكثر من عام واحد على لقائهما، وخصوصًا أنه تأكد من أنها هي التي طالبت بالطلاق وكل ما قالته له أن أبلغته بطلاقها

- إني لا أستطيع أن أعيش لرجلين

وكان من الطبيعي أن يفكر في مصيره معها هل يتزوجها؟ وقبل أن يقرر كانت هي قد بدأت تشير بأسلوبها الهادئ الناعم إلى الزواج هل كانت تنتظر أن يتخرج في الجامعة ويبدأ حياته العامة حتى تطلق وتطالبه بالزواج لا يدري بل لا يدري ماذا تجد فيه مما يغريها بالزواج منه حتى لو كان فيه ما يغريها بحبه، فهو لا يستطيع أن يوفر لها الحياة التي كان يوفرها لها زوجها الأول لا الحياة الاجتماعية ولا الحياة المادية إنها تتزوجه وهي تعلم أنها ستعطيه أكثر مما تأخذ لا يهم هذا ما تريده

واستسلم للزواج بلا حماس وبلا اقتناع تام، وتركها هي تتحمل مهمة اتخاذ كل الإجراءات هي التي قدمته لأهلها، وهي التي اختارت بيتهما، وهي التي قامت بتأثيثه وهي التي اختارت المأذون وهي التي تولت دعوة أقاربها واكتفى هو بأن يتولى دعوة أبيه وعائلته كل هذا لم يأخذ شيئًا من فكره، فقد كان قد بدأ يفكر في بناء نفسه في أن يعمل وكان يكره أن يكون موظفًا في الحكومة فبدأ يسعى بين شركات المقاولات ويحاول أن يكسب علاقات وصداقات مع رجال الأعمال وأهمهم رجال وكالة البلح وحتى بعد أن أصبحا زوجين فعلًا لم يحس أن هناك شيئًا جديدًا يجمعه بها، فهي ليست غريبة عنه، وليس فيها شيء جديد، وما تقدمه له بعد الزواج هو نفسه ما كانت تقدمه له قبل الزواج الاهتمام بكل شيء ومسئولية كل شيء، كل ما أضافته هو أنها بدأت تفتح أمامه أبوابًا اجتماعية جديدة كان في حاجة إليها وساعدته كثيرًا في بناء نفسه

ومنذ الليالي الأولى من الزواج أحس بأن هناك شيئًا تريده وتسعى إليه دون أن يبدو ما هو، إلى أن انقضى أكثر من شهور عندما قالت له يومًا

- كل ما ينقصنا اليوم يا محمد هو أن نخلف أن أكون أمًّا وأن تكون أبًا نفسي في بنت يا محمد

ولم يهتم بما تريد فهو نفسه لا يحس بأنه يريد أن يكون أبًا، بل يكره أن يكون أبًا لبنت أو ولد. إنه لا يزال في مقتبل شبابه كل ما يريده هو نفسه

ومرت الشهور وبدأ يلاحظ أن دولت تتردد كثيرًا على الأطباء وتتبع إجراءات غريبة عليه في علاج نفسها إلى أن صارحته بأنها تذهب إلى الأطباء لتحمل وتلد، ثم فاجأته يومًا بأن طالبته بأن يذهب إلى طبيب ليتأكد هو الآخر بأنه يستطيع أن ينجب، وصرخ في وجهها

- لا يهمني إذا كنت أستطيع أو لا أستطيع إنني لم أتزوج لأكون أبًا تزوجت لأكون معك أنت تكفيني وتغنيني عن دوشة العيال دوشتك تكفيني !

ولكنها تلح عليه أن يذهب إلى طبيب، وإلحاحها يدفعه إلى التساؤل هل تزوجته فقط لتنجب منه؟! وهل طلقت زوجها الأول لأنها فقط لم تنجب منه رغم أنها عاشت معه أربع سنوات؟! ولكنها كانت تستطيع أن تترك نفسها للإنجاب قبل الطلاق والزواج، فقد كانت تعطيه كل شيء، وكانت تستطيع أن تنسب خلفتهما إلى زوجها الأول أو تتبع أي أسلوب آخر مما نسمع ونقرأ عنه من أساليب وتذكر أنها قبل أن يتزوجا كانت حريصة كلما جاءت إليه على اتباع كل إجراءات منع الحمل، ربما لأنها لم تكن تريد أن يكون لها مولود «حرام»، أو ربما لأنها لم تكن تريد أن تعترف بأن النقص فيها هي هي امرأة ناقصة امرأة لا تنجب امرأة عاقر ولم يكن هناك ما يمكن أن يغطي عقدتها إلّا أن تتظاهر بتعاطي وسائل منع الحمل أو تتهم زوجها الأول بأنه هو الناقص ثم تلح على زوجها الثاني بأن يذهب إلى طبيب

وذهب إلى الطبيب مرضاة لها وتحت ثقل إلحاحها

وكان يتمنى أن يثبت عليه الطبيب أنه عاقر لا ينجب، فهو فعلًا لا يتمنى ولا يحب أن يكون أبًا قد تكون هذه أنانية منه، ولكنه مقتنع بأنه لا هو ولا العالم كله في حاجة إلى مولود آخر. وقد أكد له الطبيب أن رجولته طبيعية وأنه لا شك قادر على الإنجاب ورغم ذلك فقد ألح عليه أن يكتبه له أي نوع من الدواء حتى يعود إلى دولت وكأنه هو الذي في حاجة إلى العلاج، لعلها تهدأ

وقد فرحت دولت فعلًا عندما عاد إليها وفي يده زجاجة دواء. وأصبح هذا الدواء أهم وأغلى ما في البيت بالنسبة لها، وتناوله له في اهتمام مبالغ فيه كأنها تنقذ به حياته وحياتها ومع ذلك فلا شك أن دولت كانت تحس أنها تداري عقدة في داخلها عقدة المرأة العاقر فهي تعلم منذ سنوات زواجها الأول أنها لا تنجب

ولكنها لا تريد أن تعترف بنقصها ولا تريد أن تبحث عن حياة تغنيها عن أن يكون لها أولاد وبنات، وكانت تتعمد أن تذهب إلى الطبيب سرًّا دون أن تخبر حتى زوجها، وقد عرض عليها أحد الأطباء أن يجري لها عملية جراحية ولكنها رفضت حتى لا تفضح أمرها، وكانت تغطي كل ذلك بالتحدث باستمرار عن عجز زوجها عن الإنجاب ثم كبرت الكذبة في خيالها حتى بدأت تفكر في أن تطلق زوجها فعلًا بحجة عجزه وقبل أن تبدأ في الطلاق من زوجها الأول عرفت محمد

إنه زميل لابن عمها في كلية التجارة وأصبح صديقًا لأخيها، وقد شعرت منذ رأته بأحاسيس كثيرة تشدها إليه. وقد كانت تستطيع أن تقاوم هذه الأحاسيس إنه لا يزال في نضارة شبابه وهو يبدو كأنه ريفي لا يزال بخيره وبكل قوته لم تستنزفه بعد حياة المدينة من يدري ربما كانت تستطيع أن تنجب منه هذه العقدة التي دفعتها إليه وإلى محاولة الاستيلاء عليه ورغم ذلك فعندما استولت عليه كله وأعطته كل شيء كانت حريصة على أن تفرض عليه وعلى نفسها إجراءات منع الحمل لأنها لم تكن تريد أن تعترف حتى أمام نفسها أنها لا تحمل، أو لأنها لا تريد أن تشعره بعجزها عن الحمل، أو ربما لأنها كانت لا تزال متمسكة بالأمل وكانت حريصة ألّا تجرب هذا الأمل إلّا في الحلال

هذه المشكلة التي تعيشها دولت بكل فكرها وأعصابها وبكل وجودها، لم يكن محمد يعيشها أبدًا رغم أنها كانت تذكره بها بحرصها على تقديم الدواء الخادع له كان كل فكره وإحساسه ونشاطه ينحصر في بناء عمله وقد بدأ ينجح بسرعة وبدأت أرباحه ترتفع إلى أن قارب أن يكون في مستوى ثراء زوجته، وكان قد مر عامان على زواجه عندما قرر أن يسافر إلى لندن للدخول في صفقة جديدة، وفوجئ بأن دولت تصر على أن تسافر معه يا حبيبتي إني أسافر إلى لندن لأول مرة، فدعيني أتوه هناك وحدي إلى أن أكتشفها لك ثم نسافر معًا في المرة القادمة ولكنها تصر لماذا؟ !

هل تغار عليه؟! هل تخشى أن يتزوج فتاة إنجليزية؟! ولماذا تصر على تهريب كل هذه المبالغ من الجنيهات الاسترلينية؟! إنه لم يعرف إلّا وهو جالس بجانبها في الطائرة التي حملتهما إلى لندن إن كل ما تريده هو أن تعرض نفسها على طبيب هناك لعلها تحمل، وتلح عليه أن يعدها هو أيضًا بأن يعرض نفسه على طبيب لابد أن هناك شيئًا جديدًا علمًا جديدًا شيئًا لم يصل إليه أطباء مصر فلنجرب وثار عليها لم يخطر على باله أنها لا تزال تحاول وأن تتكلف كل هذا المشوار وكل هذه المصاريف حتى تستمر في محاولتها، وأقسم في ثورته أنه لن يعرض نفسه على طبيب وأعلن ندمه لأنه استسلم لها وصحبها معه ولم تتحد ثورته بل ظلت هادئة مبتسمة كأنها تعذره

وفي لندن اكتشف أنها كانت قد حددت موعدًا مع الطبيب الإخصائي، وذهبت إليه وحدها وتركته يتفرغ لعمله

ومرت أيام فاجأته بعدها بأنها قررت أن تقبل إجراء عملية جراحية ينصحها بها الطبيب - ووافقها دون أن يهتم حتى بتقصي تفاصيل العملية كل ما عرفه أنها عملية تتطلب أن تبقى في المستشفى أكثر من أسبوع، وهو مضطر أن يعود إلى مصر بعد يومين وبقي معها إلى أن خرجت من غرفة العمليات ثم سافر في نفس اليوم عائدًا إلى القاهرة ولم تعترض كانت تعرف أنه لا يهتم بأن يكون أبًا فأعفته من أن يتحمل عبء محاولتها أن تكون أمًّا إلى هذا الحد كانت تعطيه

وعادت إليه بعد شهر ووجهها يضحك بنضارة الأمل إن الأطباء أكدوا لها أنها حتمًا ستكون أمًّا وعندما أخذها محمد بين ذراعيه وهما في الفراش بدأ يحس بإحساس لم يحسه من قبل إحساس ثقيل لم يكن إحساس المتعة التي تعودها معها، ولكنه إحساس أقرب إلى الإحساس بالمسئولية إنه مسئول الآن على أن يجعل منها أمًّا أن يقوم بعملية حمل وأحس فعلًا كأنه على وشك أن يقوم بإجراء عملية جراحية لها يكمل بها العملية التي أجرتها في لندن كأنه طبيب حتى أن شفتيها لم يعد لهما نفس طعم القبلات وضغط أصابعه على جسدها لم يعد يثيره كما كان إنه مكلف الآن بإجراء عملية جراحية يجب أن تكف عن هذه الابتسامة التي كان يحبها حتى تساعده على التحرك كأنه طبيب وأن تغمض عينيها حتى لا تزعجها رؤية المشرط !

وقد أثر كل ذلك في إحساسه الطبيعي بالجنس، وأحس أنه يضغط على كل رجولته حتى يستكمل هذا الإحساس وقد أفلح في أن يقوم بالعملية وأن يؤدي واجبه، ولكنه من يومها وهو لا يستطيع أبدًا أن يعود إلى متعته التي تعودها معها وهما في فراش في كل مرة يسيطر عليه الإحساس بإجراء عملية أداء الواجب فقط أداء الواجب

ومر عام كامل دون أن يتغير شيء في دولت لم تحمل وبدأت تفكر في أن تعود إلى الأطباء في لندن ولكنه صرخ رافضًا احمدي الله على ما كتبه لك دعي حبك لي يغنيك عن حرمانك كان يقول هذا الكلام وعقله يأخذه إلى مشروع الطلاق ربما طالبته بالطلاق كما طالبت زوجها الأول حتى تغطي عقدتها أمام نفسها وأمام الناس ولكن لماذا لا يطلقها هو؟! ولكن لا لا يستطيع إنه لا يستطيع أن ينسى كل ما أعطته إنها سر نجاحه وسر كل هذه الحياة الفخمة التي يعيشها وقد تعود عليها وعلى الحياة معها وتعود أيضًا على نقصها وعجزها عن أن تكون أمًّا إلى حد أنه لا يستطيع أن يعيش كاملًا بغيرها

والذي حدث أنها عرفت أن زوجها الأول الذي كان قد تزوج غيرها قد أنجب وأحست أن عورتها قد انكشفت لم تعد تستطيع أن تضلل نفسها وتضلل الناس وتقول إن الزوج هو السبب وبدأت تعاني من ثقل الإحساس بأن ما لا تستطيع أن تعطيه لزوجها تستطيع غيرها أن تعطيه، وزاد ثقل هذا الإحساس

حتى وصل بها إلى حالة اليأس اليأس من أن تستمر في محاولة أن تحمل وتنجب، وقررت أنه لم يعد أمامها إلّا وسيلة واحدة حتى تعوضها وتعوض زوجها عن عجزها وهي أن تتبنى

وفكرت طويلًا في مشروع التبني قبل أن تعرضه على محمد، وقررت بينها وبين نفسها أن تتبنى بنتًا إن البنت يمكن أن تكون أقرب إليها من الولد، وتستطيع بطبيعتها كأنثى أن تفهمها وتربيها أسهل مما تستطيع أن تفهم وتربي الولد وبدأت فعلًا تبحث عن الملاجئ ودور رعاية الأحداث التي تعطي حق التبني وفي القاهرة أكثر من دار لرعاية الأحداث، تضم الأطفال الذين يجمعون من الشوارع وأغلبهم قبض عليهم في جرائم صغيرة ليس لهم ذنب فيها، وليس في القاهرة إلّا ملجأ واحد في المطرية يضم الأطفال اللقطاء بعضهم احتواه الملجأ وهو لا يزال في أيامه الأولى من الحياة

ولم تجد في دور رعاية الأحداث طفلًا يشد إحساسها، واقتناعها كانت تقف أمام كل طفلة وتتردد طويلًا ثم تبتعد دون أن تستطيع أن تتخذ قرارًا ثم ذهبت إلى الملجأ في المطرية وما كادت عيناها تلتقي ببثينة حتى قررت أن تكون ابنتها إنها طفلة في الرابعة من عمرها كل ما في وجهها يبتسم عيناها تبتسمان، ووجنتاها تبتسمان، وشفتاها، حتى أصابع يديها ابتسامة دائمة هادئة فيها حلاوة وفيها ذكاء. ولون بشرتها أقرب إلى البياض كلونها، وشعرها أقرب إلى اللون الفاتح يضيع فيه الأسود مع القرمزي مع الأصفر كلون شعرها إن من السهل أن يعتقد الناس أنها ابنتها فعلًا، وخاصة أن تصرفاتها وحركاتها حتى وهي طفلة وفي ملجأ لقطاء فيها كثير من الرقة الأرستقراطية، ومن يدري ربما أنجبتها في خطيئة امرأة من عائلة لها قيمتها ثم وضعتها أمام جامع أو أمام مركز بوليس هربًا من الفضيحة وسألت في الملجأ أسئلة كثيرة عن بثينة أين وجدوها؟ وهل يذكرون اللفافة التي كانت تلتف بها

ولم يكن وجودها أمام جامع ولا أمام مركز بوليس، لقد وجدوها قريبًا من سور السفارة الأمريكية في جاردن سيتي، وكانت ملتفة بأغطية غالية مطرزة ولم يكن قد مضى على ولادتها أكثر من أسبوعين، وكان من بختها أن الذي عثر عليها رجل محترم استدعى عسكري البوليس وأرشده إلى بثينة وهي لا تزال ملقاة على الرصيف بجانب السور، وحملها العسكري إلى قسم البوليس، وسلمها البوليس إلى الملجأ والحمد لله، فقد كان يمكن أن يعثر عليها أحد المتشردين ويسلمها إلى عصابة إجرامية لينشئوها بينهم وهو ما يحدث كثيرًا ودولت تسمع القصة وتجري بعينيها بحثًا عن بثينة وتضمها من بعيد في فرحة

وهرعت إلى محمد لتبلغه قرارها إنها ستتبنى طفلة، وقد وجدتها في الملجأ ونظر إليها محمد كأنه ينظر إلى مجنونة، ثم قلب شفتيه قرفًا وامتعاضًا،

ووافق إنه لا يريد ابنة ولا ابنًا، وكل ما يريده هو أن تهدأ زوجته وتريحه من عقدتها

وذهب محمد معها إلى الملجأ ليتخذا إجراءات التبني، ولم يتعمد هناك أن ينظر إلى بثينة وبدأ في توقيع الأوراق بلا أية عاطفة كأنه يوقع على شيك تبرع لإحدى الجمعيات الخيرية، أو كأنه يوقع عقدًا في صفقة لا يهمه أن يخسرها، ولكنه عندما رأى بثينة ابتسم كأنها نقلت إليه ابتسامات تقاطيع وجهها الطفل ابتسم ابتسامة كاملة شملت أحاسيسه كلها

وكان يمكن أن يكون التبني جزئيًّا أي أن يتولى أمرها دون أن ينسبها إلى نفسه، ولكن دولت أصرت على أن يكون التبني كاملًا أي أن تكون ابنته وتحمل اسمه ولم يهتم محمد أيامها لم يكن يهمه أن تكون ربيبته أو ابنته إنها شيء سيوجد في البيت كعلاج لعقدة النقص التي تعاني منها زوجته هي التي اختارت لها اسم بثينة، إنه الاسم الذي كان يمكن أن تسمي به ابنتها لو أنجبت لأنه اسم أمها

وانتهى توقيع الأوراق

وأسرع محمد خارجًا، وترك زوجته تصحب بثينة إلى البيت دون أن يلتفت إليها ولم ير عيني بثينة وهما متعلقتان به تتبعانه في تعلق عجيب

(2)

إنه يذكر الأيام الأولى التي أصبحت فيها بثينة شيئًا في البيت لم يكن يحس بهذا الشيء، ولم يكن يتعمد أن يعطيها شيئًا من الحنان ولا حتى من الاهتمام، بل إنه لم يعود نفسه تقبيلها كطفلة صغيرة إنما كان يكتفي كلما دخل أو خرج من البيت أن يمسح بيده على شعر رأسها مسحة سريعة وهو يبتسم لها نصف ابتسامة. وكان أحيانًا يلمح في لحظات أنها فعلًا طفلة جميلة عيناها، شفتاها، لون بشرتها، شعرها وأحيانًا كان يضحك ضحكة كبيرة عندما تلفت نظره بحركة من حركات الطفولة إنه لم يلحظ أبدًا تتبعها له كلما كان في البيت

إنها تسير وراءه في كل تحركاته، ويجلس فيجدها جالسة أمامه، وحتى عندما يخرج من حمام الصباح يجدها واقفة في انتظاره، لم يكن شيء يبعدها عنه إلّا دولت لتأخذها وتؤدي لها ما تتطلبه طفولتها ولم يلحظ أيًّا منهما أنها كانت تكرر

كثيرًا كلمة «بابا» كأنها الكلمة الضائعة التي كانت تبحث عنها بابا بابا بابا وكانت في البداية تنطقها في حياء وتردد ثم أصبحت تنطقها وترددها بكل إحساسها كأنها تزغرد بها كأنها الكلمة التي تثبت بها شخصيتها وتستكمل بها كل وجودها لم يكن يلحظ أو يحس بأي شيء تجاه بثينة أو «بوسي» وهو اسم التدليل الذي اختارته لها دولت، كل ما كان يحس به نحوها أنها تحفة جميلة اشتراها هدية لزوجته كباقي التحف التي تملأ البيت، وإن كان يحس بهذه التحفة أكثر لأنها شغلت زوجته عنه وأراحته من عقدتها

وقد كانت العلاقة بينه وبين زوجته دولت تأخذ مع السنين في التباعد تباعد في إحساسه بها كامرأة بدأ يشعر بفارق السن بينهما إنها أكبر منه بثلاث سنوات وبدأ يشعر كلما هم أن يحتضنها في الفراش أنه يؤدي واجبًا مفروضًا عليه واجبًا أصبح ثقيلًا ليس فيه إغراء كأنه ينفذ أوامر الطبيب وبدأ بينهما ما يمكن أن ينتهي إلى ما يسمى الانفصال الجسدي ولم تكن دولت تحاول أن تصد هذا الانفصال بل كانت مستسلمة له كأن بثينة قد أغنيتها عما كانت تريده من محمد أو ربما التحليل النفسي يصل إلى حد تصور أن دولت لم تحب محمد منذ البداية إلّا بغريزة وإحساس الأمومة التي لم تستطع أن تصل إليها بالإنجاب وربما كان هذا هو سر عطائها الكثير له. كانت تعطيه كأم لا كعشيقة ولا كزوجة وقد وجدت في بثينة ما أشبع فيها غريزة الأمومة فلم تعد في حاجة إلى محمد بل إن فرحتها ببثينة دفعتها بعد عام واحد إلى أن تفكر في تبني طفل ثان ولد حتى يكون عندها ولد وبنت، وصرخ محمد في وجهها

- لا يمكن إن بنتًا غريبة تحمل اسمي أرحم من أن يحمله ولد ولد لا أدري كيف جاء إلى الدنيا ولا ماذا ورث عن أبيه وأمه إن الوراثة تشمل الشخصية والأخلاق. فإذا كان أبوه لصًّا أو نصابًا أو صعلوكًا فيمكن أن يرث عن أبيه اللصوصية أو النصب أو الصعلكة، ويفضحني عندما يكبر ويخرب بيتي لا لا يمكن

وردت عليه دولت بهدوئها الناعم

- ليست الوراثة التي تحدد الشخصية والأخلاق إنها البيئة تقاليد البيئة واحتياجات البيئة إنهم يقولون إن لا أحدًا يسرق إلَّا إذا كان في حاجة إلى السرقة ونحن في بيئتنا لا يمكن أن ينشأ لص أو صعلوك

وعاد يصرخ في وجهها

- اسمعي إني لن أعطي اسمي ولن يدخل بيتي طفل آخر فاهمة ويكفينا بوسي

ولم تلح عليه كثيرًا فقد كانت بثينة تكفيها فعلًا وتغنيها عن كل ما كانت تشعر به من نقص، بل إنها أيضًا تغنيها عن الإحساس بهذا الانفصال الجسدي الذي بدأ يدب بينها وبين زوجها

وكان محمد قد بدأ يسافر كثيرًا إلى الخارج ربما أكثر من نصف العام يقضيه في الخارج وهو ما كان يفرضه عليه عمله ومشروعاته الواسعة. وأيضًا لأنه كان يجد في الخارج حرية ممارسة حياة خاصة تعوضه عن إحساسه بالانفصال الجسدي بينه وبين زوجته مجرد نساء عابرات لم تستطع واحدة منهن أن يكون لها تأثير له قيمة في تغيير استمرار حياته مع دولت وربما كانت هذه الغيبة الطويلة في الخارج هي السبب في أنه لم يتعود أو لم يكتسب إحساس الأب نحو بثينة وهناك فرق بين الأمومة والأبوة، فالأمومة غريزة أما الأبوة فاكتساب

أي أن الأم تحب وليدها قبل أن تنجبه، أما الأب فإنه في حاجة إلى وقت يمر بعد أن يولد ابنه حتى يكتسب ويستكمل الإحساس بالأبوة وهو في حاجة إلى وقت أطول إذا كانت ابنة متبناة كبثينة وكان يسافر إلى الخارج وينساها وكأن لا شيء يذكره بها إلّا أن يراها بعينيه وكان يعود من الخارج حاملًا هدية إلى دولت وينسى أن يحمل شيئًا لبثينة وتصرخ دولت في وجهه وتجري لتشتري شيئًا أو تخرج من دولابها شيئًا لتقدمه إلى بثينة كأنها هدية من محمد اشتراها لها من الخارج ولكن بثينة نفسها لم تكن تحس بأنه نسيها، كانت فرحتها بعودته تغطي كل شيء، وتعود تتبعه وتلتصق به في كل تحركاته وتفتعل الحجج لتردد: بابا بابا بابا

وبثينة تكبر

ومحمد يكبر

وبدأ إحساس محمد ببثينة يتطور تطورًا عجيبًا إنه كلما عاد من الخارج والتقى بها أحس كأنه يراها لأول مرة. جسدها ينمو في روعة عنقها، ثدياها، قوامها، ردفها، ساقها جمال يتناسق ويستكمل كل عناصره كأن الفنان الأكبر قد تفرغ ليرسمه هدية له ونظرتها تهدأ في عينيها ويلتقي بهاتين العينين فيحس فيها نداء عجيبًا إنها تنظر إليه كأنها معجبة به كأنها تتمناه أو هكذا يخيل إليه ثم إنها لم تعد تردد كلمة بابا كثيرًا وأصبحت ملاحقتها له داخل البيت ملاحقة عاقلة كأنها أكبر من سنها فقد توجد في البيت وهي واثقة أنه هو الذي سيبحث عنها

ولم يعد ينساها عندما يسافر إلى الخارج، بل بدأ يحس أنه يختصر في رحلته ليعود إلى البيت لم يكن يصارح نفسه بأنه يعود لأن بثينة أوحشته إن البيت هو الذي أوحشه البيت ودولت وبثينة ربما وصل إلى السن التي يستسلم فيها

الرجل إلى وحشة البيت هكذا كان يقول لنفسه ولم يعد ينسى هديتها الواقع أن هديتها أصبحت تأخذ من اهتمامه أكثر مما تأخذ هدية دولت

وبثينة وصلت إلى الرابعة عشرة من عمرها

وهو في الأربعين

وبدأ يستسلم لأحاسيس كثيرة تجذبه إليها لا شك أنها أحاسيس الأبوة بدأ بعد وقت طويل يصبح أبًا لا. إنه يخدع نفسه إنه لا يزال يحس بأنها فتاة جميلة ويجد حرجًا كبيرًا إذا سقطت عيناه على ساقيها، أو إذا ركز نظرته على شفتيها. وحدث أن دخل الغرفة مرة فوجدها شبه عارية مع دولت فقفز بسرعة كأنه ارتكب فضيحة، كأنه اعتدى عليها. لا يمكن أن يكون هذا هو إحساس أب لا يمكن أن يحس أب بسيقان ابنته أو بجسدها كله كما يحس بجسد فتاة غريبة لا قد تكون بثينة ابنة دولت ولكنها ليست ابنته

وبثينة في السابعة عشرة

وهو في الثالثة والأربعين .

إنه يجد فيها نواحي جيدة إنها تقرأ كثيرًا وتستطيع أن تجلس إليه ساعات طويلة تحكي له عما قرأته صحيح أن معظم قراءاتها في القصص، والتاريخ، والفن، وأكثر المجلات التي تجذبها هي المجلات التي تنشر أخبار الفنانين والفنانات، وهو لم يكن يهتم يومًا بالأدب ولا بالفن، ولكنه يحس وهي تروي له كأنه ينتقل إلى عالم جديد مثير مسلٍّ، بل إنه كان أحيانًا يروي لها بعض مشاكل عالمه عالم رجال الأعمال فتبدي له آراء تدهشه كأن لها ذكاء بنات الأعمال. ودون أن يتعمد بدأ نظام حياته يتغير

بدأ يقضي ليالي كثيرة في البيت جالسًا في غرفة مكتبه المخصصة ومعه دولت وبثينة، والراديو والتليفزيون، وزجاجة الويسكي الذي تعود أن يشرب منه كل مساء دون إفراط، وكانت السهرة تنحصر عادة في مناقشة تثيرها بثينة، أو في قصة ترويها، أو في رقصة تقوم وتعرضها عليهما لتطلعهما على آخر تطورات الرقص وهو سعيد مرح يضحك ويناقش وأحيانًا يحتد ودائمًا يتعمد الحذر من أن يركز عينيه على ساقي بثينة، أو على صدرها. أو على عنقها لقد أصبح أصعب عليه أن يفتعل أحاسيس الأب ويعاني صعوبة أكبر إذا تركته دولت وحده معها وفي مرات كثيرة كانت دولت تعلن أنها ستتركهما لتنام فيلحق بها محمد فورًا (خديني معاكي) لا لأنه يريد أن ينام ولكن لأنه يخاف نفسه يخاف هذه الأحاسيس التي تعصف به !

وهي بثينة إنها تتعمد أن تبقى بجانبه كلما كان في البيت وتتعمد أن تلتصق به كلما صحبها هي ودولت إلى دعوة أو إلى سهرة في الخارج وتضع ذراعها في ذراعه كأنها تتباهى به وتنسبه إلى نفسها وفي كل مناسبة تقول كلامًا كأنها تحرضه على نفسها

- تعرف صاحبتي ميرفت ستجن عليك تقول إنك أجمل وأرشق رجل وإنها ستحاول أن تخطفك من ماما دولت !

- إنها صغيرة مجنونة !

- ليست صغيرة ولا مجنونة إنها في سني وفي عقلي

وأحيانًا تمد يدها وتلعب في شعره الأبيض وتصيح ضاحكة

- شعرك يا بابا يهوسني

- إنه شعر عجوز سأصبغه أسود حتى أسترد شبابي

- إياك أنتحر لو صبغته !

وقد كانت تردد إعجابها بشعره الأبيض إلى حد أنه كان يهددها ضاحكًا : «انتي حاتسكتي والا أقوم أصبغ شعري أسود »!

وقد كان دائمًا واثقًا بنفسه كرجل يجذب ويشد النساء ولكن تجاربه كلها كانت مع نساء من نفس جيله لم يجرب البنات المراهقات ربما وصل إلى السن التي يقال إن الرجل فيها مراهقًا عجوزًا سن الأربعين

وتشد إحساسه البنات المراهقات الصغيرات وربما كان صحيحًا أن البنات في سن المراهقة يضعفن أكثر أمام الشعر الأبيض أمام سن الأربعين وما بعده إن أول حب في حياة البنت هو حب الأب وعادة ينقلها هذا الحب إلى تجربتها الأولى مع رجل في سن أبيها

وحدث أن دعي إلى حفلة ساهرة في فندق هيلتون مع زوجته وابنته أي بثينة وليلتها شرب كثيرًا من كؤوس الويسكي، ثم قام فجأة وشد بثينة من يدها وجذبها إلى حلبة الرقص ليراقصها كانت رقصة هادئة سلوفوكس وقد بدأ يراقصها وهو يتكلم كثيرًا ويضحك كثيرًا ولكن بعد بضع خطوات راقصة تركز إحساسه كله على صدرها الذي يلاصق صدره، وأصابعه المحلقة على ظهرها، ساقيه الملتصقتين بساقيها ولم يستطع مع ثقل كؤوس الويسكي التي شربها أن يقاوم. وكف عن الكلام وعن الضحك وضغطها إليه بكل ذراعه لصق شفتيه

فوق عنقها وتحركت فيه كل عناصر رجولته وهي إنها مستسلمة إنها تضغط نفسها هي الأخرى إليه وتزداد التصاقًا به وتتعمد أن تضع ساقيها بحيث تطلق بينهما ساقيه! وكلاهما مختبئ في زحام الراقصين

وسكتت الموسيقى

وأفاق

أفاق من كل شيء

أفاق حتى من كؤوس الويسكي التي كانت تملأ رأسه

ونظر إليها في دهشة كأنه لا يصدق ما حدث ثم أسرع مبتعدًا عن حلبة الرقص وهي تجري خلفه. وجلس إلى المائدة وصب لنفسه كأسًا ثقيلة وأخذ يشرب فيها دون أن ينظر إلى بثينة. ثم قام مستأذنًا وخرج بزوجته وابنته بثينة وركب سيارته عائدًا إلى بيته، ودولت تسأله

- هل أنت متعب؟

- لا

- إنك لست طبيعيًّا

- ربما أثقلت من الويسكي

ولم يحاول أن ينظر إلى بثينة حتى عندما هَمّ أن يدخل إلى غرفة نومه، ولكن بثينة جرت وراءه صائحه

- تصبح على خير يا بابا

ثم انحنت وقبلته فوق خده

ولم يرفع عينيه إليها ولم يرد تحيتها

وذهب إلى مكتبه في الصباح وقد تعمد ألَّا يلتقي ببثينة أو يقبلها كما تعود قبل خروجه واكتفى بأن قبل زوجته وفي المساء أعلن أنه سيخرج من البيت وحده ولكنه قبل أن يخرج جلس في غرفة مكتبه وحده مدة طويلة ثم نادى بثينة وجاءته ورفع عينيه إليها بعد أن تجاهلها طول هذه الفترة، ورآها كأنها ازدادت

نضارة وابتسامتها أكثر حيوية وشبابًا، وخيل إليه أنها هائمة في إحساس جديد، وقال وهو يحاول جهده أن يبدو هادئًا

- أنا آسف لما حدث ليلة أمس

وقالت في براءة

- ماذا حدث؟

- أقصد عندما نسيت نفسي وأنا أراقصك

- إنك لم تنس نفسك

- لم أكن طبيعيًّا كنت قد شربت أكثر مما يجب

- كنت طبيعيًّا جدًّا

ونظر إليها في دهشة كأنه لا يصدق أنها لم تحس بكل ما جرى وهو يراقصها

واقتربت منه أكثر وقالت

- صدقني لقد كنت طبيعيًّا وأنا أيضًا كنت طبيعية

ثم انحنت تقبل خده وجرت من أمامه

وتركته حائرًا

ماذا تقصد؟! هل ما جرى يمكن أن يكون طبيعيًّا بين أب وابنته أم تقصد أنه طبيعي بين رجل وامرأة أم لم تحس فعلًا بما جرى؟ !

وفي اليوم التالي قال إنه مسافر إلى الإسكندرية، وقالت بثينة بسرعة وفرحة

- خذني معك

وصرخ في حدة

- لا إني ذاهب في عمل

ومالت بثينة على دولت ترجوها

- والنبي يا ماما دعيه يأخذني معه إني لم أر الإسكندرية منذ الصيف أريد أن أطمئن على الكابينة وبيتنا هناك وأقابل صديقتي تحية وغدًا إجازة

وقالت دولت في إلحاح

- محمد دع بوسي تسافر معك إن من حقها أن تقضي يومًا بعيدًا عن البيت

ثم ضحكت دولت قائلة

- أتعهد لك بأنها ستترك لك حريتك بوسي احلفي إنك لن تضايقيه بطلباتك

وقالت بثينة في دلال

- أنا بضايقك يا بابا؟ !

وكان الإلحاح عليه كأنه إغراء له، وضعف أمام الإغراء. وأخذها معه

وفي طريق الإسكندرية كان يقود السيارة وهو يحاول أن يبقى صامتًا وأن يكتفي بالنظر أمامه، ولكن بثينة لا تكف عن الكلام تروي له قصصًا قرأتها وقصصًا سمعتها، وأخبار الفنانات والفنانين، وأخبار صديقاتها في الجامعة والنادي، ثم تدير راديو السيارة وتهتز على الأنغام وتغني وهو يحاول أن يقاوم ولكن مقاومته تخف وتخف أكثر إلى أن نسي ما جرى وبدأ يملأ عينيه منها ويضحك لضحكاتها ويغني معها

ووصلا الإسكندرية في المساء ووقف في فندق فلسطين يسجل اسمه واسمها محمد عبد الله وابنته بثينة محمد عبد الله وقال لموظف الفندق

- نريد حجرتين من فضلك

وصرخت وهي بجانبه

- يا خبر يا بابا إني أخاف موت إذا نمت في حجرة وحدي من أجل خاطري يا بابا لا تتركني وحدي

ولم يستطع أن يجادلها طويلًا أمام موظف الفندق

وجمعتهما غرفة واحدة

وعندما بدأت تخلع ثيابها وتلبس ثوب النوم احتار أين يهرب بعينيه، ثم قال بحدة

- بدلي ثيابك في الحمام

وقالت في دهشة

- لماذا؟ !

ولم يرد عليها ولكنه جمع ثياب نومه قائلًا

- أنا سأدخل الحمام

وبدل ثيابه بعيدًا عنها بينما فتحت بثينة الراديو الذي تحمله على نغمات راقصة، وعندما خرج من الحمام وجدها في قميص النوم وقد تعود أن يراها في ثياب النوم ولكنه أحس أنه لم يرها أبدًا عارية كما يراها في هذا القميص وقالت وهي تهتز راقصة على نغمات الراديو

- طلبت لك الويسكي

وهو حائر أين يضع عينيه منها وجاء الويسكي، وأخذ يشرب كأنه يهرب بنفسه داخل الكوب، أو كأنه يلقي بنفسه في بحر الويسكي لينتحر ثم شدته من يده قائلة

- قم راقصني

- لا تكوني مجنونة

من أجل خاطري لا تحرمني قبل أن أنام

وقام يراقصها بجانب الفراش وحاول أن يحتفظ بها بعيدة عن جسده وقالت ضاحكة

- لا كما راقصتني آخر مرة

وألقت بنفسها فوق صدره وأحس بثدييها وساقيها وظهرها العاري وضمها بكل ذراعه كأنه يريد أن يدخلها بين ضلوعه وتحركت كل حيوية رجولته ثم دفعها عنه بقسوة حتى وقعت فوق السرير، وقال وأنفاسه تتهدج

- إذا كنت مجنونة فلن أجن معك

وابتعد وجلس على المقعد المواجه للسرير يحاول أن يشعل سيجارة وقامت من رقدتها واقتربت منه وفي عينيها نظرات جادة كأنها على وشك أن تصدر حكمًا نهائيًّا وقالت في صوت حاسم كأنها قررت أن تتحرر من كل خداع ومن كل خجل

- اسمع أنت لست أبي خذني كما أنا وأنا لست بنتك

ونظر إليها بعينين ثائرتين خطيرتين كأنه قرر أن ينتهي من كل شيء ينتهي من هذه المقاومة التي أنهكته خلال سنوات وينتهي من هذا الضياع بين ابنة وعشيقة في جسد واحد، وأب ورجل يتصارعان داخل جسد آخر وشدها إليه وقبض على شفتيها بشفتيه، وأصابعه تمزق عنها قميص النوم، ثم قام وحملها عارية وألقى بها وألقى بنفسه معها

وحدث كل شيء !

(3)

قالت له إنها هي أيضًا حاولت العمر كله أن تحس به كأب ولكن كان هناك دائمًا إحساس يغلب إحساسها بأبوته ربما منذ اليوم الأول الذي وعته فيه وهي لا تستطيع أن تعيه كأب كان إنسانًا يملأ خيالها وأحلامها ولا يمثل واقعها إنها تستطيع أن تتخيله بطلًا للقصص التي تقرأها والأفلام التي تشاهدها وتحلم به كمستقبل وهمي كأن يحبها ويخطفها على حصان، ولكنها لم تكن تحس به كواقع والإحساس بالأب هو الإحساس بالواقع وهو لم يكن أبدًا واقعًا، كان خيالاً وحلمًا وكلما تقدم بها العمر اقترب بها خيالها وأحلامها من الحب أصبحت تريده تشتهيه وتتمنى أن تتباهى به أمام صديقاتها كرجل لا كأبيها

إنها تعلم أنه ليس أباها ولم يكن يجدي الإخفاء عنها فقد خرجت من الملجأ وهي في الرابعة وهو عمر يستطيع أن يحفظ الذكريات، ولأنها تعلم فقد كان يخيل إليها أن الناس كلها تعلم، وأنها تعيش في كذبة مستمرة، ويخيل إليها أن كل من يقرأ اسمها منسوبًا إليه يصيح كذابة وهي تتمنى أن تحيل هذه الكذبة إلى حقيقة والحقيقة الوحيدة التي تستطيع أن تصل إليها هي أن تكون حبيبته لا ابنته وكانت تعلم أن لا أمل كانت تحاول أن تيأس بل إنها حاولت أن تحب حبًّا يشغلها عنه تحب شابًّا من الجامعة أو من النادي يحملها إلى المستوى

الطبيعي للحياة ولكنها لا تستطيع أن تيأس وعندما تقدم بها العمر أكثر بدأت تكتشف أنه هو الآخر يقاوم هو الآخر لا يحس بها كابنة بل كفتاة يريدها وكانت تحس بكل ما يعانيه وتكتشف كل الكذبات التي يضحك بها على نفسه فبدأت تشجعه إنها تعترف له بأنها كانت تشجعه تحاول أن تسهل له الطريق إليها إلى أن التقيا كما تمنيا أن يلتقيا !

ولم يكن كلامها يكفي ليخلصه مما يعانيه من حيرة في الحكم على نفسه هل هي من حقه أم أنه اعتدى عليها بعد أن ائتمنه المجتمع عليها، وسجل في أوراق رسمية أنها ابنته وكان يستريح مما يعانيه عندما يلتقي بها وحدهما إنه ينتقل معها إلى الحب كله إنه يحبها برغم فارق السن يحبها حبًّا أوسع بكثير من مجرد الاحتياج الجنسي أصبح يحب شخصيتها وعقليتها بل أصبح يتمثل المستقبل كله معها ولكنه ما يكاد يتركها حتى تعود إليه الحيرة والتأنيب، والخوف والإحساس بالجريمة وبالكذب إنها ابنته كيف أباح لنفسه كل هذا مع ابنته؟ !

ولكن دولت

لا يدري إنه أيضًا لا يستطيع أن يعيش بلا دولت كلتاهما لا تغنيه عن الأخرى كل منهما تكمل ما ينقصه من الأخرى كل منهما لها منه أحاسيس حب تختلف عن أحاسيسه بالأخرى

وبعد ما حدث في الإسكندرية كف عن المقاومة، واستسلم لحبه لبثينة مع كل المعاناة التي يعيش فيها وكانا يحرصان أمام دولت في البيت على تأكيد أن لا شيء جد عليهما. وربما أصبحا يتباعدان أحدهما عن الآخر أكثر وهما في البيت، ويقلل هو من سهرات المساء التي كانت تجمعه مع الاثنتين في غرفة مكتبه ربما لأنه أصبح يتعذب وهو يرى بثينة أمامه وهو محروم من الانطلاق معها وإليها وكان يلتقي ببثينة لقاءهما الخاص في شقته التي استأجرها منذ سنوات وخصصها لحياته الخاصة ثم تعود إلى البيت ويعود بعدها وهما واثقان أن أحدًا لا يلحظ عليهما شيئًا أو بدأ يشك في أمرهما .

ولكن محمدًا بدأ يلتقط لمحات جديدة من على وجه دولت لقد عاش معها العمر كله ويستطيع أن يلتقط أي لمحة جديدة إنها لمحة في نظرة عجيبة تصحبها ابتسامة كأنها اكتشفت السر ورغم ذلك فهي لا تقول شيئًا وتبالغ أكثر مما عودته في تدليله وفي تدليل بثينة !

ربما لم تكتشف شيئًا

إلى أن كان يوم وكان في لقائه الخاص مع بثينة عندما قالت له ضاحكة ضحكتها الحلوة

- هل أقول أو لا أقول؟

- تقولين ماذا؟

- أخبرني أولًا هل أقول أو لا أقول؟

- قولي

- إذًا أنت الذي تأمرني بأن أقول لست أنا التي قررت القول

- يا ستي قولي تكلمي

- عدني أولًا أن تقبلني بعد أن تسمعني أو الأفضل أن تقبلني الآن فلست واثقة من وقع الخبر عليك .

وقبلها قبلة سريعة وأمسك بها من ذراعيها كأنه ينوي أن يهزها وينخلها حتى يسقط منها السر وصاح

- تكلمي

- إني حامل !

واتسعت عيناه من الدهشة ثم تحولت الدهشة إلى ألم كأنه طعنة وقال

- ولكنك كنت حريصة دائمًا

- لا لم أكن حريصة كنت أتعمد أن أحمل منك !

- لماذا يا مجنونة؟ !

- لأعطيك ما أخذته منك لقد أخذت منك ابنتك التي كانت أنا فأردت أن أعطيك ابنة أخرى أو على الأصح أريد أن أعطيك شيئًا لم تعطك إياه امرأة أخرى أن أجعل منك شيئًا لم تكنه وهو أن تكون أبًا

وصرخ

- من قال لك أني أريد أن أكون أبًا ستذهبين فورًا إلى طبيب لإسقاطك

- لا يمكن

- كيف ماذا تعنين؟

- إني الآن في الشهر السادس وطبيعتي تساعدني على إخفاء حملي ولا يمكن الآن إجراء أي عملية إني متأكدة سألت الطبيب

- ستة أشهر كاذبة لا يمكن أن تعيشي معنا ستة أشهر وأنت حامل وأنا لا أدري ثم دولت؟ !

- إنك لا تدري ماذا كنت أفعل حتى أخفي كل شيء عن ماما دولت !

- وماذا تتصورين أن يكون مصير هذا الطفل؟ !

- مصيره هو نفس المصير الذي عشته أتركه للملجأ ثم نذهب مع ماما دولت ونتبناه !

- كيف يكون ابني وأتركه لملجأ؟ !

- كل من في الملاجئ لهم آباء وهم غالبًا أغنياء لأن حياة الفقراء لا تتسع لأولاد الحرام أمي لا شك كانت من عائلة كبيرة وإلّا لما خشيت الفضيحة وكذلك أبي لو كانا فقيرين لتزوجا حتى لو كان أبي متزوجًا عشر زوجات أو لقتلوني بدلًا من أن يضعوني في ملجأ

وقال في سخط

- إنك لا تنسين أصلك

- أصلي هو الذي أوصلني إلى أجمل وأحلى ما في الدنيا إليك !

ونظر إليها كأنه يعتذر عن إسفافه وقال

- بوسي أرجوك دعينا نفكر في هدوء لنبدأ أولًا باستشارة طبيب أعرفه

- لا أمل

- سآخذك ونذهب إلى لندن ونحاول إجراء العملية هناك

- لا يمكن

- لماذا؟

- لأني أريده أريد ابنًا منك وأريدك أبًا لابني أتمنى أن تكون بنتًا ماذا نسميها يا محمد؟ !

وصرخ بأعلى صوته

- لا تستهزئي بي إلى هذا الحد قدري أني لم أخرج من ملجأ ولا أريد لابني أن يخرج من ملجأ إني منذ وجدتك وأنا أعيش في فضيحة مستمرة لا أريد أن أجني على طفل لا ذنب له بفضيحة أكبر !

ونظرت إليه في هدوء وقالت

- محمد هل تحبني؟! قل لي بصراحة إذا لم تكن تحبني فسأخرج من هنا أنا وبطني ولن ترى أي مشكلة في حياتك ولن تراني

ونظر إليها طويلًا، ثم أسقط رأسه بين كفيه كأنه يهم بالبكاء، وهمس

- أحبك لن تكون لك مشكلة وحدك أبدًا فقط اتركيني أفكر

وتركته وعادت إلى البيت وحاول هو أن يجد حلًّا ليس هناك حل إلَّا أن يتزوجها ولكنه لا يستطيع ليس من حقه إن عقد التبني يجعل لها كل أوضاع الابنة ولا يستطيع قانونًا أن يتزوجها ياليته اكتفى أن يكفلها كما عرضوا عليه في الملجأ ولكن دولت أصرت على أن تتبناها دولت كيف يتزوجها والناس كلها تعلم أنها ابنته وابنة دولت حتى لو أجاز القانون زواجهما؟! وماذا يكون رأي دولت؟! إن رأي دولت هو الأهم وقام في عصبية مجنونة وذهب إلى البيت ودخل وهو يصرخ دولت دولت ودولت تهرع إليه في هلع، وبثينة تخرج إليه من غرفتها فيصرخ فيها

- دعينا وحدنا

ويأخذ دولت إلى غرفتهما ويغلق وراءهما الباب ويلقي بنفسه على مقعد ويتكلم بين أنفاسه المتهدجة

- سأروي لك كل شيء وأرجوك أن تحتملي إني أحبك ولولا حبك لما اضطررت أن أقول لك كل شيء ولا أستطيع أن أعيش بغيرك وإلَّا لما كانت هناك مشكلة اسمعي

وابتسمت دولت في هدوء وحنان وقالت

- انتظر ثانية واحدة

ثم قامت في عجلة وخرجت من الغرفة وعادت بعد لحظة تحمل كوبًا من شراب البرتقال

- لا تتكلم قبل أن تشرب هذا الكوب واجلس مستريحًا أرح ظهرك على مسند المقعد

وشرب العصير وأراح ظهره وهدأ فعلًا. وبدأ يروي القصة كلها من يوم أن تبنيا بثينة إلى أن حملت منه وكانت دولت هادئة طول القصة لم تنفعل ولم تقاطعه. وكان هو الذي يقطع الكلام وينظر إليها في دهشة ويقول

- هل كنت تتصورين أن يحدث هذا؟

وترد عليه بهدوء

- أكمل الحكاية وبعدها ستعرف ما كنت أتصوره

وأتم الحكاية وصل إلى أن اعترف لها بأن بثينة حامل منه وبرغم ذلك لم تفاجأ، ولم تصرخ، ولم تثر، ولكنها. بدأت تتكلم في هدوء

- إني أعرف كل شيء وقد كنت فرحة عندما بدأت بوسي تجذبك إلى قضاء السهرة في البيت كنت أعرف أني أصبحت بالنسبة لك مجرد إحساس بالوفاء والعشرة والمشاركة في البناء والاطمئنان، وكل ذلك ليس فيه إغراء لرجل في عز رجولته ولذلك فرحت بأن بوسي أصبحت هي الإغراء الذي يزيد من ارتباطك بالبيت، وبي وكنت أحس بمدى المعاناة التي تبذلها حتى توقف هذا الإغراء عند حد معين ولكنك لم تستطع أن تستمر في المقاومة التي تسبب لك هذه المعاناة وعاشرتها وأستطيع أن أحدد لك متى بدأت إنها ليلة أن سمحت لها بالسفر معك إلى الإسكندرية

كنت أعلم أنك ستتمادى معها ولكني لم أكن أقدر أنك ستتمادى إلى هذا الحد كنت أعتقد أنها ستبقى عذراء ولكني عرفت أنها لم تعد إن المسكينة تحاول دائمًا أن تخفي عني ولكنها لا تدري أني صنعت كل قطعة منها بيدي حتى أصبح من السهل عليّ أن أكتشف كل ما يلم بها وقد قاسيت أيامها إن ابنتي لم تعد عذراء، وزوجي هو المسئول. ولكن ماذا كنت أستطيع أن أفعل؟! إنها تحبك لو كنت قد قاومت حبها فربما أثرت فيها إحساسها بأنها متبناة وليست ابنتي

وتصورت أني أضطهدها أو أغار منها فتهرب مني وأنت أيضًا تحبها ولو أثرت مشادة معك وحاولت أن أحرمك منها، فربما زاد إحساسك بأني لم أعد امرأة بالنسبة لك وأني أحرمك من حقك في متعة رجولتك فتثور عليّ وتهجرني

كان كل ما يشغل بالي دائمًا هو أن أحتفظ بك وبها وماذا يهم؟! إني أعلم أنك كنت تذهب إلى نساء أخريات قبل أن تذهب مع بوسي، فما الفرق؟ - بل إني أحيانًا كنت أتصورها كأنها زوجتك الثانية إن جدي كان متزوجًا من أربع نساء يجمعهن الأربع في بيت واحد لأفترض أني أعيش في أيام جدي ثم حملت منك إني لم أكتشف في الشهور الأولى ولم تحاول طبعًا أن تستعين بي وليس صحيحًا أنها احتفظت بالحمل متعمدة كما أخبرتك ولكنها اعتمدت على صديقاتها في إسقاطه. ولم يكن لديها الجرأة لتذهب إلى طبيب وقد اكْتُشفت حالتها بعد مدة وربما اضطرت أن تذهب إلى الطبيب بعد أن وصلت إلى حالة اليأس إنها ساذجة في هذه المواضيع النسائية برغم ذكائها المعروف عنها

وقاطعها وهو يستمع إليها في دهشة

- المهم ما رأيك ماذا نعمل؟

وابتسمت كأنها واثقة أنها أعدت كل شيء

- أقول لك الحق إنها ابنتي برغم كل شيء إني أحس بها ابنة لي ولا أريد لابنتي أن تنجب في الحرام ويجب أن تتزوجها إنك لن تستطيع أن تتزوجها في مصر لأن قانون التبني يمنعك ولكنك تستطيع أن تتزوجها بعيدًا عن مصر نسافر نحن الثلاثة إلى باريس أو أي عاصمة أخرى وتتزوجها هناك

وقاطعها

- هل سنتزوجها أنا وأنت

وقالت مبتسمة

- آسفة أقصد طبعًا أن تتزوجها أنت ويبقى الزواج سرًّا ثم تضع مولودها هناك ونبقى في الخارج ستة شهور أو أكثر ونعود وأنا أحمل الطفل على أني تبنيته من أحد الملاجئ هناك، وكل الناس هنا يعلمون أني أريد أن أتبنى طفلًا آخر بعد أن كبرت بوسي ومنذ شهور وأنا أذيع بين كل الأصدقاء أني أريد أن أتبنى مولودًا جديدًا بل إن أم عطية الغسالة عرضت عليّ من أيام تبني طفلة أنجبتها شقيقتها المهم سنعود وأنا أحمل طفلك على أني تبنيته ولن يغير ذلك شيئًا في واقعه فأمه الحقيقية ستبقى معه وأبوه معه ويحمل اسمه أما بالنسبة لي فلا

شيء تغير أيضًا، فقد كنت أتبنى من الملاجئ، والآن يمكن أن أتصور أنه أصبح لي ملجأ خاص وهو بوسي نفسها بوسي أصبحت ملجأي الخاص وحتى يكون أولاد هذا الملجأ أقرب إلى قلبي فإني أتصور أني أنا التي كلفتك بإنجابهم لي إنها مجرد عملية تلقيح صناعي بشكل خاص بما إن التلقيح لا يصلح لي فقد جربناه في بوسي ونجح ومن يدري ربما بعد سنة أو سنتين نتفق على إجراء تلقيح آخر وأتلقى من ملجأي الخاص من بطن بوسي طفلًا آخر اعمل حسابك إني أريده ولدًا

وكان يستمع إليها في دهشة دهشة لا يدري كيف يفسرها ولا كيف يحكم عليها وكيف يحكم على دولت إنه لم يكن ينتظر منها كل هذا !

وقال في وجوم

- إنك نسيت أن تقدري أني أحبها أنت تحبينها كابنة ولكني أحبها كامرأة إني أحبها فعلًا .

قالت من خلال ابتسامتها الهادئة

- ما هو الحب؟! إنه العطاء وقد أعطتك ما لا أستطيع أن أعطيه لك أعطتك متعة الجسد وقد انفصلت أنا عنك جسديًّا منذ سنين وها هي تعطيك الخلف الذي عجزت أن أعطيه لك ولهذا لا أغار منها، بل أحس كأنها تكمل ما ينقصني لو كنت أعطيتك متعتك كرجل وأنجبت لك لما دخلت بوسي بيتي ولما تركتها تعطيك شيئًا

- إذا كان الحب عطاء فماذا أعطيها أنا؟! ماذا أعطي بوسي؟ !

- تعطيها كل ما لا تستطيع أن تعطيه لي وأنت لا تستطيع أن تمارس الجنس معي ولا أن تنجب مني

- مستحيل هذا لا يكفي إن الحب ليس صفقة تجارية وليس مجرد عملية حسابية يقوم بها العقل وحده إن الحب عاطفة إحساس والعاطفة تعطي أكثر مما يعطي العقل، أو أن العقل يصبح في خدمة العاطفة

- إنك تحبني أنا أيضًا يا محمد وهم يقولون إنه ليس من حق الإنسان أن يحب اثنتين ولكن هذا كلام فارغ فإن من حق الإنسان أن يستكمل ما تحتاج إليه طبيعته ويأخذ من كل واحدة ما ينقصه من الأخرى ويجب أن تعطيها ولكن ليس على حساب ما تعطيه لي

- إنك إنسانة مجردة من العاطفة ليس لك قلب ولكن لك عقلان، عقل في رأسك وعقل في صدرك وأستطيع أن أكشف الآن أنك منذ اليوم الأول الذي التقينا فيه وأنت تأخذيني بعقلك أخذتني على أمل أن تحملي وتنجبي لأنك لم تنجبي من زوجك الأول ولو كنت قد أنجبت منه لما التقينا أبدًا ثم بعد أن جربت معي ولم تنجبي أيضًا بدأ عقلك الذي ينظم ويحدد احتياجاتك يقنعك بأنك تأخذيني كابن بالتبني إن عواطفك نحوي هي نفس عواطفك نحو بوسي عواطف التبني التي تكتفي بالإحساس بالملكية لذلك لم تغارِ أبدًا على رغم أنك كنت تعلمين بكل ما يجري في حياتي الخاصة كأي أم، لا تغار على ابنها من عشيقاته ومغامراته لأنه سيبقى دائمًا ابنها ولم تغارِ من بوسي وإلى الآن لا تغارين منها حتى بعد أن حملت مني، كل ما يهمك هو الحرص على ملكيتك لي ولها !

وردت محتدة

- إنك تظلمني إني أحبك إلى حد أني أضحي بما يسعدني لأحتفظ لك بما يسعدك ماذا كنت تريدني أن أفعل وأنا أحس بعجزي ونقصي؟ !

- كنت أريد أن يكون حبك أقوى من عجزك ألا تقبلي أي وضع يمس حبك كنت أريدك أن تغاري دائمًا وأن تثوري عليَّ أن تحتفظي باحترام حبك كاملًا حتى لو ضحيت بي كنت تستطيعين أن تنقذيني من حب بوسي، وتنقذي بوسي من حبها لي منذ بدأت تلاحظين ضعف كل منا نحو الآخر ولكنك لم تحاولي لأنك ضامنة ملكيتك لنا نحن الاثنين

- ماذا كنت تنتظر مني؟

- لا أدري إن كل ما يهمني الآن هو مستقبل بوسي إن الحب عطاء كما تقولين، والعطاء الذي تحتاج إليه بوسي الآن هو أن تواجه المجتمع بصراحة وأن يكون مولودها لها وتتباهى به أمام الناس لا أريد أن أظلمها وأظلم ابني معها كيف كيف؟! لا أدري

واقتربت منه ومدت يدها تربت على كتفه وتمسح بأصابعها على شعره الأبيض، وقالت في حنان

- دعني أفكر لك اطمئن كل شيء له حل

إنه يرى بأذنيه

إن محمود شخصية معروفة مشهورة إنه مشهور شهرة التابعي بائع الفول، أو شهرة حامد محمود بائع الأحذية، أو بنترومولي بائع قطع الأثاث، أو فلفلة بائعة الطعمية، أو الشوربجي بائع الملابس الداخلية، أو شهرة زكي السماك شهرة البائع المتخصص الفنان الذي يستطيع أن يخدم الزبون حتى يكسبه ويحتفظ به، ويستطيع أن يجعل من كل زبون طُعمًا يرميه في السوق ليصطاد به عشرة زبائن آخرين

ومحمود متخصص في بيع الكأس

إنه بارمان أو ساق بلغة قاموس مختار الصحاح

وهو لم يرث هذا التخصص عن أحد من عائلته، ولم تدفعه إليه هوايته للكأس، فهو إلى الآن وبعد أن أصبح أشهر «بارمان» في مصر، لا يشرب الخمر إنما فقد يذوقها بطرف لسانه كلما أراد أن يتأكد من سلامة زجاجة منها، أو كلما أرد أن يختبر تركيبًا جديدًا من تراكيب كؤوس الكوكتيل التي تضم خليطًا من أنواع الخمر ومنذ أن كان في بلدته كفر نعيمه مركز طلخا وهو يتخيل لمستقبله مختلف الصور يتخيل نفسه ضابط بوليس، أو طبيبًا، أو مدرسًا، أو زعيمًا سياسيًّا، ولم يخطر على باله أبدًا أن يتصور نفسه ساقيًا يقدم الخمر، ولم تكن كل دنيا خياله تتسع لمجرد أن يرى نفسه فيها واقفًا في حانة .

وحصل على الشهادة الابتدائية ثم بدأ رحلة كل يوم إلى البندر ليصل إلى المدرسة الثانوية ولا تزال أحلامه تصور له مستقبله كما كان يراه منذ كان طفلًا ضابطًا طبيبًا مدرسًا زعيمًا إلى أن وجد نفسه يعيش المشكلة العادية التي تمر بملايين العائلات مات الوالد ولم يترك شيئًا سوى أم وخمسة إخوة ومعاش قيمته خمسمائة وثمانون قرشًا في الشهر. تتسلم منه العائلة خمسمائة قرش فقط والباقي يذهب إلى الدولة ممثلة في شخص الصراف !

وأصبح مضطرًّا أن يعمل ويكسب ثمن وجوده بعرق جبينه، وكان له قريب لأمه يعمل جرسونًا في فندق كبير من فنادق القاهرة، فذهب إليه لا ليعمل معه في نفس الفندق إنما ليبحث له عن أي عمل في القاهرة التي كانت تمثل له ولكل أهل قريته غابة في الجنة يكفي أن تمد يدك لأي شجرة منها لتقطف ما تشاء وهو يريد أن يقطف عملًا يكفل له أن يستمر في الحياة إلى أن يصبح ضابطًا أو

طبيبًا أو مدرسًا أو زعيمًا وكل ما كان يتمناه في هذا العمل ألّا يستغرق كل يومه حتى يترك له الفرصة ليستمر في دراسته الثانوية

ولكن قريبه أخذه معه في نفس العمل ووجد نفسه سفرجيًّا صغيرًا أو مساعد سفرجي ووجد نفسه يندمج بسرعة في هذا العالم الجديد ولعله اكتشف نفسه أو اكتشف مواهبه وأخذ يفهم كل شيء بسرعة عجيبة، ويحفظ أسماء المأكولات والأدوات بسرعة أكبر، ثم بدأ يفهم الزبائن إن أهم شيء في المهنة هو أن تفهم الزبون، فكل زبون له عقلية خاصة ومزاج خاص ونغم خاص من نغمات الأوتار العصبية، ولا يكفي أن تقدم للزبون ما يطلبه، بل المهم هو الأسلوب الذي تقدم به هذا زبون تتطلب معاملته ابتسامة وكلمة حلوة وقد تروي له قصة حياتك وأنت تقدم له طعام العشاء وهذا زبون تتطلب معاملته نوعًا من التعالي عليه بما يشبه الاحتقار لأنه تعود ألّا يكون مهذبًا إلّا بالتعالي عليه فإذا دللته أو ضعفت أمامه حاول أن يركبك وينهش لحمك و و المهم أن تفهم الزبون وعلى قدر فهمك تستطيع أن تكتسب سمعة بين الزبائن وتستطيع أيضًا أن تحصل على الحد الأقصى من البقشيش فالبقشيش لا يعطى فقط كمجرد مكافأة على عمل بل قد يعطى أيضًا كرشوة، أو قد يعطى كنوع من التظاهر إذا كان الزبون في حالة يريد أن يعلن فيها أمام فتاة تصحبه أنه خليفة هارون الرشيد، وأبخس وأحقر أنواع البقشيش هو الذي يدفعه الزبون إجبارًا وبحكم النص عليه في فاتورة الحساب

واستطاع محمود أن يكسب نجاحًا كمساعد سفرجي أو كسفرجي صغير نجاحًا بين رؤسائه ونجاحًا بين الزبائن ولكنه وجد نفسه مشدودًا دائمًا إلى عالم البار الذي يتولى زعامته الرئيس مهداوي محمدين الرجل النوبي الذي مضى عليه وهو يقود البار أكثر من ثلاثين سنة منذ أيام الإنجليز كان محمود ينظر إلى البار من بعيد كأنه ينظر إلى عالم خارج مصر كأنه بمجرد أن يخطو داخل صالون البار قد عبر البحر المتوسط وأصبح في أوربا لا لأن معظم زبائن البار من الأجانب فهم نفس الزبائن في كل مكان من الفندق، ولكن لأن كل ما في البار ينقلك إلى عالم أجنبي الزجاجات الملونة الأسماء العجيبة أسلوب الخدمة كل شيء ليس فيه شيء من مصر ولا من الشرق إنه صورة كاملة من المجتمع الأوربي حتى التمثال الفرعوني. الكبير الذي يضعه مهداوي في جانب من صالة البار، واللوحات التي رسم عليها النخيل والجمال والصحراء المعلقة على الحائط، كل ذلك ليس له أي أثر في نقل جو البار إلى عالم الشرق، إنها تبدو كتحف معلقة في بيت أجنبي !

ومحمود يريد أن ينتقل إلى أوربا يريد أن يخطو فوق عتبة البار ليصل إلى هذا العالم الآخر واستطاع بذكائه الريفي الذي يخفيه وراء قناع من السذاجة البريئة ويقدمه في كل كأس من خفة الدم المهذبة استطاع أن يلفت نظر

«المتر» مهداوي وأن يثير اهتمامه فأخذه معه مساعدًا له في البار لم يكن مساعدًا إنما كان مجرد سفرجي يغسل الكؤوس وينقل الزجاجات ويطيع الأوامر ولكنه كان دائمًا يحصر كل اهتمامه في اكتشاف أسرار «المتر» مهداوي اكتشاف سر المهنة وعرف أسرار الويسكي وأسرار الكونياك والشمبانيا والفودكا والجين ثم اكتشف أسرار علم الكوكتيل اكتشف سر «بلودي ماري» أي ماري الدامية، وهو كوكتيل مكون من الفودكا وعصير الطماطم والشطة والفلفل والليمون وسر «الأمريكانو» وهو كوكتيل آخر يجمع بين عصير الكمباري والمارتيني والصودا و و وعشرات من أنواع الكوكتيل إنه علم كامل صدرت عنه عشرات من الكتب والفهارس، والأبحاث

ومهداوي يعتمد أكثر وأكثر على محمود، ومحمود يكتشف أكثر وأكثر من أسرار البار، إلى أن تعب مهداوي وذهب إلى رحمة الله وتولى ولي العهد - أي محمود - مملكة البار في الفندق الكبير، وكان قد عرف أن مهمة البارمان ليست مجرد أن يملأ الكأس ويقدمها، ولكن يجب أن يكتشف الزبون قبل أن يملأ له الكأس إن البارمان كسائق التاكسي الذي يركب معه كل ساعة زبون لا يعرفه، وسائق التاكسي ينقل الزبون من مكان إلى مكان، أما البارمان فينقل الزبون من حالة إلى حالة، فيجب أن يعرف الحالة التي هو فيها والحالة التي يريد أن ينقله إليها

وأكثر من ذلك لقد بدأ محمود مع الأيام يكتشف أن كل ما كان يحلم به في صغره ليحققه كمستقبل له أصبح يحققه وهو يعمل بارمانًا كان يحلم بأن يكون ضابطًا للبوليس، أو طبيبًا، أو زعيمًا وقد وجد أن كل ذلك يجب أن يتوفر في شخصية البارمان وأن يمارس فعلًا اختصاصات الضابط والطبيب والزعيم بين زبائنه

وهو يذكر هذا الرجل الأمريكي الذي جلس أمامه وبدأ يطلب ويشرب، ثم بدأ يغني أغاني بذيئة بصوت عال، ثم قام ووقف أمام محمود وقال في تحد

- لن أدفع إن خمرك كلها مغشوشة

وكان من حق محمود أن يدعو فورًا رجال الأمن المتفرقين في الفندق ويقبض على الرجل ولكنه بذلك يسيء إلى بقية الزبائن ويفسد جو البار، والأفضل أن يقيم من نفسه ضابط بوليس ويتصرف، فابتسم ابتسامته الجذابة التي تخفي خبثه وقال في مرح

- لا يهم خذ كأسًا أخيرة على حسابي إنها ليست على حسابي ولكن سأغالط في ثمنها أصحاب الفندق لا أنا ولا أنت سندفع لهم شيئًا

وضحك الرجل السكران ورفع كأسه صائحًا

- يسقط أصحاب الفندق

وقال له محمود والرجل يهم بالانصراف بعد أن شرب الكأس

- هل معك سيارة؟

وقال الرجل ضاحكًا ضحكة مخمور

- نعم إنها قريبة تركتها في شارع برودواي ألسنا الآن في نيويورك؟ !

وقال محمود

- انتظر سنخرج سويًّا سأصحبك بسيارتي إلى نيويورك إنها قريبة من هنا

وقال الرجل

- هيا يا صديقي ولكن على شرط أن نمر على مدير الفندق لنصفي حسابنا معه إني أدفع باللكمات

وضحك محمود قائلًا

- وأنا أدفع بالشلاليت

ووضع محمود ذراعه في ذراع السكران وخرج به من البار وظل يضاحكه حتى وصل به إلى قرب الباب الخارجي وأشار إلى اثنين من حرس الفندق فتقدما وقبضا على الرجل قبل أن يقاوم، وبقيا معه حتى أفاق ودفع الحساب واعتذر .

وهكذا كان محمود يمارس مهمة ضابط البوليس التي كان يحلم بها في صغره

ثم بدأ محمود يحس نفسه كطبيب مسئول، فهو ينقل الزبون بفعل الخمر من حالة إلى حالة سواء حالته الصحية أو حالته النفسية فيجب أن يتحمل مسئولية الطبيب سواء كان طبيب الأمراض الجسدية أو الطبيب النفساني وكان يعتمد في علاج مرضاه على نوع وكمية الكحول الذي يقدمه في الكأس وهو لا يستطيع أن يرفض تقديم كأس يطلبها الزبون حتى لو وصل هذا الزبون إلى حالة أقرب إلى فقدان الوعي، ومع ذلك يصر على طلب كأس أخرى والمهم دائمًا هو تحديد ما في الكأس من نسبة الكحول ومعظم الزبائن لا يستطيعون خصوصًا بعد الكأس الأولى تحديد نوع ما يشربونه، إنما يصبح الأمر كله في يد

محمود، ولذلك فهو يتعمد دراسة نسبة قدرة الزبون على تحمل تأثير الكحول هناك زبون لا يتحمل أكثر من كأسين، وزبون يستطيع أن يبتلع عشر كؤوس دون أن يهتز

وبناء على هذه الدراسة قد تختلف الكأس الثالثة التي يقدمها محمود عن الكأس الأولى قد تحمل الكأس الأولى قيراطين من الويسكي ولا تحمل الكأس الثالثة سوى قيراط واحد، ويغطي هذا الفرق بكمية الثلج أو الصودا التي يزيدها على الويسكي دون أن يشعر الزبون بأي شيء ولم يكن محمود يعتبر نفسه بذلك أنه غشاش أو أنه يسرق الويسكي من أفواه الزبائن ولكنه طبيب حريص على حالة مرضاه الصحية مرضى الخمر وكان يحس بقدرة أكبر على التحكم في حالة الزبائن عند تقديم كؤوس الكوكتيل، بل إنه أصبح من هواة إعداد الكوكتيل

إنه يحس بنفسه كأنه صيدلي يعد الدواء المركب لكل مريض كوكتيل «جين فيس» أي «الابنة الصغيرة» المكون من خمر الجين مضافًا إليه الليمون والسكر والصودا والكوكتيل الفرنسي المترفع الغالي الذي لا يقدم إلّا في المناسبات العزيزة كوكتيل «رويال مالبيشيرب» المكون من الكونياك وعصير البرتقال وعصير المشمش ثم يخلط مع الشمبانيا من النوع القوي الطازج وتزين الكأس من حوله بقطع من فاكهة الموسم و وصل محمود بعد أن أصبح ملك البار إلى أن أصبح يبتكر أنواعًا جديدة من الكوكتيل تنسب له ويتعمد أن يطلق عليها أسماء مصرية وكان أولها كوكتيل نفرتيتي الذي يعتمد في تكوينه على الجين والكوانترو والكمباري وعصير الأناناس، وأصبح نفرتيتي مشروبًا عالميًّا مسجلًا في كل بارات العالم ومنسوبًا إلى اسم محمود !

وقد اضطر محمود أن يعتمد على نفرتيتي عندما وجد نفسه يومًا مضطرًّا لأن يتولى بين زبائن البار مسئولية القاضي أو الزعيم الذي يصدر أحكامه تحقيقًا للعدالة

كان مصطفى عبد العزيز من بين زبائنه الدائمين، وهو رجل في حوالي الأربعين من عمره يبدو وسيمًا ولكنه يعتبر نفسه أكثر وسامة من حقيقته، ويهتم بشاربه الرفيع الملتصق فوق شفتيه اهتمامه باختيار رباط عنقه وتلميع حذائه وقد يكون ذكيًّا ولكنه أيضًا يعتبر نفسه أكثر ذكاءً من حقيقته، ويلقي كلماته التافهة كأن كل كلمة تعبر عن حكمة أو اكتشاف جديد كان إنسانًا مغرورًا بنفسه وكان يستمد وقود غروره من اصطياد عجائز السائحات. فهو دائمًا في البار مع سائحة عجوز قد تسافر بعد بضعة أيام فيظهر مصطفى في اليوم التالي مع سائحة عجوز أخرى يكرر معها نفس التمثيلية

ولم يكن محمود يستريح له أو يستخف دمه وكان يعامله كزبون من الدرجة الثانية، وقد عرف عنه الكثير عرف أنه متزوج ويسكن في حي شبرا، وأنه تنقل كموظف بين مجموعة من الشركات، وأحيانًا يعمل كسمسار أو كوسيط في عمليات تجارية تافهة، وأنه يعتمد اعتمادًا كاملًا في اكتساب دخله على اصطياد السائحات العجائز واستنزافهن إنه محترف بيع المتعة للعجائز !

ولم يكن مصطفى عبد العزيز من مدمني الخمر. ربما اختار البار كمجال للعمل، يسهل عليه فيه التأثير على صيده وكان لا يطلب لنفسه عادة سوى كأس واحدة يتناولها في مدة طويلة وبأسلوب معين يتيح له أن يترك المرأة التي معه تشرب في نفس المدة عدة كؤوس حتى تسكر ويسهل عليه استنزافها

ورغم ذلك فإن محمود كعادته مع كل الزبائن تعمد أن يختبر قوة مصطفى عبد العزيز على تحمل الخمر، فقدم له ذات مرة ما يوازي كمية ثلاث كؤوس داخل الكأس الواحدة التي تعود عليها، فلاحظ أنه بدأ يهتز وقدر بذلك مدى قوة تحمله

وفي ليلة دخلت البار فتاة قد لا تتجاوز التاسعة عشرة من عمرها جمالها هادئ شعرها ينساب برفق حول وجهها كأنه وجد هكذا دون حاجة إلى من يصففه، والألوان فوق وجهها كلها ألوان نائمة في حلم سعيد لا يوقظها منه لون دخيل كأنه وجه مغسول من كل الألوان المزيفة وقد خطت إلى داخل البار بعد تردد طويل وأخذت تتلفت حولها في حيرة وارتباك، ومحمود يتطلع إليها تطلعه إلى أي زبون جديد، إلى أن اقتربت منه وقالت في صوت خجول يتكسر بين شفتيها

- من فضلك هل تعرف مصطفى بيه عبد العزيز؟

ونظر إليها محمود في دهشة إنها ليست من النوع الذي يمكن أن يسأل عن مصطفى عبد العزيز كان يمكن أن تسأل عن أي زبون إلَّا هذا الزبون وأجاب وهو يقيسها بين عينيه ليكتشف من تكون لمصطفى عبد العزيز ربما كانت أخته لا يمكن أن تكون على علاقة عاطفية معه فهي تبدو أنظف من أن تكون على علاقة مع مثله أجاب

- نعم أعرفه

قالت وهي أكثر ترددًا وحياءً

- هل يأتي هنا؟

ولم يكن من طبيعة محمود أن يقبل الإجابة على أي سؤال خاص بأحد من زبائنه إنه يحترم دائمًا سر المهنة ولكنه أجابها كأنه يضع نفسه في خدمتها

- إنه دائمًا هنا

وعادت الفتاة تتلفت حولها في حيرة وفي هذه اللحظة دخل مصطفى عبد العزيز ولمحه محمود من بعيد وهو يبدو مرتبكًا عندما وجد الفتاة في البار واستدار كأنه يحاول الهرب، فأشار محمود إلى الفتاة بسرعة فلمحت رجلها الهارب وجرت إليه

وعاد مصطفى عبد العزيز مع الفتاة إلى البار وسمعه محمود وهو يقول لها

- لا شك أنك جننت منذ متى تعودت دخول البارات؟ !

وقالت الفتاة وصوتها كأنه تأهب للبكاء

- جئت أبحث عنك يجب أن ننتهي إلى حل

وقال لها

- لا يمكن أن نجد الحل هنا في البار إني في انتظار بعض الأصدقاء الآن لنتحدث في عمل اذهبي الآن ونلتقي غدًا

ومحمود يستمع له وهو بعيد عنهما لقد عود أذنيه على الاستماع من بعيد ويستطيع أن يوجهها في أي اتجاه ليسمع ما يريد كأنهما عيناه إنه يرى بأذنيه ومنذ تفرغ للبار انقطع عن دراسته الثانوية وأخذ يتردد على المعاهد الخاصة ليدرس الإنجليزية والفرنسية والألمانية أيضًا حتى يفهم كل ما يدور حوله من أحاديث الزبائن ومن خلال أذنيه رأى الكثير رأى صفقات تعقد، ورأى حوادث حب، ورأى سرقات! ورأى ورأى وهو يرى الآن بأذنيه هذا الرجل وهذه الفتاة والرجل يكذب عليها إنه ليس هنا للقاء أصدقائه إنه هنا ليزاول مهنة بيع المتعة لعجائز النساء وهو يستطيع أن يقدم لهذا الزبون الكاذب كأسًا تدفعه إلى الصدق لا تكذب على هذه الفتاة المسكينة لا تكذب ورفع من كمية الويسكي التي تعود أن يقدمها لمصطفى ثم أضاف إليها نقطتين من مشروب الجين وقدم الكأس والفتاة تقول

- لم أعد أحتمل الغد لقد أعددت كل شيء

وشرب مصطفى الكأس وقال ساخرًا

- ماذا أعددت؟! أعددت فضيحة أم جريمة؟ !

وبكت وتساقطت دموع صامتة على وجنتي الفتاة وقالت

- ارحمني يا مصطفى واسمع لي

وتقدم محمود بسرعة بعد أن رأى دموع الفتاة قائلًا

- أستاذ مصطفى اسمح لي أن أقدم لك نفرتيتي إني أحتفل اليوم بميلادها في مثل هذا اليوم ولدتها وجعلت منها أجمل كوكتيل في العالم كل الزبائن يجب أن يحتفلوا بنفرتيتي

وقال مصطفى وقد بدأت كأس الويسكي تهز لسانه

- عجيبة لم أرك أبدًا كريمًا إلى هذا الحد !

وتجاهله محمود والتفت إلى الفتاة قائلًا

- والآنسة أيضًا يجب أن تحيي معنا نفرتيتي

ونظرت إليه الفتاة في ارتباك كأنها لا تفهم ماذا يقول وأطلق مصطفى ضحكة صاخبة قائلًا

- اشربي لقد أصبحت أنت أيضًا من زبائن البار

وغاب محمود لحظات وأعد الكؤوس كما أرادها الصيدلي الذي قرر أن يكتشف دواء للكذب !

وشرب مصطفى

ثم مد يده وغصب الفتاة على أن تشرب لم تكن هذه هي عادة مصطفى ولا كانت من عاداته أن يتصرف تصرفًا مفضوحًا ولكنه تأثير نفرتيتي وقالت الفتاة وهي تبلع الكأس

- اسمعني لقد كنت تقول إنك تنتظر حتى تجمع من المال ما يكفينا لقد جمعته أنا أخذته من البيت وجئت به إليك

وقال مصطفى وقد التوى لسانه

- إن كل ما في بيتكم لا يكفي خطوة واحدة نحو المآذون ولو كان مآذون كلاب

ثم شدت حقيبتها وفتحتها والتقط ما فيها ثم صرخ ضاحكًا ضحكة سكرى قائلًا

- خمسون جنيهًا ها ها ها هل تعرفين كم أخرج في الليلة الواحدة من أي سائحة مائة مائتين أكثر !

وقامت الفتاة وقد بدأ لسانها هي الأخرى يرتج

- لا أعلم يا مصطفى ماذا تقصد؟ هذا كل ما وجدته في البيت

وقال السكران

- البيت الذي ليس فيه إلَّا خمسون جنيهًا خرابة وأنا لن أتزوج ولو كان في بيتك ألف كفاني زواج الولية في بيت شبرا مطلعة ديني !

وصرخت الفتاة

- هل أنت متزوج متزوج يا مصطفى؟! خدعتني ماذا أفعل الآن؟ !

وقام مصطفى مترنحًا من فوق مقعد البار، ووضع الخمسين جنيهًا في جيبه وقال مترنحًا

- عودي إلى بيتك إلى أن تجدي شيئًا آخر ثم نعود ونفكر

وانطلقت الفتاة وهي تصرخ

- خدعتني يا مجرم يا لص

ثم رفعت كفها وصفعته بكل قواها

وابتسم محمود وهو خلف البار لهذه الصفعة، ثم قفز نحو الفتاة والرجل وأمسك بهما في رفق وقادهما إلى خارج البار، وقال هامسًا لمصطفى

- كن هادئًا رجال الأمن وراءنا

واحتقن وجه مصطفى بالذعر وانقاد إلى محمود ومعه الفتاة، وفي زاوية بعيدة خارج البار استطاع أن يحقق العدالة وكانت العدالة التي أرادها عن طريق نفرتيتي هي أن تكتشف الفتاة حقيقة مصطفى وقد اكتشفتها

هكذا كان محمود البارمان المشهور ساقي الخمر عيناه في أذنيه

إلى أن بدأت أذنا محمود تتجهان إلى زبونه رفعت عبد اللطيف المقدم رفعت عبد اللطيف وهو زبون قديم وإن كان يعتبر من زبائن الثورة، أي الزبائن الذين لم يظهروا إلَّا بعد الثورة وتقاس قيمة كل منهم بقيمة مركزه بالنسبة للثورة وهو زبون للبار طالما ظل محتفظًا بمنصبه، فإذا ترك المنصب ترك البار

وقد لاحظ محمود أن المقدم رفعت أصبح يلتقي كل ليلة داخل البار مع صديق لم يكن أبدًا من زبائن البار وعرف أن هذا الصديق هو أيضًا ضابط ومع الوقت سمع اسمه سعيد المر وكانا يجتمعان مستندين على حافة البار ناحية الركن البعيد وكان حديثهما غالبًا أقرب إلى الهمس حتى كان محمود يضطر أن يبذل مجهودًا كبيرًا ليلتقطه بأذنيه، وبدأ يتعمد أن يرفع من نسبة الكحول أو يضيف إليه عناصر أخرى حتى يرفعا صوتيهما فيسهل سماعهما ولم يبدأ اهتمامه بتوجيه أذنيه إليهما لمجرد أنهما من رجال الجيش، ولكن لأنه سمع منهما بالصدفة كلمتين أثارتا حيرته وأثارتا مع الحيرة شهوة الاستماع واكتشاف الأسرار .

كان المقدم رفعت يقول

- لازم نخلص ونخلص بسرعة

وأجاب الرائد سعيد المر

- السرعة ليست في صالحنا كل الدواهي سببها التسرع

وفي ليلة أخرى قال المقدم رفعت

- الراجل بتاعنا اقتنع لم يبق إلَّا تحديد الموعد

وسمع الرائد سعيد يقول

- الجماعة بتوع سوريا مستعدين كنت معهم منذ ساعات

وبدأ محمود يقتنع بأن هناك مؤامرة تدبر ربما انقلاب ربما عملية اغتيال وليس غريبًا أن تتم لقاءات المتآمرين في بار بالعكس إن حوادث خطيرة وهامة ترسم داخل البارات فهنا - في البار - يأمن المتآمرون من عدم إثارة الشبهة لا أحد يمكن أن يتصور أن اجتماعًا خطيرًا يمكن أن يعقد في بار، ولا حتى رجال البوليس فقط رجال المخابرات الذين يمكن أن يكتشفوا أسرار البارات ومحمود ليس من رجال المخابرات ولا يدري إذا كان بين زبائنهِ مخابراتٍ، أم لا

وإذا كان هناك رجال مخابرات فهل تنبهوا إلى هذه المؤامرة أم لا؟! وأذناه لا تكفان عن تتبع المقدم رفعت عبد اللطيف والرائد سعيد المر وتلتقطان تفاصيل كثيرة خطيرة لا يدري كيف يتصرف فيها؟! إلى أن سمع الرائد سعيد المر يقول ذات ليلة للمقدم رفعت عبد اللطيف

- غدًا سننشر في الصحف حكاية الجاسوس الإسرائيلي الذي اكتشفناه من باب التغطية وسيستمر النشر وقد تتم العملية يوم الرابع أو الخامس من الشهر القادم

وأجاب المقدم رفعت

- التحركات كلها حددت وعلى بركة الله

والدماء تغلي في عروق محمود إنه لا يدري ماذا يفعل بكل هذا الذي يسمعه بل إنه يراه إنه يرى ما يسمعه يرى بأذنيه يرى مصر تنقلب أمام عينيه ربما كان من الخير له أن يتجاهل كل هذا الذي يسمعه ماله ومال البلاوي وأعد لنفسه كأسًا من عصير النعناع المركز حتى يهدئ أعصابه يجب أن يقنع نفسه بأن كل هذا لا يهمه، وليس من اختصاصه أن يهمه إنه ليس مخابرات وهو يسمع أن البلد كلها غارقة في بحر من المخابرات ويكفي الاتكال على المخابرات

ولكنه في صباح اليوم التالي فتح الصحف إنها كلها تنشر حكاية الجاسوس الإسرائيلي إن الخطة تأكدت كل ما سمعه يحدث لم يبق إلَّا أيام وتتم العملية ماذا يفعل؟! كيف يتصرف؟! إنه لا يريد أن يقوم انقلاب في مصر إن مصيبة جديدة لن تحل المصيبة القائمة والبلاوي لا تحلها البلاوي ونعرة الفلاح الشهم تملأ كل إحساسه وتقرص كل أعصابه ورغم ذلك كله لا يدري ماذا يفعل !

إلى أن دخل إلى صالة البار بهجت شكري إنه ليس من زبائن البار ولكنه يتردد عليه في فترات متباعدة كلما جاء إلى الفندق في إحدى المناسبات وهو يعلم أنه يحتل مركزًا هامًّا في مكتب الرئاسة ربما كان مدير مكتب أو سكرتيرًا خاصًّا أو مستشارًا المهم أنه في أحد أركان الرئاسة العليا وهمس محمود في أذنه وهو يقدم له الكأس

- أرجو أن تسمح لي بلقاء إنه موضوع هام

ورد بهجت ضاحكًا

- إنك هكذا ملك الدنيا يا محمود فماذا تريد أكثر؟ !

وقال محمود وهو يتطلع حوله حتى يتأكد أن المقدم رفعت لم يصل بعد

- إنه موضوع لا يتعلق بي يتعلق بالبلد بالمصير وأفضل أن أراك في مكتبك

ونظر إليه بهجت شكري نظرة جادة كأنه قدر أن يكون الأمر خطيرًا فعلًا، ثم قال وهو يحتفظ بابتسامته

- هل يهون عليك البار تتركه بعد نصف ساعة؟ !

وقال محمود كأنه فوجئ بسرعة تلبية طلبه

- ألا يمكن أن أتركه غدًا صباحًا

وقال بهجت وقد اتسعت ابتسامته أكثر

- إذا كان الموضوع متعلقًا بالمصير فلا يحتمل التأجيل إلى الغد سأكون في انتظارك في مكتبي بعد نصف ساعة وسأترك تعليمات بإدخالك فورًا أمثالك يا محمود لا يؤجل لهم طلب

ثم قام بهجت شكري وانصرف بسرعة خارجًا من البار

ووقف محمود متجمدًا كأنه أصيب بالشلل ويقول لنفسه إنه مجنون ألقى نفسه في مصيبة ماله ومال المصائب إنه ليس مسئولًا عن إنقاذ البلد من المصائب إنه لن يذهب إلى بهجت شكري ولكنه لا يستطيع قد يرسل وراءه البوليس للقبض عليه سيذهب ولكنه لن يقول شيئًا سيدعي أنه كان يريده حتى يتوسط له في شراء سيارة نصر، أو استئجار شقة ولكنه قد يكشف كذبه واستسلم محمود استسلم لقدره وذهب إلى مكتب بهجت شكري الذي يقع بين مكاتب الرئاسات

واستقبله حارس من جنود الجيش صحبه إلى مكتب ضابط من ضباط الجيش وصحبه الضابط إلى غرفة صغيرة ليس فيها أحد وليس فيها مكتب لعلها غرفة انتظار وتركه الضابط وحيدًا وخرج وأغلق الباب وراءه ومضت أكثر من نصف ساعة ومحمود لا يزال وحيدًا، وأعصابه تتمزق، وأنفاسه تضيق وأوهام كثيرة تملأ رأسه وفجأة فتح الباب ودخل بهجت شكري دخل مرحبًا مبتسمًا وهلل في مرح

- آسف تأخرت عليك ألم يقدموا لك شيئًا هل تريد كأسًا من الويسكي إنك الآن الزبون وأنا البارمان اطلب ما شئت وإن كنت لن أستطيع أن أخدمك قدر خدماتك لنا

وقال محمود وهو يبتلع توتر أعصابه ويحاول أن يتجاوب مع ابتسامة بهجت

- ألف شكر أريد أن أقول ما عندي وأعود إلى البار تأخرت كثيرًا

وقال بهجت في تواضع

- آسف يا متر محمود لأني أخرت عودتك احك لي

وبدأ محمود يحكي، وربما كان قد قرر أن يكون حريصًا في كل كلمة يقولها ألَّا يقول كل شيء وألَّا يتهم أحدًا ولكنه ما كاد ينطق حتى غلبه حماسه، وسيطرت عليه فكرة محاولة إنقاذ مصرمن انقلاب آخر، وانطلق يروي كل شيء يصف كل ما رآه بأذنيه

وظل شكري يستمع إليه صامتًا دون أن يرفع إليه عينيه ثم بدأ يسأله أسئلة كثيرة قصيرة

- منذ متى بدأت تسمع هذا الكلام؟

ويجيب محمود في حماس

- منذ أكثر من شهرين

ويسأل بهجت

- ألم تر أحدًا ينضم إليهما في هذه الأحاديث؟

ويرد محمود

- لا ولكن الرائد سعيد المر كان دائمًا يبقى قليلًا ثم ينصرف في خطوات سريعة كأنه على موعد آخر. وتتوالى أسئلة بهجت شكري وترتفع درجة حماس محمود في إجاباته إلى أن استأذن بهجت

- عن إذنك يا محمود سأعود إليك

وتركه وحيدًا والباب مغلق عليه

ومضت نصف ساعة وبدأ محمود يتململ ونصف ساعة أخرى وبدأ ينهار لعلهم سيتركونه هنا إلى الأبد لعله مسجون لعلهم نسوه وحاول أن يفتح الباب

فاكتشف أنه مغلق بمفتاح أو ترباس ودق بيده على الباب وفتحه ضابط من ضباط الجيش لقد وضعوا عليه حارسًا وقال الضابط في رفق

- هل تريد شيئًا؟

وقال محمود في رعشة

- أريد أن أخرج من هنا

وقال الضابط في رفق

- بعد قليل بإذن الله السيد بهجت مشغول قليلًا

ثم عاد وأغلق عليه الباب

والساعة قد وصلت إلى الثالثة صباحًا ووصل محمود إلى حد الانهيار إنه جالس على المقعد ورأسه بين يديه كأنه يودعها قبل أن تقطع إنه يعلم حقيقة هؤلاء الناس إنهم يذبحون كل من يعلم شيئًا عن دنياهم حتى لو كان يحاول إنقاذ هذه الدنيا آخر خدمة الغز علقة وهو الآن في انتظار العلقة ضاع انتهى

وفجأة فتح الباب

ودخل بهجت شكري وقفز محمود كأنما لسعته النار عندما رأى اثنين يدخلان معه المقدم رفعت عبد اللطيف والرائد سعيد المر! وارتعش لم يعد يستطيع الوقوف على قدميه فسقط على مقعده كأنه انتهى

وقال بهجت شكري في هدوء

- أرجوك يا محمود أن تعيد ما سمعته منك لا تخف إنه فقط أسلوب المواجهة في التحقيق

وقال محمود ولسانه تلعثم مع تمزق أنفاسه

- أنا لم أتهم أحدًا. إني فقط قلت كلامًا سمعته لم أقصد شيئًا لم أقصد شيئًا

وعاد بهجت يكرر أمامه بعض ما قاله وهو يهز رأسه أحيانًا وأحيانًا يعود ويقسم أنه لا يتهم أحدًا وعيناه زائغتان تنتقلان في فزع بين المقدم رفعت والرائد سعيد

ثم بدأ الرائد سعيد المر يتكلم ويسأل محمود

- ألَّا تذكر الرجل الأمريكي الذي كان يدخل البار كل مساء؟

وقال محمود وهو يطوي نفسه في مقعده

- أي أمريكي إنهم كثيرون؟

وقال سعيد المر

- اسمه بيتر برسون لا شك أنك تعرف اسمه

وقال محمود

- نعم أعرفه

وعاد سعيد المر يقول

- متى سافر بيتر هذا؟

وقال محمود

- أول أمس على ما أعتقد

وقال سعيد المر

- ألم تلتق معه في حديقة الفندق مساء الثلاثاء الماضي؟

وقال محمود

- إنه زبون صديق كبقية الزبائن

والتفت سعيد المر إلى بهجت قائلًا

- كما قلت لك إنه تخطيط أمريكي والهدف واضح إثارة الانقسام في الجيش

وهز بهجت رأسه موافقًا، ثم خرج الثلاثة من الغرفة

وفي الصباح وجد محمود نفسه في السجن الحربي !

*

ومضت أربع سنوات ومحمود مختف من البار، وكل الزبائن يعتقدون أنه سافر للعمل في الخارج وتتعدد القصص والحكايات إنه في باريس إنه في أسبانيا إنه في أستراليا لقد تزوج من أمريكية لقد أصبح مليونيرًا وافتتح بارًا في هونو لولو ولم يخطر على بال أحد من الزبائن أنه ملقى في السجن الحربي هكذا بلا محاكمة، ولا حتى مجرد تحقيق داخل السجن. كلهم نسوه هناك

وفجأة ظهر محمود داخل البار

لقد عاد

وهو يقبل على الزجاجات والكؤوس في لهفة كأنه فنان يعود إلى فرشاته وألوانه بعد غيبة طويلة

واستقبله الزبائن بالتهليل، ولكنه يتلقى تهليلهم بابتسامة باردة كأنه لا يسمعهم

إنه لا يسمع فعلًا

إنه يضع في كل أذن من أذنيه قطعة ثقيلة من القطن فوق قطعة من الصمغ كأنه كان يضع فوق عينيه غمامة سوداء

لم يعد يرى بأذنيه

وبدأ يعود زبائنه على أن يقدموا طلباتهم بالإشارة أو يفهم ما يطلبونه من حركات الشفاه .

وجاء بهجت شكري ذات ليلة إلى البار وأخذ يبحلق في محمود طويلًا ثم أشار إليه ليتقدم نحوه وبدأ يتكلم قال له

- أعترف أننا ظلمناك يا محمود ولكن الرئاسات أحيانًا تضطر إلى الظلم وقد كانت المعلومات التي قدمتها لنا صحيحة وكان يجب أن نكافئك على شهامتك ووطنيتك، ولكن الخطة التي وضعناها كانت تفرض أن نظلمك وأن نقذف بك في عملية انتحارية كأبطال الحروب فلو أننا تحركنا للقضاء على المتآمرين فربما وقعت مصيبة في الجيش لأنهم كلهم من الشخصيات الهامة التي كانت مسيطرة وفي الوقت نفسه كنا نريد أن نتركهم يعلمون أننا اكتشفنا مؤامرتهم لكننا لا نصدق ما اكتشفناه لذلك تركناهم يوجهونك ثم قبضنا عليك حتى نؤكد

أننا لا نصدقك وقد نجحت الخطة فإنهم اضطروا أن يؤجلوا المؤامرة وأن يبدأوا في وضع تخطيط جديد وهذا ترك لنا الوقت الكافي حتى نصفي المتآمرين واحدًا بعد الآخر في هدوء دون أن نعرض الجيش لأي ضجة أو انقسام أتدري أين الرائد سعيد المر والمقدم عبد اللطيف؟! إنهما حيث كنت في السجن الحربي !

وانتظر بهجت شكري أن يتكلم محمود

ولكنه لم يتكلم

لم يلاحظ بهجت شكري أن محمود يسد أذنيه لم يعد يسمع شيئًا لم يعد يرى بأذنيه لقد اكتشف طريق السلامة ألّا يسمع حتى لا يرى !

الصيد في بحر الأسرار

(1)

عزيزي الأستاذ

أنا أحد أعضاء السلك الدبلوماسي وفي صيغة أكثر تواضعًا، أنا موظف في إحدى السفارات العربية ولا يهم أن أحدد لك الدولة التي تنتمي إليها هذه السفارة، ولا في أي عاصمة من عواصم العالم تقع، فأنا لا أكتب لك لأدفعك إلى إثارة قضية عامة أو قضية سياسية، كما أني لا أكتب لأشهر ببلدي أو بأحد من الناس إنما أكتب لأني تعودت أن أقرأ لك منذ كنت طالبًا عندكم في مصر، وكنت أقدر أنك فيما تكتب تعرض الواقع كما هو دون أن تفرق بين ما يمكن أن يقال همسًا وفي داخل المجتمعات المغلقة وما يمكن أن يقال علنًا وينشر على الناس وربما كنت تقصد ذلك أو لا تقصده أي ربما كنت جريئًا وربما كنت ساذجًا

المهم، أني أكتب لك لأعرض عليك صورة من صور الواقع أعتقد أنها لم تطرأ على بالك ولا مرت بخيالك لا لأستعين بك على موقف معين ولا حتى لأستعين برأيك، إنما أكتب لمجرد الكتابة أريد أن أسلي نفسي في أوقات الفراغ، أو على الأصح - أريد أن أخفف عن نفسي بعض ما أحمله من هذا الواقع، أو لعلي أكتب لأجرب نفسي ككاتب قصة

اسمعني يا سيدي

إن منصبي الرسمي في السلك الدبلوماسي هو منصب وزير مفوض في خلال عامين اثنين ارتقيت من سكرتير ثان إلى وزير مفوض ويمكن أن تقدر ذلك على أنه اعتراف بثقافتي وكفاءتي، فإني أعتبر واحدًا من قمم الطبقة المثقفة الضيقة التي يضمها مجتمع بلدي كما أني لا شك أمتاز بمستوى عال من الكفاءة، وأنا لست واحدًا من أفراد الطبقة الحاكمة وهي طبقة أترك لك الخيال في أن تتصورها في شكل عائلة حاكمة، أو في شكل مجلس قيادة ثورة ورغم أن أبي مجرد تاجر عادي يعيش حياته في دكان صغير داخل السوق، إلّا أني منذ صباي استطعت أن أثبت وجودي بين أبناء الطبقة التي

تحكم، ثم استطعت أن أستمر في تعليم نفسي حتى تخرجت من كلية الآداب، قسم الفلسفة، جامعة القاهرة

فأنا أعتبر نفسي الفيلسوف الوحيد في بلدي ورغم ذلك وحتى أكون واقعيًّا فإني لا أعتبر أن ثقافتي أو كفاءتي كانت السبب الرئيسي في هذه القفزات السريعة التي قفزتها فوق مناصب السلك الدبلوماسي السبب في تقديري هو الخدمات التي أؤديها وحتى أكون أكثر صراحة معك فيمكنك أن تسميها خدمات شخصية !

إن مهمتي الرئيسية داخل السفارة بجانب المهام الرسمية الأخرى هي ما يسمى «العلاقات العامة» ولكني تخصصت في جانب خاص من هذه العلاقات، وهي العلاقات النسائية علاقات من نوع معين من النساء

هل فوجئت؟ !

هل دهشت؟ !

يا صديقي إن العلاقات النسائية تمثل جانبًا هامًّا رئيسيًّا من نشاط أي سفارة من سفارات العالم، وهي - ولا شك أنك تعلم - علاقات تستغل إما لتجنيد بعض النساء للتجسس لحساب الدولة، وإما لتوفير المتعة لبعض الشخصيات الكبيرة من أهل البلد الذين يزورون السفارة أثناء أداء مهامهم الرسمية في الخارج فقط من باب إكرام الضيف ومهمة العلاقات النسائية إما أن تتولاها مكاتب المخابرات الملحقة بالسفارة، وإما أن تتولاها السفارة نفسها عندما لا يكون بها مكتب مخابرات، كسفارتنا

هل تذكر الضجة التي قامت في القاهرة عندما أعجب المرحوم الرئيس سوكارنو بإحدى فتيات فندق هيلتون، وطلب أن تلحق به بعد سفره، ورفضت الحكومة المصرية السماح لها بالسفر هذه القصة منذ بدايتها كانت لا يمكن أن تتم إلّا تحت إشراف الجهاز الدبلوماسي الذي يتبع الرئيس سوكارنو، والخطأ الذي وقع فيه هذا الجهاز هو أنه ترك القصة تعرف بين الناس، وهو نفس السبب الذي جعل الحكومة المصرية ترفض السماح للفتاة بالسفر، مداراة وتغطية للفضيحة حتى لا تصبح قصة دولية، وإلّا فلا أعتقد أن أي دبلوماسية كانت تضحي بصداقة زعيم عالمي كالمرحوم سوكارنو من أجل فتاة عاملة في فندق، وأن سوكارنو كان مشهورًا عالميًّا بأنه زير نساء وأكثر من ذلك ألا تذكر بعض الشخصيات العربية الزائرة، وقيل إنه كان من بينهن بعض الفنانات المشهورات وكانت تعد لهن آلات تصوير سرية تلتقط مواقف خاصة جارحة لهذه الشخصيات وهم في حالات شاذة مع هاتيك النساء إن ما أعرفه أن هذه

العمليات لم تكن مقصورة على الشخصيات العربية فحسب، هناك شخصيات غير عربية أيضًا شخصيات عالمية تضم الغرب والشرق

المهم إن ما يشغل فكري كلما تذكرت هذه القصص هو أن أتساءل: أين ذهبت الصور الفوتوغرافية التي التقطت إن صورة واحدة منها يمكن أن تكون أداة ابتزاز لملايين من العملات الصعبة ولكني أقدر أن هذه الصور إن لم تكن قد أعدمت فإنه يحتفظ بها في أعماق بئر الأسرار حرصًا على العلاقات الدبلوماسية المهم أن كل هذا كان يحدث نتيجة عجز السفارة التي تتبعها الشخصية العربية أو غير العربية، فإن أي شخصية لها قيمتها عندما تسافر إلى الخارج تصبح في حماية السفارة ليست الحماية السياسية فحسب بل أيضًا الحماية الاجتماعية والحماية من النزوات الخاصة، أي أن من حق السفارة أن تتدخل في اختيار الزائر لمجال ممارسة حياته الخاصة، فإن الحياة الخاصة هي الباب السهل الذي تتدخل منه أجهزة التجسس والمخابرات الأجنبية

أريد أن أقول لك إن تخصصي في العلاقات العامة الخاصة بالتعامل مع النساء، ليس عملًا مشينًا ولا ينطبق عليه اللقب الذي تستعملونه في مصر وهو لقب «قواد» لا ابصقها من فمك فإنه تخصص تفرضه المصلحة الوطنية التي تتطلب حماية الشخصيات الهامة في بلدك رغم أن دوافع تصرفات هذه الشخصية التي تتطلب الحماية كلها دوافع شخصية رخيصة لا علاقة لها بالوطن ولا بالوطنية !

وصدقني عندما أقول لك إني لم أبدأ باختيار هذا التخصص ولا كان يخطر ببالي ولكني وجدت نفسي فيه وعندما عينت في السفارة كسكرتير ثالث كنت أصغر أعضاء السفارة سنًّا، ولا أبالغ إذا قلت إني كنت الصورة الأكثر وسامة وانطلاقًا بينهم، فإن حياتي الطويلة في مصر ورحلاتي إلى الخارج جعلت مني شابًّا يتميز بقبول اجتماعي أكثر من أي شاب في بلدي أنا لست مغرورًا، وأنت لا تعرفني ولن أفصح لك عن اسمي أو شخصيتي حتى أتباهى أمامك بالغرور ولكن هذا هو الواقع وقد فوجئت منذ وصلت إلى العاصمة التي تضم السفارة بالحياة الجنسية المفضوحة التي تعيشها هذه العاصمة وهي حياة مخصصة ليعيشها السياح والأجانب

إن أحد العناصر الرئيسية في عملية التنشيط والدعاية السياحية التي تتبعها كل بلاد العالم السياحية هو عنصر الجنس ولذلك فإني أنصح وزارة السياحة في مصر أن تقاوم الدعوة التي نسمع عنها والتي تدعو إلى إغلاق ملاهي شارع الهرم، كما أنصح بوليس الآداب المصري ألّا يفرض تدخله في هذا المجال وأن يتبع اللوائح الخاصة بنوادي القمار فالقمار في مصر وفي كثير من الدول السياحية لا يسمح بممارسته إلّا للأجانب، أي السياح، فلماذا لا يطبق على ممارسة الجنس ما يطبق على ممارسة القمار، وكلاهما حرام، وكلاهما رجس

من عمل الشيطان أعرف أنك تلوي شفتيك امتعاضًا وأنت تقرأ هذا الكلام، ولكني أعتبرك كاتبًا واقعيًّا وأحاول أن أشدك إلى مزيد من الواقعية إلى منتهى الواقعية

على كل حال فقد فوجئت بهذه الصراحة التي يعرضون بها الجنس في هذا البلد في الحانة رأيت عشرات البنات يقفن عاريات فوق البار الذي يجلس حوله الزبائن ويرقصن رقصات أشبه بالدعوات البذيئة وعندما دخلت ناديًا ليليًّا أي «كباريه» وجدتهم يضعون النساء خلف نافذة زجاجية كأنها «فترينة» دكان لبيع الأحذية تقع في جانب وراء صالة العرض وكل زبون يدخل وينتقي الحذاء الذي يعجبه أقصد المرأة التي تعجبه ليأخذها وتجلس معه على مائدته، وفي الحمامات الساخنة المخصصة للتدليك نفس الشيء نساء خلف فترينة زجاجية تنتقي من بينهن من تريد أن تدلك عضلاتك. محلات تجارية تعرض بضاعتها في فترينات زجاجية كما تعرض الأحذية واللحوم في دكاكين بلادنا وعلى قدر ما فوجئت إلّا أني اكتشفت فيما بعد أن هذه الوسيلة من وسائل العرض تتكرر في أكثر من بلد سياحي، بل إني رأيت الوسيلة نفسها تتكرر في ميناء هامبورج بألمانيا الغربية

وصدقني إنها وسيلة قززتني. ولم أترك نفسي أبدًا تنجذب إليها كنت أحس أني لو أخذت واحدة من هاتيك النساء فكأني وقفت معها أمام الناس داخل الفترينة ولكني كما قلت لك درست الفلسفة وهوايتي اكتشاف أعماق الشخصية الإنسانية وهو ما دفعني إلى التعرف إلى كثيرات من هذا الصنف من النساء، وهذا الصنف قادني إلى صنف أرقى لا يعرض في الفترينات وكنت قادرًا على أن أجمع بيني وبين كل واحدة منهن بنوع من الصداقة أرقى من الجنس، بل إني أعطيت نفسي حق الظهور معهن بعيدًا عن مجال عملهن في دعوة إلى الغداء أو في رحلة خارج العاصمة

المهم

لم يكن قد انقضى أكثر من ثلاثة أو أربعة شهور على وصولي إلى السفارة لم أكن قد عرفت بعد كل ما يعيشه المجتمع الدبلوماسي وكان قد زارتنا شخصية رئيسية من الطبقة الحاكمة، وكان السفير يقيم حفل عشاء خاصًّا لهذه الشخصية في داره وكنت أنا وحدي في السفارة عندما وصلت برقية هامة يجب أن أحملها فورًا إلى السفير في بيته وذهبت إلى بيته، وعندما وصلت إلى الباب وصلت معي سيارة السفارة ونزلت منها واحدة من النساء اللاتي عرفتهن يرقصن عاريات في أحد البارات وكانت تعرفني وظنت أني أحد المدعوين إلى بيت السفير وحاولت أن تهلل لرؤيتي وتفضح معرفتي بها. ولكني صددتها بلقاء رسمي مبالغ فيه وأسكتها وكتمت تهليلها، ثم تركتها تدخل

إلى البيت ووقفت أنا على الباب إلى أن استدعاني السفير واستقبلني في غرفة مكتبه بعيدًا عن مجال الحفل حيث سلمته البرقية

وكان هذا الحادث هو أول ما فتح ذهني إلى مجال تخصصي

وبعدها بأيام استدعاني السفير وقال لي ضاحكًا

- يبدو أن البلد أعجبتك جدًّا

قلت

- جدًّا يا سيادة السفير، ولكني ما زلت في مرحلة الاستكشاف

وقال وضحكته تعلو

- إنك على الأقل اكتشفت حتى الآن أجمل نسائها، لقد رأوك أمس مع فتاة قالوا إنها رائعة حلوة تجنن !

قلت وأنا أرد على ضحكته بابتسامة

- عرفتها مصادفة و

وقاطعني قائلًا

- دع الصدف تشملنا ادعها الليلة ونسهر معًا

قالها ببساطة كأنه يلقي عليّ أمرًا إداريًّا وقد دعوت الفتاة بالفعل وخرج معي للقائها السفير وحده بعد أن كانت الشخصية الكبيرة الزائرة قد سافرت وعرفت خلال هذه الليلة أن كل ما هنالك أن السفير يريد أن يرفع الكلفة بيني وبينه، وأنه يريد أن يشركني في هذا الجانب من أعمال السفارة الذي كان هو نفسه يعاني منه من طول ما تحمل من مسئولياته ولعجز باقي موظفي السفارة عن مزاولة العلاقات النسائية بمستوى راق كان السفير يريد أن يمنحني فرصة التجربة ليختبرني وهي ليست فرصة سهلة، إنما فرصة تعطيك الحق في أن تستولي وتحتفظ بكثير من الأسرار الشخصية الجارحة التي تشمل أكبر شخصيات الطبقة الحاكمة في بلدك

ونجحت في التجربة

واكتسبت ثقة السفير واعتماده عليّ، بل إن السفير أصبح في يديّ لأنه هو الآخر له أسرار شخصية جارحة حصلت عليها من خلال العمليات التي كنت أقدمها له واحتفظت له بها في بئر الأسرار، والذي يملك بئر الأسرار يملك كل من له سر !

وكانت الشخصيات الزائرة التي تفد من بلدي تنقسم إلى أنواع

نوع سهل بسيط يعتبر دخيلًا أو مبتدئًا في حياة الليل، ولا يزال جائعًا إلى كل امرأة دون أن يقدر قيمة الوصول إليها، وهو نوع كنت أكتفي بأن أصحبه إلى الحانات والكباريهات والحمامات فيبهر ويسيل لعابه بالأجساد العارية ويلقي نفسه فوقها بشراهة دون أن يطلب أي إعداد خاص. كالحرص على التستر، أو إحاطته بجو ومزاج معين وهو نوع يشمل صغار وكبار الموظفين، ويشمل هؤلاء الذين وجدوا أنفسهم كبارًا فجأة ولم أكن أبذل اهتمامًا كبيرًا بهذا النوع من الزوار، بل في الغالب كنت أترك الاهتمام به إلى سكرتيري الخاص وسكرتيري الخاص ليس من بلدي ولكنه من بلد عربي آخر، وقد اخترته غريبًا حتى لا أترك لأحد من موظفي الوزارة فرصة التتلمذ على يديّ في علم العلاقات العامة ثم ينتهز الفرصة ليقضي عليّ ويحل محلي كما يحدث غالبًا

أما النوع الثاني من الشخصيات فهو النوع الأكثر تجربة، والذي شبع من حياة الليل السهلة، ولم تعد تغريه الحانات ولا الحمامات، وهو ما يجعل الاهتمام به يتطلب إعداد جلسات خاصة في بيوت خاصة، وهو ما يكلف ميزانية العلاقات العامة أكثر، لأن هذه البيوت، أو على الأصح البيوت التي كنت أختارها لهذه الشخصيات الهامة ليست بيوتًا مفتوحة لأي زائر إنها أقرب إلى بيوت الجيشا في اليابان، عندما كانت للجيشا تقاليد واحترام وقبل أن تنقلب إلى مجرد بيوت سياحية أقرب إلى دكاكين خان الخليلي عندكم وفي مثل هذا البيت تعد سهرة كاملة للزائر موسيقى، رقص، غناء، عشاء وهو وحده أو بصحبة صديق من أصدقائه، ويستطيع أن يطلب أي شيء وكأنه صاحب البيت يملكه ويملك من فيه ولذلك قلت إن الزائر من هذا النوع يكلف ميزانية العلاقات العامة كثيرًا

والنوع الثالث هو النوع الأخطر والأهم النوع الذي يشمل الشخصيات الرئيسية في بلدنا وهو نوع يمتاز بأنه لا يسمح لنفسه أن يطلب ليلة من هذه الليالي لا يكلف السفارة بأن تحقق له متعة خاصة، احترامًا لمركزه وحرصًا على مظاهر تقاليد الحكم كما أن أحدًا لا يمكن أن يعرض عليه حتى على سبيل النكتة أن يوفر له هذه المتعة ليس من حقي كمسئول عن العلاقات العامة أن أغري شخصية من هذه الشخصيات بقضاء ليلة خاصة حتى لو كنت أعلم أنه يتمنى مثل هذه الليلة الخاصة، بل حتى لو تأكدت أنه لم يأت إلينا زائرًا إلّا بعد أن سمع من أحد أصدقائه عن الخدمات الممتعة التي أقدِمها

وعلم العلاقات العامة ينصحك في مثل هذه الحالة أن لا تعرض شيئًا ولكنك فقط تحيط هذه الشخصية بالجو والمجال الاجتماعي الذي يتيح له فرصة الاختيار اختيار ما إذا كان يريد أو لا يريد وتحقيق هذا البند من علم العلاقات العامة يعتمد على قدرتك في اكتساب صداقة نوع معين من العائلات إنه نوع من العائلات المحترمة قد يمثلها رجال لهم مراكز لها قيمتها، أو مراكز ليست رسمية، ولكنها عائلات تعيش حياة التساهل الاجتماعي، ونساؤها على استعداد للاشتراك في كثير من العمليات التي تعود على العائلة بنفع كبير كتحقيق عملية تجارية يقوم بها الزوج مثلًا، أو المساهمة بالوساطة في صفقة ضخمة وتدعى مثل هذه العائلة إلى حفل عائلي يقيمه السفير تكريمًا للضيف الكبير

حفل خاص لا يدعى إليه بصفته الرسمية ولكن المدعوين كلهم أصدقاء خصوصيون وتتولى سيدات العائلة إحاطة الضيف بالجو الاجتماعي المرح المفتوح الذي يشجعه على أن يطلب أن يطلب هذه السيدة أو الأخرى إذا أراد أن يطلبها وغالبًا ما ينتهي الحفل الخاص بتحديد موعد بين الضيف والسيدة المحترمة وهو معتقد أنه وصل إليها بسحره ووسامته وذكائه وأنه فتاك نساء، وإن كان يضطر بعد ذلك إلى أنه يستدعيني في لقاء خاص ويهمس في أذني بما وصل إليه وكأنه يطلعني على سر خطير لا علم لي به، حتى أعد له المكان الخاص الذي سيلتقي فيه مع هذه السيدة

ومثل هذه العمليات التي تتم عن طريق صداقة العائلات المحلية لا تتحمل ميزانية العلاقات العامة تكاليفها. ولكن قد يتم مقابلها تحقيق صفقة تجارية أو عملية سمسرة يقوم بها رجل العائلة، وفي الغالب تنتهي العملية بهدية ثمينة تساوي آلاف الدولارات يقدمها الضيف إلى السيدة المحترمة

هذه هي الأنواع الثلاثة من الشخصيات التي كنت مسئولًا عنها

وقد حققت لحسابي أرباحًا كثيرة عن طريق هذه الشخصيات بعد أن أسقطتها في بئر الأسرار وأصبحت أقبض بكل سر على عنق واحد منهم مما يضطره إلى أن يكسبني ويتقيني ولم يكن كل ما حققته هو هذه القفزات السريعة فوق السلك الدبلوماسي والتي وصلت بي في خلال عامين إلى رتبة الوزير المفوض، ولكني استفدت كثيرًا من الوساطة في تحقيق صفقات متعددة وأستطيع أن أقول الآن إني وصلت إلى مستوى الطبقة الحاكمة حتى ولو كنت لا أعتبر سياسيًّا من بينها

وفي داخل السفارة كانت هناك شخصية مضت فترة طويلة وأنا حائر فيها وهي شخصية زوجة السفير إنها تعرف كل شيء وفي بيتها وفي حضورها كانت تتم كل هذه العمليات التي حدثتك عنها وكانت تستقبل أنواعًا من النساء تعلم أنهن من المحترفات بل كان من بينهن أدنى أنواع المحترفات من فتيات الحانات

والحمامات إلى أن تحملت أنا المسئولية ومنعت دعوة هذا النوع من المحترفات إلى داخل السفارة سواء في الحفلات العامة أو الخاصة والاقتصار على المحترفات الراقيات وقد قدرت أولًا أن الزوجة التي تقبل كل ذلك في بيتها لابد أنها زوجة سهلة، بل إني قدرت أنها لا شك أن لديها الاستعداد لتزاول نفس ما تسمح به إن زوجها السفير له هذا النوع من حياة الليل فلماذا لا يكون من حقها هي الأخرى نفس الحياة !

وحاولت كثيرًا أن أكشف عن حياة خاصة تعيشها أن ألقي بها في بئر الأسرار مع باقي الرجال والنساء ولكني لم أكتشف ولم أعرف لها سرًّا وأكثر من ذلك، حاولت أنا نفسي أن أصل إليها إني كما قلت لك أتمتع بجاذبية الوجود مجرد وجودي يشد أي امرأة ومع هذه الجاذبية استعملت كل مواهبي حتى أشد إليّ السيدة زوجة السفير، ولكني فشلت وقد كانت متنبهة إلى محاولاتي وكانت تقابلها بابتسامة هادئة صامتة تثير الاحترام لا التشجيع .

وأخيرًا خرجت من حيرتي إلى الاقتناع بأنها سيدة محترمة سيدة كاملة وأن سكوتها على ما يجرى في بيتها هو استسلام لحكم الوظيفة كزوجة سفير، كما وأن سكوتها على تصرفات زوجها هو استسلام لعقد الزواج الذي ارتبط به أهلها وقد استطاعت بهدوئها واستسلامها للواقع أن تكتسب صداقة كل هؤلاء النساء المحترفات ونصف المحترفات والهواة صداقة قائمة على مجرد الاحترام وكانت عندما يقام حفل في السفارة تتعمد تجاهل نشاط وتحركات هؤلاء النساء، ثم عندما تقدر أن الحفل وصل إلى مرحلة يتغلب فيها تأثير الخمر تنسحب إلى الداخل في هدوء، وتصحو في اليوم التالي دون أن تسأل أحدًا أو تحاسب أحدًا عما تم وأصبحت هي الشخصية الوحيدة التي أحترمها فعلًا داخل السفارة بل ربما في البلد كله الذي أقيم فيه أصبحت صديقتي النظيفة أختي وكانت هي وحدها التي تعلم علاقتي مع بهاناي

وصدقني عندما أقول لك أنه رغم كل هذا الذي يحيط بي وأعيشه لم تكن لي أي علاقة خاصة مع أي امرأة، حتى ولا علاقة ليلة واحدة ربما لأني أغار على جسدي وأبخل به تكملة لغروري بنفسي وكأن هذا الجسد شيء غال لا يبتذل إلى أن قابلت بهاناي إنها امرأة من تايلاند فيها الجمال الأسمر البوذي الذي تشتهر به بنات جنوب شرق آسيا الشعر الأسود الناعم الذي ينساب في غزارة كشلال الليل والقوام الممشوق الصغير كأنه تحفة صاغها فنان ليعلقها على صدره والأسنان البيضاء الناصعة التي تشرق مع ابتسامتها كأنها تضيء لك الطريق إليها وبهاناي من عائلة كبيرة معروفة في تايلاند، وأمها تمتلك أكبر محل أزياء هناك، وأبوها يملك مصانع للغزل، وقد سافرت بهاناي إلى أمريكا لتتعلم إدارة الأعمال في جامعة بوسطن، ولكنها كانت تقاوم منذ صغرها إلحاح الفن عليها. إنها فنانة. تغني وتعزف على البيانو وهي تقاوم هذا الفن حتى

تستمر في الطريق الذي نجح فيه أبوها وأمها طريق إدارة المصانع وبيوت الأزياء ووصل من مقاومتها لفنها أنها وهي في الجامعة، في أمريكا، تزوجت زميلًا لها من نفس بلدها وأنجبت منه ولدين، حتى تجذبها المسئوليات العائلية بعيدًا عن فنها وتربطها أكثر بواقعها ولكنها عجزت عن الاستمرار

وقبل أن تحصل على الشهادة الجامعية في إدارة الأعمال قررت فجأة التوقف عن هذه الدراسة وبدأت في دراسة الموسيقى فنها ثم قررت أن تحترف الغناء والموسيقى، ورفض زوجها فتركته إنه لا يساوي شيئًا بجانب إحساسها بفنها وولداها تركتهما في بيت العائلة وهي تجوب عواصم جنوب شرق آسيا وتغني، وقد قابلتها وهي تغني في صالة صغيرة في أحد الفنادق الكبرى وشدتني إليها شعرها وابتسامتها التي تشرق في لونها الأسمر ورغم ذلك فعندما بدأت أتحدث إليها كانت لا تزال تغلبني مسئوليتي عن العلاقات العامة في السفارة فدعوتها إلى حفل خاص كنت قد قررت إقامته لضيف كبير ممتاز .

وقالت بهاناي من خلال ابتسامتها

- هل يفهم الضيف هذا النوع من الغناء الذي أغنيه؟

وتعجبت للسؤال وقلت في وقاحة

- لا أعتقد ولكن لا يهم الغناء يكفيه أنك جميلة ومن هذا النوع من النساء !!

وقالت بهاناي ضاحكة

- إذن تستطيع أن تدعو صديقتي دانولي فهي تصلح أكثر لهذه الدعوات إني حتى لو اعتبرتني جميلة فأنا مملة عندما أكون مع من لا يفهمني

والشيء الجديد الذي طرأ عليّ أني لم أحاول استعمال مواهبي لإقناعها بقبول الدعوة واكتفيت بأن دعوت صديقتها فعلًا، وبدأت من يومها أتردد كل ليلة على الصالة التي تغني فيها وأحاول أن أفهمها وفهمتها وفهمتني وارتبطنا بعلاقة لا أريد أن أقول إنها علاقة حب ولكنها علاقة راحة كل منا يرتاح إلى الآخر ويتمتع بصحبته، بكل ما تطلبه المتعة وأكثر ما يريح هو الفهم المتبادل ولم تكن بهاناي امرأة شريفة بالمعنى المفهوم للشرف في بلادنا إن الجنس في جنوب شرق آسيا ليس موضوعًا يستحق كل هذا الاهتمام، وليس علاقة تفرق بين الشريف وغير الشريف، وقد تكون بهاناي تعطي نفسها لرجال آخرين مع ارتباطها بي هذا لا يهم ولكن المهم أنها امرأة غالية ليست محتاجة إنها قد يغريها بالعطاء الثمن الكبير جدًّا، أو الصدفة التي لا تستطيع أن تقاومها وقد عرف أعضاء

السفارة، علاقتي ببهاناي ولكني لم أكن أسمح لأحد بأن يحدثني عنها إلّا لصديقتي زوجة السفير، وكانت هي التي تختار لي الهدايا التي أهديها لبهاناي وقال لي السفير يومًا

- ألن تدعو المرأة التي تعرفها في إحدى جلساتنا؟

وقلت في برود

- إنها مملة لا تصلح لأي جلسة

قال وهو ينظر إليّ في غيظ

- لعلك تغار عليها

قلت ضاحكًا

- الغيرة غير معروفة في هذه البلاد المرأة هنا لا تستحق الغيرة

وأنهى السفير الموضوع ربما لأنه راعى ألَّا ندخل في نقاش قد يفسد علاقتنا خصوصًا بعد أن أصبحت أنا الأقوى، واكتفى بأن ذهب معي مرة ليستمع إلى غناء بهاناي، ولم يعلق بشيء، لم يبد إعجابًا حتى بجمالها وطبعًا لم يتأثر بشيء من غنائها إلى أن حدث وجاءنا ضيف كبير مهم

وتعبت في وضع كل مواهبي في خدمته قدمت له نساء أكثر من عائلة محترمة في أكثر من حفل خاص لا شيء وتجرأت ودعوته إلى البيوت الخاصة، وقبل الدعوة ولكن لا شيء وخيل إليّ أنه قد يكون لا يزال محتفظًا برعونة الشباب فدعوته إلى حمامات التدليك، وقبل الدعوة أيضًا وأبدى دهشته وانبهاره بما يراه ولكن لا شيء وانتهيت إلى الاعتقاد بأنه لا يريد أكثر من هذه المجتمعات والمشاهدات البريئة فاسترحت من محاولة إرضائه وتكريمه

وكان الضيف المهم يقيم في نفس الفندق الكبير الذي تغني فيه بهاناي، وفي الليلة الأخيرة قبل سفره كان الضيف ومعه السفير عائدين إلى الفندق وأنا معهما واقترح عليه السفير أن يدخل به إلى الصالة الصغيرة التي تغني فيها بهاناي، وقبل الضيف المهم، وما كادت عيناه تقعان على بهاناي وهي تغني حتى استقرتا عليها لا يحولهما عنها لا يريد أن ينظر إلى أي شيء آخر من حوله وإذا تحدث إليه السفير استمع إليه دون أن يحول نظره عن بهاناي وحاولت أن أبدأ أسرد عليه مجموعة من النكات لعل الضحك يشده بعيدًا عن بهاناي، ولكنه

لا يضحك، وإذا ضحك لا يحول عينيه ثم قال وهو يجفف لعابه من فوق شفتيه بلسانه كأنه انقلب إلى وحش جائع

- هذه المرأة حلوة

وقال السفير ضاحكًا

- اتفضل سيادتك بالهنا والشفا

وقال الضيف من فوق لسانه المدلى

- هل يمكن؟ !

وقال السفير

- طبعًا يمكن

ثم نظر إليّ وقال كأنه يصدر أمرًا سلطانيًّا

- ادعها إلى المائدة

قلت كأني أتوسل إليه

- إنها مملة وسيقرف منها سيادته .

وقال السفير كأنه يصرخ

- ادعها لا تكن مجنونًا !

وقلت في استسلام

- حاضر. بعد أن تنتهي من الغناء

وناديت المشرف على الصالة وهمست في أذنه. أن يذهب إلى بهاناي ويطلب منها ألّا تكف عن الغناء، ولم تكف فعلًا عن الغناء، ولكن السفير بدأ يتصرف بالطريقة الساذجة المعروفة التي يتبعها أثرياء العرب في الكباريهات فأمر بإرسال صندوق من زجاجات الشمبانيا إلى أعضاء الفرقة الموسيقية ثم قام وأخرج من جيبه ورقة نقدية تساوي ما قيمته مائة جنيه وحاول أن يلصقها على صدر بهاناي وعندما تراجعت عنه وهي تضحك أخرج ولاعته وأحرق الورقة

النقدية تحية لها ثم أمر بإرسال أقفاص الورد لتوضع حولها، وكل من في الصالة أصبح يتفرج علينا لا على بهاناي، وانطلق حولنا كثير من الضحك والتصفيق لحركات السفير، فأمر بدعوة كل من في الصالة على حسابه كل ذلك وأنا حائر ماذا أفعل؟!، ثم قمت بسرعة وطلبت من الجرسون أن يدعو دانولي صديقة بهاناي إلى المائدة لعلها تستطيع أن تجذب اهتمام الضيف الكبير وتنقذ بهاناي من هذا الاهتمام ولكن دانولي لم تكن في الصالة واستطاع الجرسون أن يجدها في مكان آخر وجاءت إلينا بينما بهاناي لا تزال تغني وقد بدا عليها التعب من طول ما تغني وقلت للضيف الكبير وأنا أقدم له دانولي

- هذه ملكة جمال الدولة وقد جاءت خصيصًا عندما علمت أن سيادتك هنا

ولم يحول الضيف عينيه عن بهاناي وقال السفير ساخطًا

- إننا لا نريد هذه

قلت في يأس

- إنها فقط تؤنسنا إلى أن تنتهي بهاناي من الغناء

واضطرت بهاناي أن تنتهي، على الأقل لتستريح، واضطرت إلى أن تجيء على مائدتنا بعد كل هذا السخاء المجنون الذي أحاطها به السفير، ونظرت إليّ كأنها تسألني ماذا تفعل، وأدرت عنها ناظري بسرعة حتى لا يتهمني السفير بشيء أو يلحظ الضيف الكبير شيئًا ولم يكن هناك حديث يمكن أن يتم بين بهاناي والضيف الكبير فهو لا يعرف أي لغة يمكن أن يتحدث بها إليها، وتولى الحديث كله السفير، وقال لها إن الضيف الكبير يهمه أن يختلي بها لأمر هام وضحك

وقالت بهاناي وهي تبتسم

- هذا يشرفني ولكن الساعة الآن الثالثة صباحًا ويجب أن أجتمع مع أفراد الأوركسترا لمراجعة الأغاني الجديدة لنجعل لقاءنا غدًا

وقال السفير وهو يبدو كمفاوض مبتدئ

- إنه يسافر غدًا تعالي وأفراد الفرقة يمكن أن ينتظروك وسنعوضك ونعوضهم بما تريدين

ثم قام واقفًا وشد بهاناي من يدها، واستسلمت له كعادة أفراد هذا الشعب، وحتى لا تثير أي مشكلة مع ضيف كبير من نزلاء الفندق. وقال السفير للضيف

الكبير

- اتفضل سيادتك

ثم صحبها والضيف بجانبهما وأنا أتبعهم سائرًا خلفهم في صمت ضعيف كأني قد انهرت وانتهيت إلى أن وصلنا إلى المصعد ودخل الضيف، ودفع السفير بهاناي إلى جانبه. وقال ضاحكًا

- الدور التاسع لا تنس سيادتك غرفتك في الدور التاسع

ووقفت أنا والسفير وبهاناي تبتسم لي من بعيد ابتسامة ضعيفة كأنها تشفق بها عليّ، وباب المصعد يغلق في وجهينا - أنا والسفير - ويرتفع بالضيف ومعه بهاناي .

ونظر إليّ السفير في شماته كأنه انتصر عليّ وسار خارجًا من الفندق وركب سياردته دون أن يدعوني كعادته للركوب معه

ولم أنم ليلتها، لا لأني كنت أعاني أمرًا عاطفيًّا من أجل بهاناي قلت لك إنه لم يكن ما بيني وبينها حب ولكني كنت أعاني الإحساس بأني فقدت مركزي فقدت سيطرتي على مثل هذه المواقف التي تدخل في صميم اختصاصي لست أنا الذي حقق رغبات الضيف الكبير لست أنا الذي حمل بهاناي إليه إنه السفير كأن السفير طردني من وظيفتي واستولى على اختصاصي لنفسه معنى هذا أني خيبة أني فاشل لا أستطيع أن أقدر وأتصرف وفقًا لتقدير صحيح والواقع أني أخطأت في تقدير موقف بهاناي، فقد كنت أعتقد أنها سترفض دعوة الضيف الكبير فقد سبق أن رفضت كل الدعوات التي وجهتها إليها لحضور حفلات السفارة، أو لحضور الجلسات الخاصة، بل رفضت حتى زيارة زوجة السفير وصحيح أني كنت أستسلم ببساطة لهذا الرفض مفضلاً أن أحتفظ بها لاستعمالي الخاص، ولكني لم أكن أعتقد أنها يمكن أن تستجيب لإلحاح أو محاولة أحد غيري وقد استجابت لإلحاح السفير أي أني في الواقع لم أكن أحاول أن أحرم الضيف من بهاناي ولكني كنت أحاول أن أحميه من رفضها ولكن أنا غبي ولأني غبي انتصر تقدير السفير للموقف على تقديري

إلى أن كان الصباح

وعندما وصلت إلى السفارة أحسست بجو غريب من التوتر، وعرفت أن السفير وزع سخطه ولعناته على كل الموظفين منذ وصل، وعندما دخلت إليه في مكتبه وجدته واقفًا يستعد للخروج، ولم يمد يده لمصافحتي، بل لم يرد

على تحيتي، واتجه مباشرة إلى الباب، وكنت أعلم أنه في طريقه إلى الفندق الذي يقيم فيه الضيف الكبير، فقلت له

- هل ألحق بك؟

وقال كأنه يصرخ في وجهي

- لا انتظر هنا إلى أن أدعوك إلى هناك

وأسرع خارجًا كأنه يرفض أن يناقشني، وانتظرت طويلًا وأنا حائر فيما يمكن أن يكون قد حدث، ثم لم أعد أحتمل الانتظار وذهبت لألتقي بالضيف الكبير وكان في الجناح المخصص له مجتمعًا مع السفير، ودخلت إليهما بلا استئذان فإن مركزي يعفيني من الاستئذان، وبمجرد أن دخلت رفع إليّ الضيف عينيه كأنه دهش لوقاحتي، وقال بسرعة

- من فضلك انتظرنا في الخارج

وانتظرت ولم يدعني أحد للدخول إلى أن خرج الضيف ومعه السفير في طريقهما إلى المطار دون أن يلتفت أحد منهما إليّ ركبت سيارتي وليس معي إلّا سكرتيري الخاص جالسًا بجانب السائق وذهبت إلى المطار وعندما اصطففنا بجانب الطائرة مع المودعين الرسميين ومع بقية أعضاء السفارة ليمر بنا الضيف ويصافحنا قبل ركوبه، لمس يدي الممدودة لمسة سريعة دون أن ينظر في وجهي

وسافر الضيف الكبير عائدًا إلى بلدنا

وعرفت بعدها كل شيء !

لقد هربت بهاناي من الضيف قبل أن يدخل بها إلى جناحه الخاص

وقد استقبلت الخبر بفرحة فرحة استعادت ثقتي بنفسي، وثقتي في بهاناي إن تقديري لم يكن خاطئًا، وبهاناي لم تتخل عني ولكن هذه الفرحة طارت بسرعة وحل محلها الخوف الخوف على مستقبلي كله. ترى ماذا قال السفير للضيف الكبير حتى يبرر له ما حدث؟! وقد أسرعت أولًا إلى بهاناي أسألها، فضحكت ضحكة كبيرة وقالت كأنها تروي نكتة

لقد تركته يضغط على مفتاح الدور التاسع من مفاتيح المصعد ثم غافلته في نفس اللحظة وضغطت على مفتاح الدور الخامس وعندما وقف المصعد حادثته باللغة التايلاندية وأنا أخرج وبقيتِ أحادثه وأنا واقفة أمامه خارج المصعد

وأنا واثقة أنه لا يفهم كلمة واحدة مما أقول إلى أن انغلق باب المصعد وصعد به وحده إلى جناحه في الدور التاسع ولم أنزل أنا في المصعد الآخر ولا على السلم العمومي خوفًا من ألتقي بك أو السفير في بهو الفندق ولكني نزلت من سلم الحريق

قلت

- أنت مجنونة !

قالت

- إني لم أوافق أصلًا على الذهاب معه ولكن سفيركم هو الذي دفعني دفعًا إلى المصعد ثم ماذا يهم؟! إن ما يريده مني يستطيع أن يناله من أي امرأة. لم أشعر أني حرمته من شيء مهم هل تعرف ماذا كنت أقول له باللغة التي لا يفهمها؟! لم أكن أسبه أو أهينه أو أجرحه كنت أقول له إني آسفة لأني متعبة وإننا نستطيع أن نلتقي في موعد آخر وإني أعتز بإعجابه بي كنت أقول له مثل هذه الكلام و

وقاطعتها

- الكلام الذي لا يفهمه إنك لا تقدرين ماذا يمكن أن يحدث لي لو أطلق مثل هذا الرجل غضبه عليّ

وقامت وجلست فوق ساقي وأسقطت صدرها على صدري وقالت وشفتاها تقتربان من شفتي

- لا تهتم أنا المسئولة عن كل ما يحدث

وقد احترت فعلًا كيف أتصرف، فقدعرفت أن السفير أبلغ الضيف الكبير أني أعتبر هذه المرأة - بهاناي - ملكًا خاصًّا لي، وأني أرفض حتى دعوتها لإحياء الحفلات الرسمية في السفارة لمجرد إلقاء أغانيها، وأنه - أي السفير - واثق أني أنا الذي حرضتها على أن تهرب منه

وكان معنى هذا أن أنتظر طردي من السلك الدبلوماسي أو على الأقل نقلي إلى بلد مقطوع الصلات من بلدان أفريقيا مثلًا، وقد تصب عليّ لعنة أكبر من ذلك .

وفكرت أن أكتب تقريرًا خاصًّا أرسله إلى الشخصية الهامة التي عجزت عن أوفيها حقها من تقاليد السلك الدبلوماسي .

وفكرت أن أعود بنفسي إلى بلدي وأحاول أن ألتقي به وأشرح له كل الظروف التي أحاطت بالموقف وأثبت عدم تقصيري في ممارسة العلاقات العامة أو تدخلي أي تدخل مضاد

إلى أن استشرت صديقتي زوجة السفير التي أحترمها وأعتز برضائها عني فقالت لي في بساطة

- ارسلها إليه

قلت

- كيف؟

قالت وهي تنظر إليّ كأني طفل صغير لم يتعلم بعد

- لا أدري كيف ولكن اقنعها بأن تذهب إلى بلدنا وحاول أن تجد وسيلة تقنع بها صاحبنا بأنها جاءت خصيصًا للقائه بعد أن وقعت في غرامه

وبهرت بالفكرة، وقبلت يد السيدة المحترمة شكرًا وامتنانًا، وأسرعت أجري إلى بهاناي، وقلت لها وكأني ألهث من ضغط حيرتي وخوفي

- لقد قلت لي إنك المسئولة وإني مهدد بالطرد من وظيفتي بسببك

قالت من خلال ابتسامتها

- ماذا يهم؟! إن وظيفتك تحيطك بقيود ثقيلة الدم ابحث عن عمل آخر

إنها لا تعلم أن وظيفتي ليست مجرد منصبي في السلك الدبلوماسي، إن هذه الوظيفة هي التي أحقق عن طريقها كل الصفقات الأخرى التي أصبحت بها واحدًا من كبار الأثرياء وهي لا تعلم أن طردي معناه أني أصبحت مبعدًا عن أصحاب الحكم والمبعدون في بلادنا لا يستطيعون الحياة إلّا اعتمادًا على أموالهم المهربة، فإذا لم تكن لهم أموال مهربة عاشوا على الاستجداء إن المبعد في بلادنا معناه أنه وصل إلى قيمة الصفر، حتى أني أحيانًا تغلبني هوايتي للفلسفة الاجتماعية وأفكر في أن أطالب الدولة بافتتاح ملجأ للمبعدين كملاجئ الأيتام !

وقد قلت كل ذلك لبهاناي حتى أقنعها بأن كل حياتي أصبحت في خطر إلى أن اقتنعت قائلة

- ماذا تريدني أن أفعل؟ !

قلت في حماس

- تسافرين إلى بلدي وتلتقين به هناك

قالت في تردد

- ولكن إن

وقاطعتها

- سندفع لك ضعف قيمة دخلك الذي تحصلين عليه من هنا ليس فقط قيمة مرتبك في إدارة الفندق ولكن قيمة دخلك من المعجبين وهناك في بلادنا إذا نجحت في الوصول إلى صاحبنا فثقي أنك ستعودين مليونيرة .

ووافقت بهاناي، وأقنعت نفسي أنها وافقت لا طمعًا فيما وعدتها به ولكن حبًّا في شخصي الضعيف وبدأت أضع معها تفاصيل الخطة إنها سترسل خطابًا إلى الشخصية الهامة الكبيرة - ولاحظ أني أتعمد عدم ذكر لقبها حتى لا أفضح نفسي - تعتذر له فيه عما حدث، وتضمنه كلمات الإعجاب والتأثر بشخصه، وتقول إنها حتى تؤكد اعتذارها فقد قررت أن تزوره في بلده ولا يهم بعد ذلك أن تنتظر ردًّا يكفي أن تنتظر مدة كافية حتى تطمئن إلى وصول الخطاب وبعدها تسافر، ويكون سكرتيري الخاص قد سافر قبلها ليمهد لوصولها ويدرس الموقف ويتصل بي لنحدد هل تسافر بهاناي وتقدم نفسها كفنانة أجنبية وتتفق على إحياء بضع حفلات في الفندق الكبير هناك، أم تصل كمجرد سائحة دون أن ينتبه أحد إلى وصولها بحيث يبقى اتصالها بالشخصية الكبيرة سرًّا ثم بعد أن تقرر كل ذلك وبعد أن تنجح في لقاء صاحبنا فقد اتفقت معها على تفاصيل الكلام الذي يجب أن تقوله له يجب أن تؤكد له أنها لم تأت إلَّا عن طريقي طريقي أنا أنا الذي أعددت كل شيء. أما السفير فهي ترفض دائمًا الاتصال به لأنه حاول معها كثيرًا وكانت تصده وكلام كثير قدرت أنه يخدمني ويبعد عني شر السفير

وسافرت بهاناي فعلًا إلى بلدي

سافرت دون أن يعلم السفير وأعطيتها «الفيزا» دون إذنه ودون أن يعلم بهذه الفيزا أي واحد من السفارة

هل تعلم كم كلفتنا عملية سفر أو تسفير بهاناي، كلفتنا حول ستين ألف دولار لا يهم وأني أعلم أنها لو نجحت في مهمتها مع صاحبنا فستحصل منه - أي من أموال الدولة - على أكثر من ذلك بكثير

المهم أني كنت أعيش منذ سفرها في انتظار الأخبار

أعيش كأني في انتظار كلمة القدر !

وعلاقتي مع السفير تتوتر يومًا بعد يوم، ولولا أنه واحد ممن أحتفظ بهم في بئر الأسرار لما حاول أن يراعي معي حتى مجرد مظاهر التقاليد الرسمية التي تجمع بين السفير والوزير المفوض إنه أيضًا في انتظار أخبار أخبار نقلي أو إحالتي إلى ملجأ المبعدين

إني في عذاب

عذاب الانتظار لنتائج أدق خطة دبلوماسية وضعتها في حياتي !

(2)

يا عزيزي الأستاذ

لا أريد أن أطيل عليك فعندي ما هو أهم أو ما هو أمتع لأقوله لك، وقد نجحت الخطة التي وضعتها مع بهاناي، واعتبرتها من أروع خطط العلاقات العامة التي حققتها وقد التقت بهاناي هناك - في بلدي بصاحب الشخصية الرسمية الكبيرة الهامة وأعطته كل ما أراد، وأعطاها أكثر مما أرادت ومما كانت تحلم به، واستطاعت أن تبدد كل شكوكه التي ثارت حولي، وأن تمحو الصورة التي رسمها لي السفير، وعاد سكرتيري الخاص وروى لي كل التفاصيل التي كانت تبلغها له بهاناي أولًا بأول، وأصبحت مطمئنًّا إلى مستقبلي ومطمئنًا إلى أن الشخصية الكبيرة قد عادت وهدأت داخل بئر الأسرار التي أمتلكها أما بهاناي نفسها فإنها لم تعد سافرت إلى أوربا بعد أن انتهت زيارتها لبلدي، وقطعت اتصالاتها بي لم أعد أعرف عنها شيئًا ولا أهتم بأن أعرف شيئًا

وكانت علاقتي بالسفير مستمرة في توترها إلى أن بدأ ييأس من صدور قرار بنقلي من السفارة أو بإحالتي إلى ملجأ المبعدين، فبدأ يلين معي ويعود إلى

تعمد إزالة الكلفة بيننا وربما كان قد سمع عن سفر بهاناي إلى البلد ولقائها بالشخصية الكبيرة وقدر أن دائمًا أقوى منه وأذكى منه في التخطيط الدبلوماسي، فلم يحاول أن يسألني أو يناقشني أو يحاسبني على إعطاء «فيزا» للدخول دون علمه أو علم أحد من موظفي السفارة، حتى لا يثير بيني وبينه أزمة جديدة، وعاد إليّ أضعف مما كان، وكنت أشفق عليه لأني كنت واثقًا أني أنا الذي أستطيع أن أنقله أو أحيله إلى ملجأ المبعدين فإني أملك أسراره وأسرار الذين يملكون حق الإطاحة بأي موظف في البلد أنا صاحب بئر الأسرار ولم يعف السفير من غضبي إلّا تقديري واحترامي للسيدة زوجته لولاها لأطحت به !

ولكن

صدقني أني بدأت في هذه الأيام أزهق وأقرف من نفسي ومن كل ما يحيط بي أزهق وأقرف من عملي بدأ إحساسي بأنه عمل قذر يؤرقني ويعذبني ومع اعتبار أنه عمل وطني، إلّا أن كثيرًا من الأعمال الوطنية تفرض الالتجاء إلى القذارة كالجاسوسية مثلًا إن التجسس سواء في المجال الخارجي أو المجال الداخلي لا شك أنه يعتبر عملًا وطنيًّا رئيسيًّا ولكنه لا شك أيضًا أنه عمل يعتمد على عمليات قذرة، وأخطر ما يهدد الجاسوس في عمله وفي مصيره هو إحساسه بأنه يقوم بعمل قذر إن الجاسوس الناجح القوي هو الذي لا يتأثر بأي إحساس بالقذارة، بل يؤدي أقذر مهمة وهو مليء بالإحساس بأنه يؤدي مهمة وطنية، كالمقاتل الذي لا يحس بأنه يقتل بل يحس بأنه يؤدي خدمة لبلده كذلك مهمة العلاقات العامة خصوصًا الجانب النسائي منها، لا شك أنها عمليات وطنية كما سبق أن شرحت لك، رغم كل ما فيها من قذارة، المهم ألّا تحس بهذه القذارة، ولكني بدأت أحس بها بدأت أفقد متعة الاهتمام بالعمليات التي أقوم بها، وبدأت أهرب من كثير من هذه العمليات، وأدعي المرض حتى لا أشترك في استقبال كبار الوافدين من بلدنا

وبدأت أتمنى الراحة الراحة النفسية والراحة الذهنية أريد أن أحاول تحقيق حلمي القديم عندما كنت لا أزال طالبًا في الجامعة عندكم، وهو أن أستمر في دراسة الفلسفة إلى أن أحصل على الدكتوراه وأصدر عدة كتب، لا تزال تنقصنا تشمل فلسفة المجتمع العربي على الأقل أريد أن أرفع نفسي عن مستوى القذارة ولم يكن سهلًا إن الحياة التي تعودتها استولت عليّ، والنجاح الذي حققته وما جمعته من ورائه من أموال أصبح أقوى مني إن الإنسان الناجح لا يشبع أبدًا من النجاح، ولا يكتفي أبدًا بثرائه ليس هناك حد أعلى للنجاح ولا للثراء، ولذلك لم أستطع أن أتخذ قرارًا بتغيير شخصيتي الرسمية والبحث عن شخصية جديدة وعمل جديد بعيدًا عن القذارة والقرف، كل ما استطعته هو أن أمنح نفسي إجازة، وحتى هذا لم يكن سهلًا، فخلال السنوات

الخمس منذ التحقت بالعمل الدبلوماسي لم أمنح نفسي إجازة بل إني كنت أتنازل عن الإجازات الرسمية !

وقررت أن أقضي الإجازة في اليابان أقرب بلد إلى مركز عملي وكنت قد ذهبت إلى اليابان قبل ذلك عدة مرات في عمليات سريعة خاطفة، ولكني أذهب هذه المرة في إجازة

وقررت أن أخفي وجودي في طوكيو عن كل أصدقائي من رجال السفارات العربية أريد أن أكون وحدي بعيدًا عن جو الرسميات وبعيدًا عن كل ما يذكرني بعملي، وقضيت الأيام الأولى وأنا أطوف بالمكتبات وأجمع الكتب التي أرى أنها يمكن أن تساعدني على استعادة اهتمامي بدراسة الفلسفة، ثم أتعمد أن أقضي الليل وأنا أحاول أن أقرأ وصدقني لم أعد أستطيع القراءة ليس فقط لأن لغتي الإنجليزية ازدادت ضعفًا، ولكن لأني فقدت التعود على القراءة فقدت قدرتي على تركيز عقلي فيما أقرأ ورغم ذلك فقد كنت أفرض على نفسي القراءة كأن في داخلي طفلًا صغيرًا يشده أبوه إلى المدرسة غصبًا عنه وكنت خلال النهار أتردد أحيانًا على دكان داخل الفندق الكبير الذي أقيم فيه مخصص لبيع آلات التصوير والأفلام كان من بين ما أحاوله بجانب القراءة هو محاولة اكتساب هواية التصوير وعرفني صاحب الدكان وعرفته من طول الوقت الذي كنت أقضيه معه وهو يطلعني على آخر الآلات وآخر تطورات فن التصوير

وكنت يومًا في دكان الصور الفوتوغرافية

ودخلت فتاة رائعة ليست يابانية وقدرت فورًا من لهجة حديثها أنها أمريكية لم تكن مجرد فتاة جميلة، ولكن كان فيها نوع من جمال الترفع والتعالي نظرات عينيها تحيط بكل ما حولها في ثقة وغرور كأنها موكب رسمي يتقدمها وأصابع يديها رفيعة طويلة تحمل بينها خاتمًا ماسيًّا لا يقل حجمه عن ثلاثة قراريط تحركها كأنها تعزف بها على رؤوس كل الذين يقفون أمامها اللحن الذي تريده وكان معها فتاة أخرى جميلة أيضًا وتسير خلفها وقدرت أنها لا شك سكرتيرتها أو وصيفتها

وتحدثت الفتاة الأمريكية الرائعة إلى صاحب الدكان في لهجة آمرة رغم نعومتها، وكانت تلومه على آلة سبق أن باعها لها، وقالت في بساطة كأن من حقها أن تهين شعب اليابان كله

- إنكم هنا تنقلون كل جديد يظهر في أي مكان من العالم، ولكن عيبكم أنكم تنتظرون أكثر من أسبوع حتى تصلوا إلى الجديد الذي يظهر بعده في حين أن ما بعده يظهر بعد يوم واحد

وقال صاحب الدكان في احترام كبير وهو ينحني برأسه وظهره عدة مرات على الطريقة اليابانية

- هذه آخر آلة وصلتنا وصلتنا أمس

وبسرعة كان ذكائي كله قد تجمع وتركز حول هذا الجمال المتعالي، فتدخلت وقلت وأنا أشير إلى الآلة التي أحملها وكان يعرضها عليّ منذ دقائق

- ولكنك قلت لي إن هذه الآلة وصلت اليوم لا أمس

ثم التفت إلى الفتاة الرائعة قائلًا وأنا أقدم لها آلتي

- أعتقد أنها تختلف

ونظرت إليّ نظرة سريعة أحسست أنها طوقتني بها كلي كأنها التقطت كل مقاساتي، ثم مدت يدها وأخذت مني الآلة وبدأت تفحصها كأنها عالمة متخصصة في علم التصوير، ثم قالت

- فعلاً إن فيها شيئًا جديدًا مختلفًا

واستمر بيننا الحديث أنا وهي وصاحب الدكان، بينما الفتاة الأخرى صامتة لا تتكلم كأنها في انتظار أوامر سيدتها وفي خلال الحديث قال لها صاحب الدكان مشيرًا إليّ

- إنه عربي

وتفتحت عيناها في ومضة سريعة واتسعت ابتسامتها قليلًا وقالت

- هل صحيح أنت عربي؟

قلت ضاحكًا

- نعم ولكني من بلد ليس فيه بترول

قالت من خلال ابتسامتها كأنها لا تصدقني

- هل هناك بلد عربي لا يملك البترول؟ !

قلت

- كثير

ولا أدري ما الذي دفع ذكائي إلى الكذب عليها، ربما لأني كنت أريد أن أقنعها بأني أرقى من أبناء دول البترول العربي، أو أني أردت أن أقدم لها نفسي على أني أعتمد على ثقافتي وعملي لا على دخلي من البترول، أو ربما أردت أن أختبرها لأكتشف ما إذا كانت إحدى النساء اللاتي يندفعن وراء إغراء رجال البترول، أقصد، فلوس البترول، أم أنها ليست من هذا النوع امرأة شبعانة ومن يدري ربما كانت هي نفسها ابنة أحد أصحاب شركات إنتاج البترول

وقلت متوددًا

- ألم تذهبي إلى إحدى الدول العربية؟

قالت

- لا

قلت

- يشرفني أن أدعوك .

قالت ضاحكة وهي تهم بمغادرة الدكان

- إنها دعوة تحتاج إلى تفكير طويل

قلت

- هل أستطيع أن ألقاك حتى أساعدك على التفكير؟

ونظرت إليّ نظرة احترت فيها، هل هي نظرة فرحة أم نظرة ساخرة؟!، وقالت

- إنك تقيم في نفس الفندق أليس كذلك ما هو رقم غرفتك لأتصل بك .

وأعطيتها رقم الغرفة، وتركتني بعد أن لفتني بابتسامتها وأحسست فعلًا أني ملفوف في هذه الابتسامة حتى خيالي لفته معها، وبدأت أتخيل بها كل مستقبلي إنها لا شك ابنة عائلة أمريكية غنية إنها مليونيرة أو ابنة مليونير وهي فرصة لأفتح لنفسي مجتمعًا جديدًا ومستقبلًا جديدًا قد أتزوجها لماذا لا أتزوج؟! إن هذا النوع من النساء الذي كنت أتعامل معه كان ينفرني من التفكير في

الزواج، كان يدفعني إلى تصور أن كل نساء الأرض من هذا النوع، ولكن هذه الفتاة لا يمكن أن تكون من هذا النوع وحتى لو كان لها ماض فلا يمكن أن تكون محترفة، والنساء في المجتمعات المتقدمة لا يحاسبهن أحد على الماضي ولكنهن يحاسبن على المستقبل فلنفرض أن لها ماضيًا لا يهم أتزوجها وبعد أن أتزوجها يصبح من حقي بحكم القانون الأمريكي أن أحصل على الجنسية الأمريكية أي أني لا أتزوج هذه وحدها ولكني أتزوج أمريكا كلها وأحسست بفرحة تملأ صدري كله وأنا أتخيل نفسي وقد أصبحت أمريكيًّا، وربما تلومني على هذه الفرحة لأني أعلم أنك متزمت في وطنيتك، ولكن التجنس لم يعد له اليوم علاقة بالوطنية، أصبح أشبه بعقد عمل تعطيك الدولة التي تحمل جنسيتها كذا نظير أن تدفع لها كذا، وتستطيع في الوقت نفسه أن تحتفظ لوطنك الأصلي بكل عواطفك وأن تتبرع له بكل ما تريد التبرع به حتى لو تبرعت له بروحك في قتال هذا هو الآن واقع الإنسانية الدولية

وكل هذا الفكر يسيطر على خواطري وأنا جالس في غرفتي بالفندق في انتظار دقات جرس التليفون لأسمع صوتها. لا أستطيع القراءة طبعًا ولا أستطيع أن أشغل فكري بأي شيء آخر إن كل فكري مركز في مشروعي الجديد والساعة وصلت التاسعة مساء وجرس التليفون لم يدق وبدأت ثقتي في نفسي تهتز ثقتي في وسامتي وقوة الجذب التي يفرضها دائمًا وجودي ربما كانت هذه الفتاة أقوى من قوة جذبي لا يمكن أن تطلبني بعد الساعة التاسعة فات الوقت الذي يمكن أن نتفق فيه على لقاء سهرة وخرجت من غرفتي وذهبت إلى «بار» الفندق وأنا أتلفت حولي في كل خطوة أبحث عنها وكأنه يمكن أن تجمعنا المصادفة مرة ثانية ووجدت نفسي أستسلم لكؤوس الويسكي على غير ما تعودت سكرت وعدت إلى فراشي وألقيت نفسي عليه كأني أصبحت جثة هامدة

وفي اليوم التالي، وبعد أن تغلبت على الصداع الذي تركته في رأسي كؤوس الويسكي، عدت أفكر في هذه الفتاة الأمريكية هل أتصل بها إني أستطيع أن أعرف رقم غرفتها لو أردت ولكن هل أتصل بها لا إن اتصالي بها قد يضعفني أمامها لأنتظر اليوم أيضًا

ونجحت بانتظاري

دق جرس التليفون في الساعة السابعة مساءً وقالت كأننا أصدقاء قدماء

- أنا جوانا أين كنت ليلة أمس اتصلت بك في الساعة العاشرة ولم أجدك

قلت

- انتظرتك حتى التاسعة ثم يئست

قالت

- آسفة تأخرت عليك كنت مشغولة

قلت

- سأراك الليلة أين؟

قالت

- في جناحي الخاص هنا ستجد كل شيء ونستطيع أن نتعرف أسرع

قلت

- موافق وسعيد

قالت

- ولكن هل أمرت السائق بأن يضع سيارتي في الجاراج؟

ولم أفهم شيئًا وقلت في سذاجة

- آسف ماذا تقولين؟

وكررت نفس الكلام

- هل أمرت السائق بأن يضع سيارتي في الجراج .

وعدت أقول

- لا أفهم أي سائق وأي سيارة؟ !

وضحكت ضحكة خافتة وقالت في صوت هادئ

- نسيت أنك غريب وقد لا تفهم هذا التعبير إني أريد أن أقول لك إني سأكلفك كثيرًا

قلت وأنا أحاول أن أنكر ما سمعته

- ماذا تقصدين؟ !

قالت

- الجناح الذي نلتقي فيه له ثمن والطلبات لها ثمن وأنا لي ثمن

وأحسست كأن زلزالًا ثار في داخلي وهدم كل خيالي وكل خواطري وقلت والصدمة تترك في لساني طعم الخيبة والقرف

- آسف وقد سبق أن قلت لك إني رغم أني عربي فإني من دولة ليس فيها بترول لست غنيًّا وقد جئت إلى طوكيو مدعوًّا وأقيم على حساب الدعوة .

وليس في جيبي إلَّا ما يكفي مصروفي الخاص

قالت والأسف يقطر فعلًا من كلماتها

- خسارة لقد أعجبت بك فعلًا منذ رأيتك اسمع إن أقل ما أستطيع أن أقبله هو خمسمائة دولار هل تستطيع؟

وقلت وأنا أكبت غيظي من خيبتي

- أرجوك، دعيني أفكر

قالت في بساطة

- سأنتظر منك تليفونًا حتى الساعة الثامنة وأنا آسفة ويجب أن تقدر أن الحياة مكلفة

وتركتني أقاوم آثار هذا الزلزال الذي أطلقته في صدري ويبدو أن كل نصيبي في الحياة هو هذا النوع من النساء يبدو أن قوة الوجود التي أدعيها لنفسي لا تؤثر إلَّا في هذا النوع، فلم تنجذب إليّ أبدًا فتاة ليست محترفة أو ليست على استعداد للاحتراف ولكني لم أكن أعتقد أن هذا يمكن أن يكون نصيبي حتى مع فتاة أمريكية ألتقي بها في طوكيو والحضارة الأمريكية مسيطرة سيطرة كاملة على اليابان كل الحياة في اليابان تأمركت ولكني لم أكن أعتقد أن الأمريكان استولوا على كل شيء حتى على أسواق الدعارة

وربما كانت جوانا ليست سوى إحدى الفتيات اللاتي يسمونهن في أمريكا «فتيات التليفون» وقد مدت نشاطها ومعاملتها كما تفعل الشركات الأمريكية

حتى وصلت بنفسها إلى اليابان وربما مدت سيطرتها هنا حتى تصل إلى بيوت الجيشا فتؤمركها هي الأخرى

ولكن لماذا أقاوم نصيبي في الحياة؟! لماذا أعود بنفسي إلى أيام الطفولة الاجتماعية عندما كنا نؤمن أن الحياة كلها هي مجموعة من المبادئ العامة الشرف الأمانة الوطنية الحرية و و وأترك هذه المبادئ العامة تشعرني بأني أقوم بأعمال قذرة إن الدعارة ليست أكثر قذارة من القذارة السياسية أو القذارة الاقتصادية التي تعيشها المجتمعات الرسمية والراقية في كل أنحاء العالم المرأة الداعر أنظف وأصرح لأنها لا تكذب على أحد ولا تخدع أحدًا، إنها تمارس الخطيئة وهي متحملة كل مسئولياتها حتى أمام الله، أما السياسي الداعر أو الاقتصادي الداعر فهو يكذب حتى على الله يكذب، ويؤذي وحتى بالنسبة لنفسي ما هو أشرف لي كعمل أتحمل مسئوليته؟! أن أعد ليلة يقضيها أحد المسئولين من ضيوفنا بصحبة امرأة حتى أحميه من امرأة أخرى قد تكون جاسوسة أو عميلة مسلطة عليه أو على بلدي، أم أشترك في عملية اقتصادية أحصل منها على عمولة وأستنزف بها أموال ومصالح شعبي إني في العملية الأولى يسمونني «قوادًا » وفي العملية الثانية اسمي «اقتصادي» أو رجل أعمال أيهما أشرف لي لأكونه قوادًا أم رجل أعمال؟! إذن لماذا أتقزز من جوانا بعد أن اكتشفت أنها تحترف الدعارة؟! لماذا لا أعتبرها مجرد سيدة أعمال وأصطادها لألقي بها طعمًا في بحر الأسرار؟! لقد كنت أريد أن أعتبر نفسي في إجازة لا لست في إجازة .

والثورة على نفسي تستبد بي إلى أن رفعت سماعة التليفون واتصلت بجوانا وقلت في لهجة جادة سريعة كأني أصدر قرارًا خاصًّا بصفقة هامة

- أعددت ما تطلبين متى ألقاك؟

قالت كأنها تزغرد

- رائع أعفيتني من حيرة البحث عن آخر أنتظرك التاسعة

وذهبت إليها

إنها هي حتى بعد أن عرفتها على حقيقتها الجمال الرائع المتعالي المترفع المتعفف وكأن كل ما تحدثنا فيه ليس سوى صفقة تجارية شريفة لا تؤثر في هذا التعالي والتعفف وأصابعها الرفيعة الطويلة تمتد وتتحرك فوق يديها كأنها تعزف بها على رؤوس كل من يقف أمامها اللحن الذي تريده، وكأنها رغم احترافها لا تعزف إلّا اللحن الذي تريده والجناح الذي تقيم فيه هو نفس الجناح الذي يمكن أن يقيم فيه حاكم من الحكام أو أميرة من الأميرات كأنها تتعمد أن

تضع نفسها في نفس المستوى وهي واثقة دائمًا بأنها تستطيع أن تحصل على تكاليف هذا المستوى إنها من نفس نوع نساء العائلات اللاتي سبق أن حدثتك عنهن. نفس مستوى الخطيئة الغالية

وأخرجت من جيبي بمجرد أن جلست مظروفًا يحمل الدولارات وقلت

- حتى أطمئنك

والتقطت المظروف بأطراف أصابعها الطويلة الرفيعة وقالت في تأفف متعال

- شكرًا

ثم ألقت المظروف على مائدة بعيدة

قلت

- أرجو أن تفتحيه وتعدي ما فيه، فقد أعطيت أكثر حتى تعطيني أكثر !

وكنت قد وضعت في المظروف ألف دولار بدلًا من الخمسمائة التي طلبتها، ولكنها لم تفتح المظروف وتركته بعيدًا وقالت وهي تقترب مني وجسدها العاري يبدو من خلف الثوب الشفاف كشعاع من النور

- لا يهم ما تعطيني وما أعطيك الذي يهم هو إحساسك وأنت تعطي إن الفنان يستطيع أن يرسم صورة فتبدو عادية ويرسم نفس الصورة فتبدو رائعة، لأنه رسم الأولى بناء على طلب زبون ورسم الثانية بناء على إلحاح إحساسه كل شيء في الحياة فن والفن إحساس لا يمكن أن تقدر له ثمنًا

واستدارت تعد لي كأس الويسكي، وقلت

- وهل أنا زبون أم إحساس؟ !

قالت وهي تقدم لي الكأس ثم تجلس بعيدًا على المقعد المقابل

- أنت أعجبتني وأثرتني منذ رأيتك تركتني أحس كأني أريد أن أكتشف عالمًا جديدًا ولا أدري ماذا سيقودني هذا الإحساس في الساعات التي نعيشها الآن ربما اكتفيت بك كزبون تشرفت به وربما أثرتني كإحساس يتعلق بك

هكذا كانت تتكلم فلسفة صريحة رائعة لا تعتمد على كلمات مزيفة ولا آراء عامة إنها تقول في صدق كل ما تحس به فعلًا .

واستمر حديثنا طويلًا وكأننا في جلسة عائلية تضم زوجًا وزوجة في إحدى ليالي شهر العسل، إلى أن قالت خلال الحديث

- هل تعرف فهمان اليارجي؟ !

وبهرت كأني أقفز بصوتي من فوق مقعدي

- هل تعرفينه؟ !

قالت في هدوء

- عرفته بعض الوقت في بوسطن إنه ذكي وكريم

واستعدت صورة اليارجي في خيالي إن كل الناس تعرف فهمان اليارجي، إنه أنجح رجل أعمال عربي بل إن نجاحه أصبح يقارن بنجاح رجال الأعمال العالميين وقد بدأ نجاحه معتمدًا على نفس العلم الذي أعتمد أنا عليه، علم أو فن العلاقات العامة، والاتصالات الشخصية ورغم أني لا أعرفه شخصيًّا إلّا أني كنت أعتبره من بعيد أستاذي، وأعتبره الأمل الذي أتمنى تحقيقه، وكنت أغار منه وأحقد عليه أحيانًا ولكنه كان أضخم وأكبر من أن تصل إليه غيرتي أو حقدي وربما كان يمكن بالعمليات التي أقوم بها أن أصل إلى مستواه، لولا أنه يقوم بعمليات لم أستطع أن أحقق مثلها حتى اليوم عمليات الأسلحة إنك لا تدري كم تستطيع أن تكسب من عملية واحدة للسلاح ربما أكثر من عشرة ملايين دولار إن هناك صحفيًّا شابًّا في إحدى البلاد العربية استطاع أن يحقق بعملية سلاح واحدة أضعاف ما كسبته صحافه بلده - كصحافة - في عشر سنوات وآه لو استطعت أن أصل إلى عملية سلاح واحدة تكفيني عملية واحدة وبعدها أتوب إلى الله !

وجوانا كانت تعرف فهمان اليارجي، ولابد أنه استخدمها في بعض عملياته أي أنها مرت بتجارب وأصبحت خبيرة في فن العلاقات العامة، وفهمان اليارجي لا يمكن أن يستخدم أحدًا سواء كان رجلًا أو امرأة إلّا وهو واثق أنه يستطيع أن يحقق ما يريده منه

وبسرعة انقلب تفكيري كله وانحصر في موضوع واحد حتى أني لم أعد أرى جسد جوانا العاري من خلف ثوبها الشفاف إنما عيناي مركزتان فوق جبينها كأني أحاول أن أقيس ذكاءها وأحاول أن أقنع نفسي بالاطمئنان، ثم قلت لها

- جوانا لقد كذبت عليك فإني لست هنا في طوكيو بناء على دعوة إني في جولة حرة وأنا وزير مفوض في السلك الدبلوماسي في بلدي والأهم من ذلك

إني رجل أعمال

ولم تدهش جوانا وهي تسمع اسم بلدي رغم أني كنت قد ادعيت أمامها أني مصري حتى لا تعتبرني من أبناء البترول، وكأنها كانت تعرف الحقيقة، وقالت وكأنها تربت على خدي بابتسامتها الحلوة المرتفعة

- ولماذا كذبت؟ !

وقلت ضاحكًا

- كنت أريد أن تقعي في حبي لا في ثرائي

قالت

- وهل الحب لا يكون إلَّا مع الفقر؟ !

قلت

- لا ولكنه لا يشترى والرجل الغني كالفتاة الغنية كل منهما يعاني من عقدة الإحساس بأن لا أحد يحبه ولكن كل الناس تحب أمواله

قالت

- إن الحب يفرض أن يعيش الرجل والمرأة في مستوى واحد، فإذا كان فقيرًا جمعهما الفقر، وإذا كان مليونيرًا فيجب أن يرفعها إلى مستوى المليونيرات هل أنت مليونير؟

قلت

- على وشك أن أكون

قالت

- ولماذا قررت أن تصارحني بالحقيقة حقيقتك؟

قلت وأنا أنظر إليها كأني أغريها

- لأني في حاجة إليك، وقد استطعت بسرعة أن تقنعيني بنفسك وأنت تعلمين أن كل رجل أعمال في حاجة إلى من تساهم معه في مسئولياته الاجتماعية

وأريد أن أعرض عليك أن تتفرغي لي أقصد للعمل معي ونظرت إليّ كأنها تحاول أن تعرفني أكثر وقد نسيت هي الأخرى جسدها العاري تحت ثوبها الشفاف، وقالت

- كيف كيف أتفرغ لك؟! لعلك تقصد ألَّا أكون لرجل آخر

وأجبتها كأني أنفي تهمة

- لا لا قلت إني أريدك أن تتفرغي لي في العمل لا أن تتفرغي لي في الفراش

وعادت تنظر إليَّ صامتة نظرة طويلة ثم قالت

- موافقة إنها فكرة تستحق التجربة

قلت فرحًا

- والتجربة تبدأ بأن تعتبري كل تكاليف إقامتك في طوكيو على حسابي الخاص، أقصد على حساب مكتبي

قالت وهي أيضًا فرحة

- هذا يعفيني من البحث عن أي رجل آخر أستطيع أن أتفرغ لك فعلًا فعلًا

قلت

- وبعد يومين سأعود إلى مقر عملي، وتعودين معي لتقيمي هناك

قالت

- ولكني كنت قد قررت أن أسافر إلى هونولولو

قلت

- أسافر معك

قالت

- لا إني مرتبطة هناك بمواعيد سبق أن حددتها قبل أن نتعارف

قلت

- المهم أن أكون معك في بلد واحد

قالت

- الأفضل أن ألحق بك في أي بلد تكون فيه ولن أغيب في هونولولو أكثر من ثلاثة أيام

ونظرت إليها كأني أشك فيها حائرًا في نواياها ثم قلت

- موافق

وأقنعت نفسي بأنه لا يهم أن تغيب وحدها بعيدًا عني في هونولولو فالخطة كلها لا تزال مجرد تجربة بالنسبة لي كما أنها تجربة بالنسبة لها

وقلت وأنا أترك مقعدي وأقترب منها وأشدها إلى صدري وأصل بكفي إلى جسدها العاري من تحت ثوبها الشفاف

- دعينا نوقع عقد الاتفاق

وأخذت شفتيها أول شفاه أمريكية أتذوقها إن الشفاه الأمريكية لها طعم مغر جذاب يتغلب على طعم الاحتراف وأعطتني جوانا ليلتها أضعاف الأحاسيس التي كانت تعطيها لي بهاناي

إن ما تعطيه تايلاند شيء وما تعطيه أمريكا شيء آخر

*

وفي صباح اليوم التالي ونحن لا نزال في الفراش قالت لي جوانا

- لقد تذكرت شيئًا ربما يهمك، فقد كنت جالسة منذ أيام مع بعض الرجال الأمريكان وأعتقد أنهم يمثلون شركات لا أدري ما هي، وكانوا يتحدثون عن مشاكل يواجهونها في بلدك بخصوص إحدى العمليات .

قلت وأنا مازلت أتمطى

- أي نوع من العمليات؟

قالت وقد اكتشفت أنها من النوع الذي يشتعل نشاطًا بمجرد أن يفتح عينيه

- لا أدري ولكني أستطيع أن أدعوهم الليلة هنا على كأس شراب وأقدمهم لك ونفهم مشكلتهم .

إنها تبدأ العمل منذ اليوم الأول، لا شك أنها تلميذة ناجحة من تلاميذ فهمان اليارجي

وقد تركتها في الصباح وعدت إليها بهدية عبارة عن طاقم كامل من اللؤلؤ عقد وسوار وخاتم وحلق كلفتني حوالي عشرة آلاف دولار كان يجب أن أجذبها بأقوى خيوط الإغراء وفي المساء عرفتني في جناحها الخاص بالذين حدثتني عنهم من رجال الأعمال الأمريكان، وقدمتني إليهم كأني أملك كل مصير بلدي وكانت مشكلتهم خاصة بعملية توريد مجموعة أنابيب ومعدات خاصة بآبار البترول تكاد شركة أخرى تفوز بها عليهم، برغم أن شركتهم معروفة عالميًّا بارتفاع مستوى إنتاجها ورغم أنهم قدموا عرضًا أقل تكلفة و و إنها عملية تساوي ثلاثة ملايين دولار، وعمولتها تصل إلى مائتين وخمسين ألف دولار

واتفقت معهم على أن أتحمل مسئولية إتمام هذه العملية لحسابهم، وأن يلتقوا بي بعد خمسة عشر يومًا في مقر السفارة، وقلت ضاحكًا كأني ألقي مجرد نكتة

لقد ظلمت نفسي عندما قبلت منصب وزير مفوض، فإن عملي في الواقع هو تحقيق مثل هذه العمليات ولذلك فإني أعتبر أن حقي يضيع عندما لا أحصل على العمولة كاملة

وقالوا فورًا

- طبعًا طبعًا هذا حقك

وقد قلت هذا الكلام لأن العادة جرت على الاحتفاظ بالعمولة الكاملة لوكلاء الشركة بينما يعتبر أصحاب المناصب من الوزراء وكبار رجال الدولة من العناصر المساعدة فلا ينالهم إلّا جزء من العمولة .

وقد تفرغت لي جوانا فعلًا خلال الأيام التي قضيناها في طوكيو، وكنت في كل يوم أكتشف أنها ليست مجرد امرأة تحترف ليالي الجسد، إن في داخل رأسها ثقافة كاملة ومعرفة واسعة بفن العلاقات العامة، وبلغت فرحتي بها إلى حد

أن أقنعت نفسي بأني لست لها مجرد رجل بل إنها تحبني، أو على الأقل تميزني عن باقي الرجال الذين تستطيع أن تحصل منهم على أكثر مما تعطيهم ولم يكن يبدو عليها أبدًا افتعال أي شيء إنها حتى وهي تحدثني في مجالات العمل لا تتباهى بمعلوماتها ولا تبدو كأنها تلقي عليّ درسًا بل تبدو كأنها مجرد امرأة عادية تقول رأيًا عاديًّا، ثم وهي تعطيني إنها لا تفتعل إني لا أحس بها أبدًا كامرأة مأجورة، كما أنها لا تفتعل التظاهر بحبي ولكن البساطة التي تعطي بها هي التي تجعلني أحس بأنها تريدني كما أريدها إلى أن سافرت إلى هونولولو في هذه الرحلة الغامضة التي فضلت أن تقوم بها وحدها ربما خطر على بالك أنها قد تكون جاسوسة أو إحدى بنات المخابرات الأمريكية «لا يهم» فإني لا أملك من أسرار بلدي السياسية أو الاقتصادية أكثر مما يملكه أي شخص في الشارع ولا أكثر مما ينشر في الصحف لا يمكن أن يكون لبلد مثل بلدي أسرار، إن الأسلوب الذي نتعامل به لا يترك مجالًا للأسرار لا أسرار داخلية إنما فقط الأسرار الشخصية أسرار الفراش !

لذلك، فإني لست مستعدًّا أن أتخلى عن جوانا حتى لو كانت جاسوسة

وقد تركت طوكيو وعدت إلى السفارة وكان أول ما فعلته أن استأجرت شقة فاخرة في أفخر أحياء البلد لتقيم فيها جوانا عندما تصل وساهمت ميزانية العلاقات العامة في تحمل تكاليف استئجار هذه الشقة وقد تلوي شفتيك امتعاضًا وأنت تسمع مني أني أنفق أموال الدولة على مشاريع خاصة يا أستاذي العزيز إن ميزانية العلاقات العامة ليس لها مقاييس ولا يمكن أن تحدد فيها ما يجب وما لا يجب، وهذا في كل بلاد العالم حتى عندكم قد يأتي إليكم زائر أجنبي صغير وكيل وزارة مثلًاوتضطر الحكومة أن تقيم له حفل عشاء، فمن تدعو إلى هذا الحفل؟ إنها تدعو على الأقل مائة من الموظفين والصحفيين لا علاقة لهم بالضيف ولا يهمهم شيء من زيارته، ولا يجد فيهم الضيف نفسه شيئًا يهمه، إن كل ما يهمهم هو مظهر الدعوة وأنواع الأطعمة والمشروبات التي تقدم لهم مجانًا، وكل ذلك تتحمل تكاليفه الدولة من أجل لا شيء عملي سوى صورة فوتوغرافية تؤخذ لهذا الحفل وتنشر في الصحف وترسل إلى حكومة الضيف كمجرد مظهر للتكريم وحسن العلاقة بين البلدين

إن المظاهر لها تأثير كبير حتى لو كانت مظاهر كاذبة كمظاهر الاستقبالات الرسمية والشعبية التي تعد لرؤساء الدول المظهر له تأثيره وتكاليفه حتى في تصرفات الفرد بالنسبة لنفسه «إنه قد يذهب إلى مطعم راق ليأكل طبق لحم يكلفه عشرة جنيهات في حين أن نفس الطبق ونفس اللحم يستطيع أن يأكله في مطعم آخر ويكلفه خمسين قرشًا المظاهر لها ثمن وميزانية العلاقات العامة هي كلها ميزانية المظاهر الكاذبة والتودد المفتعل إنك لو ذهبت في زيارة رسمية إلى اليابان فإن الحكومة ستدعوك إلى بيت من بيوت الجيشا

وسينتهز عشرة على الأقل من رجال وزارة الخارجية اليابانية فرصة زيارتك ويدعون أنفسهم معك إلى هذا البيت ليست الحكومات فقط حتى الشركات الكبيرة تخصص ميزانيات واسعة لهذه المظاهر، وأنا لا آخذ شيئًا من مشروعات هامة تخص بلدي ولكني آخذ من ميزانية المظاهر لأنفقه فيما أعتقد أنهامظاهر هامة

وجاءت جوانا

واتفقنا على أن تعيش كسيدة أمريكية ثرية جاءت سائحة وتمد إقامتها بحكم أن البلد أعجبها وكانت أول عملية بدأنا الاهتمام بها هي عملية مشروع معدات آبار البترول، واستطعت بسرعة أن أغري المسئول في بلدي عن هذه العملية إلى زيارتنا زيارة رسمية، وفي خلال ليالي الزيارة الرسمية قدمته لجوانا على أنها السيدة الثرية التي التقيت بها مصادفة وأصبحت صديقة محترمة وأنت قد لا تدري مدى الانهيار الذي يصيب مسئولًا عربيًّا عندما يجد نفسه مع امرأة أمريكية جميلة ويخيل إليه أنه يستطيع أن يصل إليها في الفراش إنه يحس كأنه يحاول أن ينتصر على أمريكا كأنه يهتك عرض العلم الأمريكي كأنه اعتدى على شرف رئيس الولايات المتحدة الأمريكية إنه الإحساس الشرقي القديم الذي يعطي جسد المرأة قيمة وأهمية لا وجود لها كأن في هذا الجسد يتجمع كل كيان الأمة وكأن الاستعمار هو مجرد أن تستولي على جسد امرأة من بلد آخر

وربما كانت جوانا قد درست هذا الإحساس للرجل العربي أو الرجل الذي ينتمي لدولة صغيرة بالنسبة لامرأة من دولة كبيرة، فقط ظلت تبخل عليه مع الاحتفاظ له بأحلامه حتى اضطر أن يمد فترة زيارته أسبوعًا وعندما أعطته كنت أنا قد حصلت على موافقته على مشروع معدات الآبار إن الشركات كما تعرف تعطي للمسئولين دائمًا عمولات - أو سمها رشاوي - في شكل هدايا ثمينة غالية قد تشمل فصوصًا من الماس، وأنا أعطيت هذا المسئول رشوة من نوع آخر أعطيته جسد جوانا

وتسلمت فعلًا عمولة الصفقة أي أخذت مائتين وخمسة وعشرين ألف دولار واشتريت لجوانا خاتم سولتير، فصًّا واحدًا من الماس حجمه ثلاثة قراريط كلفني عشرين ألف دولار، وتعمدت ألَّا أعطيها هديتها نقدًا بالدولارات حتى لا تعتبر نفسها شريكة معي في الصفقة وتتعود أن تطالبني بنصيب محدد

والدنيا تتفتح أمامي ومعي جوانا والجديد أن شخصيات أمريكية كثيرة بدأت تسعى إليّ وبدأت أكتسب صداقتها، وكنت أجتمع بهم في شقة جوانا كأنهم أصدقاؤها لا أصدقائي حتى لا أكشف نفسي أمام السفير زوجة السفير وحدها السيدة التي أقدرها وأحترمها هي التي تعرف كل شيء إنها تعرف حتى قصة

موظف السفارة الأمريكية الذي كنا نعتبره موظفًا صغيرًا إلى أن كشف لي عن حقيقته عندما اجتمعت به في ليلة من ليالي جوانا واعذرني لن أحكي لك هذه القصة

المهم

إني الآن لم أصل إلى تحقيق صفقة سلاح

وأعتقد أنه يجب أن أستقيل من وظيفتي حتى أستطيع أن أتفرغ وتكون لي حرية أكبر للوصول إلى صفقة سلاح ولو استطعت فربما استطعت وخصوصًا وأنا معتمد على أصدقائي الأمريكان أن أكون وزيرًا أو رئيس وزراء أو أن أقوم بانقلاب لصالحي، ولكني أفضل أن أصل إلى صفقة سلاح

إذا وصلت فسأكتب لك مرة أخرى !

البحث عن الطريق الآخر

مقدمة القصة

عندما يكون الأب رئيسًا هل يظلم أبناءه

أو يظلمه أبناؤه؟

هذه القصة خطرت لي عندما كنت منذ شهور في زيارة الهند فوجئت هناك بحملة عنيفة ضد سنجاي غاندي ابن السيدة أنديرا غاندي رئيسة الوزراء وكان سنجاي متهمًا بأنه يستغل مركز ونفوذ أمه في تحقيق مصالح خاصة، منها إنشاء مصنع للسيارات، كما أن الأم تفرض ابنها على المجتمع السياسي الهندي، بدليل أنه أصبح رئيس وقائد حركة الشباب وقد كتبت أيامها في جريدة «الأهرام» تفاصيل كل ما يقال هناك كما نشرت حديثًا جرى مع سنجاي يدافع فيه عن نفسه ويعلن أنه ليس في حاجة لاستغلال مركز والدته بل إنه يعارضها في كثير من آرائها، وإنما هو يعتمد على حريته وجهده الخاص كأي واحد من أبناء الشعب بدليل أنه له أخ هو ابن أنديرا غاندي أيضًا ولكنه مبتعد ابتعادًا كاملًا عن المجتمع السياسي الهندي ورغم هذا فقد قيل إن سبب سقوط أنديرا غاندي وحزب المؤتمر في الانتخابارات هو تصرفات ابنها سنجاي وإنه هو الذي دفعها إلى إعلان حالة الطوارئ التي أدت إلى سقوطها

ومشكلة أبناء الرؤساء أو أبناء أصحاب السلطة مشكلة في كل بلد من بلاد العالم، وقد كان طوني فرنجية ابن الرئيس اللبناني السابق سليمان فرنجيه متهمًا بأنه يحكم لبنان باسم ابنه، وأنه هو - لا أبيه - سبب كل ما حدث للبنان كما أن كارتر الرئيس المنتخب للولايات المتحدة الأمريكية كان قد أعلن بعد انتخابه أنه سيستعين باثنين من أولاده في تحمل مسئوليات البيت الأبيض، فثارت ضدة حملة من معارضيه وكانت حملة خفيفة تعتمد على إطلاق النكات، ظل كارتر بعدها مستمرًّا في الاستعانة بأولاده في تحمل مسئولية الحكم

وفي مصر قامت حملة ضد المهندس سيد مرعي عندما رشح نفسه لرياسة مجلس الشعب متهمًا بأنه اعتمد على أنه ناسب الرئيس أنور السادات بزواج ابنه من ابنة الرئيس، وأذكر أنه بعد أن أعلنت الخطبة أن التقيت مرة والصديق سيد مرعي وقلت له

- على قدر فرحتي بخطبة حسن إلى نهى فإني أشفق عليك من هذا الزواج

ولم أكن في حاجة إلى أن أسمع رد سيد مرعي فإني أعلم أن شخصيته السياسية بدأت قبل الثورة واستمر بها بعد الثورة دون أن يعتمد على قرابة أو نسب، ولكني كنت أقدر أن مجرد ارتباطه برباط أسري مع رئيس الدولة سيثير حوله متاعب كان في غنى عنها، وقد يتحمل رئيس الدولة نفس المتاعب وهو ما حدث فعلًا

وحتى في المستوى العادي لا مستوى الحكام، فإن رياسة الأب لأي عمل تجعله محرجًا مع أولاده بالنسبة لهذا العمل فأي رئيس مؤسسة يرفض غالبًا أن يعين أبناءه في نفس المؤسسة حتى لا يتهم بالمحاباة أو باستثناء ابنه عن باقي المتقدمين إلى العمل، فإذا عين الرئيس ابنه فعلًا فإنه يصبح في حرج كلما استحق هذا الابن مكافأة أو كلما أراد أن يكل إليه القيام بمهمة ما، حتى قيل إن بعض رؤساء المؤسسات في مصر اتفقوا فيما بينهم على أن يتولى كل منهم استخدام أبناء الآخر حتى لا يتهم باستثنائهم أو بمحاباتهم

وقد تعرضت أنا شخصيًّا لهذا الوضع المتعب، فإني ابن صاحبة المجلة التي بدأت العمل بها ابن السيدة روز اليوسف ومضت فترة كنت لا أعرف فيها بين الناس إلّا بأني ابن روز اليوسف وكان كل مجهود صحفي أبذله ينسب إلى أمي وكانت مشكلتي الرئيسية هي أن أثبت لنفسي شخصية قائمة بذاتها بعيدًا عن شخصية أمي وكنت أتعمد أن أترك مجلة روز اليوسف وأعمل في صحف أخرى، رغم حاجة العمل إليَّ. لمجرد أن أحرر نفسي من اسم أمي، وفي الوقت نفسه كانت أمي تعاملني بحزم لا تعامل به بقية المحررين وتحدد لي دائمًا أقل أجر حتى لا يعرف عنها أنها تحابيني أو تستثنيني من بين بقية الزملاء لمجرد أني ابنها وهكذا ظلمت أمي وظلمتني أمي !

وبعد ذلك أصبحت أنا أبًا لابن يصر على أن يكون صحفيًّا وقد كنت أتمنى ألَّا يكون صحفيًّا فأي أب يخيل إليه أن عمله هو العمل الوحيد الذي يجلب المتاعب والمخاطر ويتمنى أن يبعد أولاده عن مثل هذا العمل ولكن ابني محمدًا أصر على أن يكون صحفيًّا، فأصررت على ألَّا يعمل في أي جريدة أعمل بها وخصوصًا إذا كنت أتولى فيها منصبًا رئيسيًّا سواء كرئيس تحرير أو كرئيس مجلس إدارة وجاءت فترة كنت أنا أعمل في مؤسسة أخبار اليوم وابني محمد يعمل في مؤسسة الأهرام، إلى أن جاءني يومًا وقال لي إنهم في الأهرام يعاملونه ويحذرونه كأنه جاسوس لي فاضطررت أن أسمح له بأن يعمل معي في أخبار اليوم، وعهدت به إلى مدير التحرير الأستاذ سعيد سنبل دون أن أسمح له بالاتصال بي في كل ما يخص العمل ولم أكن أوافق على أي إجراء به إلّا إذا وافق سعيد سنبل أتعبت ابني وأتعبني ولم يجد محمد حريته ولم يتقدم في عمله بأخبار اليوم إلّا بعد أن تركتها أنا !

إنه موضوع طويل سبق أن كتبت فيه كثيرًا وأنا أتساءل عن أبناء الرؤساء والشخصيات القيادية، هل هم مظلومون بآبائهم أو أنهم يظلمون آباءهم؟ !

وهذه القصة من وحي هذا الموضوع

إحسان

إننا في عز النهار الساعة لم تتجاوز الحادية عشرة صباحًا والشوارع كلها مزدحمة كالعادة بما فيها الشوارع الجانبية، والسيارات مركونة بجانب الأرصفة وبعضها فوق الأرصفة في انتظار أصحابها وكان يسير في شارع رشيد بمصر الجديدة، وتوقف عند سيارة مرسيدس واقفة أمام باب عمارة، ولم يتلفت حوله ولم يحاول أن يرقب بواب العمارة الجالس على مقعد فوق الرصيف، ومد يده يحاول أن يفتح باب السيارة وعندما وجده مغلقًا بالمفتاح .

أخرج من جيبه لفافة من المشمع الطبي الذي تلصق به الضمادات، ولصق قطعة منها فوق النافذة الصغيرة الجانبية للسيارة، ثم أخرج من جيبه «أجنة» حديدية صغيرة مما تستعمل في فك وربط الصواميل، وضرب بها اللوح الزجاجي الصغير ضربة قوية فتحطم دون صوت ودون أن يتناثر الزجاج في الشارع ملتصقًا بقطعة المشمع، ومد يده من خلال الزجاج المحطم وفتح باب السيارة من الداخل وقفز جالسًا أمام عجلة القيادة

وانحنى ومد يده خلف لائحة العدادات. والتقط سلك البطارية وسلك «الكونتاكت» وأخرج من جيبه قطعة من ورق الشيكولاته المفضض وجمع به السلكين فدار موتور السيارة فورًا كان يتصرف بسرعة وخفة كأي لص محترف من لصوص السيارات !

وتنبه بواب العمارة وجرى إلى السيارة صائحًا

- بتعمل إيه يا جدع أنت؟

وقبل أن يصل البواب إلى السيارة كان اللص قد انطلق بها فأخذ يصيح

- حرامي حرامي !!

وتطوعت عدة سيارات أخرى لمتابعة اللص، وكان الخبر قد أبلغ للبوليس فأطلق سيارة مجهزة بآخر ما وصل إلى البوليس المصري من أجهزة

واللص يقود السيارة المسروقة بمهارة عجيبة ويدخل ويخرج بين شوارع مصر الجديدة كأنه في استعراض لسباق السيارات، ولم تستطع أي سيارة أخرى أن تلحق به، بل إنه من كثرة مفاجآته في اللف والدوران تسبب في تصادم سيارتين من السيارات التي تتبعه تمامًا كما يحدث في أفلام السينما الأمريكية

وبعد أن مضى أكثر من نصف ساعة على المطاردة لاحظ جميع المطاردين أن اللص بدأ يهدئ من سرعة سيارته واشتدت دهشتهم عندما قادهم إلى الشارع الذي يقع فيه مركز بوليس مصر الجديدة، وعندما وصل إلى باب المركز كاد يتوقف بالسيارة، وأحاطت به السيارات المطاردة وأجبرته على التوقف تمامًا، ونزل السائقون من سياراتهم واندفعوا إليه، وربما هَمّ بعضهم بأن يعتدي عليه بالضرب ولكنهم وجدوا أمامهم شابًّا وسيمًا هادئًا يبتسم لهم فترددت الأيدي التي كانت تهم بالضرب، وبدأوا يكتفون بالصراخ من حوله، وامتدت يد الباشاويش وقبضت عليه من كتفه ثم شدته في عنف خارج السيارة ودفعته إلى داخل مركز البوليس، وهو مستسلم هادئ لا يقاوم ولا ينطق بكلمة !

وأمام ضابط البوليس رفع الباشاويش يده بالتحية وهو يدق بقدمه على الأرض كأنه يطلق زغرودة الفرح وصاح

- قبضنا عليه يا افندم لص سيارة شارع رشيد !!

ورفع الضابط رأسه من بين أوراقه في تكاسل وملل، ولكنه ما كاد يلتقي بوجه اللص حتى انتبهت كل خلجات وجهه وأخذ يطيل النظر إليه كأنه لا يصدق عينيه، ثم التفت إلى أفراد فريق المطاردة الذين ازدحمت بهم الغرفة وصاح

- لا أريد أن أرى أحدًا هنا يا شاويش خذهم لينتظروا في الخارج

ودفع الشاويش بكل من في الغرفة إلى الخارج، ولم يبق إلَّا الباشاويش وهو لا يزال قابضًا بيده على كتف اللص، وقال الضابط

- انتظرني أنت أيضًا في الخارج يا باشاويش اتركه لي

وتردد الباشاويش برهة ثم رفع يده بالتحية بلا حماس ولم يدق بقدمه على الأرض وخرج وكله دهشة ساخطة على تصرفات حضرة الضابط

ونظر الضابط في رفق إلى اللص وقال في صوت خفيض

- اسمك؟

وقِال اللص وهو يتململ كأنه لا يريد أن يبقى وحيدًا مع حضرة الضابط

- أشرف

وابتسم الضابط وعاد يقول

- وبقية الاسم؟ قل إني أعرفك !!

وقال اللص في زهق

- أشرف عبد الصبور

وقال الضابط مبتسمًا

- تقصد أشرف إسماعيل عبد الصبور

وقال اللص في حدة

- إن من حقي أن أحدد اسمي هذا أقل حق لي حتى لو كنت لصًّا واسمي أشرف عبد الصبور !!

وقال الضابط وهو لا يزال يبتسم

- لا يهم طبعًا أنت لم تسرق السيارة؟ !

وصرخ المتهم

- طبعًا سرقتها ما هي السرقة إذا لم تكن هذه سرقة؟ إني أعترف بأني سرقت لا تحاول أن تزور اعترافي

ونظر الضابط إليه في دهشة وقال

- يا أشرف أرجوك أن تهدأ، كل شيء يمكن إصلاحه

وصرخ أشرف

- لا أريد إصلاح شيء أريد أن يكون نصيبي هو نصيب غيري القانون

وازداد تعجب الضابط ونظر إلى أشرف نظرة جديدة وكأنه ينظر إلى مجنون ثم قام من وراء مكتبه وهو يصرخ مناديًا الباشاويش وقال بمجرد أن دخل إليه

- ابق معه إلى أن أعود

ورفع الباشاويش يده وأطلق زغرودة الفرح بقدمه التي يدق بها على الأرض وخرج الضابط مسرعًا ودخل إلى مكتب مأمور المركز وبعد لحظات عاد والمأمور يهرول أمامه ونظر إلى أشرف كأنه لا يصدق عينيه ثم قال في حسرة مفتعلة

- لماذا يا ابني لماذا لا ترحموا آباءكم من «بلاويكم»؟ !

وصرخ أشرف

- أنا سرقت افتح المحضر واستدع الشهود

وقال المأمور في لهجة خطيب الجمعة

- ولأنك سرقت لا يهمك أن تضيع البلد .

وقبل أن يرد أشرف خرج المأمور وعاد إلى مكتبه وأجرى عدة اتصالات تليفونية وبعد مدة نادى الضابط ليأتي إليه في مكتبه ومعه أشرف، وقال وهو يبتسم لأشرف ابتسامة يتوسل بها إليه حتى لا يتعبه

- انتهينا يا أشرف اعتبر الموضوع كأن لم يكن تستطيع الآن أن تعود إلى البيت

وصرخ أشرف

- لن أخرج من هنا إلَّا بأمر النيابة

وقال المأمور وهو يشد أنفاسه كأنه يستغيث

- لا داعي للنيابة ولا حتى لمحضر تحقيق فقد تنازل صاحب السيارة عن دعواه وهو راض عما فعلته

وقال أشرف ساخرًا

- طبعًا نظير رشوة؟ !

وقال المأمور

- لا أعتقد أنها رشوة إنما طبعًا من حقه أن يأخذ حق إصلاح العطب الذي حدث لسيارته، ولم يعد هناك شهود فقد انصرفوا بعد أن اكتشفوا أنها شقاوة شباب

وقال أشرف محتدًّا

- تقصد شقاوة عيال لا يهم اعتبرني كما تريد أن تعتبرني - ولكنك لا تستطيع أن تفرج عني حتى لو تنازل أصحاب السيارة إنها جريمة وصاحب السيارة ليس إلّا مدعيًا بالحق المدني إنما الخصم هو المجتمع، والذي يعبر عن المجتمع هو القانون والذي يطبق القانون هو النيابة ولن أخرج من هنا إلّا بعد استكمال كل إجراءات التحقيق وإذا رأت النيابة بعدها أن تطلق سراحي

وقال المأمور في (قرف)

- إني أرحب بك في ضيافتي وتستطيع أن تبقى هنا كما تريد .

ومال المأمور وهمس في أذن الضابط وخرج الضابط من الغرفة مسرعًا، ثم مال المأمور على أوراقه كأن موضوع أشرف الذي لا يزال جالسًا أمامه قد انتهى، وقال أشرف في حنق

- إنك تخل بمسئولياتك البوليس يجب أن يكون متحررًا من مراكز القوى

ورفع المأمور رأسه إليه وقال كأنه يلقي عليه درسًا

- إن مسئوليتي هي منع وقوع الجريمة

وقال أشرف

- الجريمة وقعت والسيارة سرقت

وقال المأمور

- ليست هذه هي الجريمة التي كنت تقصدها الجريمة الأخرى لم تقع بعد وأرجوك، اجلس صامتًا فإن أمامي عملًا كثيرًا

وقال أشرف وهو ينظر إلى المأمور في غيظ

- ضعني في زنزانة !!

- إن أي مكان هنا يمكن اعتباره زنزانة بما فيه مكتبي وأرجوك دعني لعملي

وسكت أشرف وقد بدأ يستسلم لليأس

والمأمور يدعي أنه غارق في مراجعة أوراقه بينما يتسلل بعينيه بين الحين والآخر إلى أشرف كأنه ينتظر منه مفاجأة، وبعد أكثر من نصف ساعة دخل الضابط وهمس في أذن المأمور، وانتفض المأمور واقفًا وهو يقول لأشرف

- يا أستاذ أشرف إن والدتك تنتظرك في الخارج وأرى أنك توافقني على أن تذهب إليها بدلًا من أن تعرضها للدخول إلى مكاتب البوليس

وقام أشرف وقال وهو يزم شفتيه في (قرف)

- سأذهب إليها

وخرج من الغرفة دون أن يحيي المأمور أو الضابط، والمأمور يجري وراءه إلى أن أوصله إلى داخل السيارة التي تنتظره وانحنى انحناءة كبيرة تحية لأمه

وانطلقت السيارة الفخمة وهو جالس بجانب أمه، وهمت الأم بأن تتكلم ولكن أشرف قال وهو غارق في الانهيار

- دعيني الآن يا ماما

ثم أمسك بيدها وقبلها واحتفظ بها في يده ودموعه تكاد تطفر من عينيه كأنه يهم بأن يبكي نفسه

فطيلة حياته وهو يعيش هذه المعاناة معاناة الابن الذي ولد لأب ناجح مشهور ويضيع هو وراء هذا النجاح وهذه الشهرة ومنذ تنبه وعيه إلى الحياة وهو يجد على الباب رجال البوليس يرفعون له أيديهم «تعظيم سلام» إلى أن بدأ يتنبه إلى أن هذا «التعظيم سلام» ليس تعظيمًا له إنما هو تعظيم لوالده هو وحده لا يستحق أي تعظيم ومنذ دخل المدارس وهو منتبه إلى أنه يعامل معاملة خاصة تختلف عن معاملة زملائه الطلبة وناظر المدرسة يستدعيه إلى مكتبه بين الحين والآخر ويسأله أسئلة سخيفة وينصحه نصائح تافهة، ثم يقول له «تحياتي للسيد الوالد إنه رجل عظيم» وكان يعلم أن كل ما يريده الناظر هو إبلاغ تحياته لوالده، لا شيء آخر، ولولا والده لما استدعاه أبدًا ولا عرف بوجوده والمدرسون أيضًا إنهم يعاملونه كأنهم موظفون عنده وحده ويحس أنهم يجاملونه في الدرجات، ومدرس اللغة العربية يكرر أمام بقية الطلبة في كل مناسبة تافهة «يا سلام إنك سترث والدك في عبقريته» أو كلامًا آخر في هذا المعنى وحتى الطلبة إنهم يضعونه في ركن بعيد عنهم، ويعيشون معه كأنه

ليس منهم، وعندما يجتمع بهم يلتفون حوله كأنهم يتفرجون عليه، وعندما يتكلم يستمعون إليه كما يستمعون لمسرحية تذاع في الراديو

وأخذت كل هذه الأحاسيس تتعقد داخل نفسه، وبدأ يحاول أن يثور عليها أن يتحرر من ضغط شخصية والده عليه يريد أن تكون له شخصية قائمة بذاتها يريد أن يعرفه الناس ويعاملوه على أنه الطالب أشرف، لا على أنه أشرف بن إسماعيل عبد الصبور ومنذ أن كان صغيرًا وهو يتعمد أن يهرب من رجال البوليس الواقفين على الباب حتى لا يواجهونه بـ «تعظيم سلام» بل إنه بعد أن ضاق بهم صاح في واحد منهم

- عندما ترى أبي ارفع يدك بالسلام هذا السلام ليس مخصصًا لي

إياك أن ترفع يدك بالتحية لي فاهم؟

وأجاب الشاويش وهو يبتسم في تملق

- يا سلام يا أشرف بيه إنك تستحق ألف سلام إنك سيدنا وابن سيدنا

ولم يستطع أن يتخلص حتى اليوم من الـ «تعظيم سلام »

ودفعته العقدة التي يحس بها وهو مع زملائه الطلبة إلى أن أصبح يبدو بينهم كأنه إنسان شاذ كان يجلس بينهم في ركن بعيد وهو صامت بينما هم يتضاحكون ويهرجون ويلعبون، ثم فجأة يقوم من بينهم بعمل شاذ لا ينتظرونه كأن يرقص رقصًا بلديًّا وهو يصيح في لهجة أولاد البلد

- (سقف) أنت وهو ياللا يا جدعان .

ويصفقون وهم ينظرون إليه في دهشة، ويشعر أنهم يستثقلون دمه فيتوقف عن الرقص فجأة - كما بدأه فجأة ويخرج من بينهم مبتعدًا وهو صامت تائه مع نفسه كما أنهم تائهون فيه !

وفي مرة كان جالسًا بينهم وهم يلعنون أحدهم الآخر باسم الأب وهو منذ وعي وهو يسمع زملاءه يتلاعنون باسم الأب والأم كنوع من أحاديث المداعبة ورفع الكلفة، ما عدا هو هو وحده الذي لم يلعن أحد من زملائه أباه حتى ولا من باب الخطأ وكأن أباه شخصية مقدسة ليس من حق أحد أن يلعنها أو يتجرأ عليها أو يتخذها موضعًا للمزاح فقام بين زملائه وقال وهو يضحك كأنه يغريهم برفع الكلفة بينهم وبينه

- وأنا كمان يلعن أبويا

وسكت كل من حوله كأنهم شلوا من هول المفاجأة، ثم انطلق واحد منهم وكأنه قرر أن ينتهز الفرصة وصرخ في وجه أشرف لاعنًا أباه .

وانطلق بقية الطلبة يضحكون ويرددون الشتائم على أبِ أشرف، وهو يحاول أن يضحك معهم ويرد على شتائمهم وهو يحس أنه لاَ يستطيع أن يحتفظ بضحكته لا يستطيع أن يحتمل مزيدًا من اللعنات التي تقع على رأس أبيه حتى ولو كانت لعنات على سبيل المداعبة والمزاح إنه يحب أباه، ويقدره، ويغار عليه، يغار حتى على صورته العامة التي تتمثل في احترام الناس له ورهبتهم منه برغم كل ما يعانيه أشرف من عقد في مواجهة أبيه فهو يحبه ويغار عليه حتى لو ثار ضده وكل هذا دفعه إلى أن يسكت مرة واحدة داخل حلقة اللعنات والشتائم، ويسحب ضحكته، وبدأ يسير مبتعدًا عنهم، وهو يسمع أحدهم يقول

- حانروح في داهية

ويقول الآخر

- أنت اللي ابتديت .

ويقول الثالث

- دي فيها رفت

ويقول الرابع

- استعدوا يا أولاد كلنا حاندخل السجن

وربما شعر بما سمعه بإحساس من الرضا كأن أباه قد استرد مكانته بين الطلبة، ولكن العقدة التي يعانيها عادت تتغلب عليه لماذا يكون أبوه دون بقية الآباء هو الذي يخاف الناس أن يداعبوه باللعنات؟! وما ذنبه هو حتى يوضع في ركن اجتماعي لا يختاره بنفسه إنما لمجرد أنه ابن أبيه؟! وقد حاول أن يخرج بعيدًا عن هذا الركن فسعى إلى أن يصادق طالبًا كان يعلم أنه ينتمي إلى أدنى الطبقات الشعبية، ويقيم في حي الباطنية وراء جامع الأزهر، وأبوه صاحب دكان سجائر صغير، ووصل بإلحاحه في صداقة هذا الطالب إلى أنه ذهب ليزوره في بيته داخل حارة الطناش وما كاد يدخل الحارة بعد أن ترك السيارة التي جاء بها في ميدان الأزهر حتى استقبل كأنه زعيم شعبي، فكل أهل الحارة جاءوا يتفرجون عليه ويصافحونه، ووالد زميله أخذه من يده وطاف به على دكاكين الحي وهو يقدمه متفاخرًا

- ابننا أشرف بيه ابن سيادة إسماعيل عبد الصبور صاحب ابني في المدرسة أمال ابن أكابر

وبدأ يحس أن أباه يلاحقه حتى في أصغر حارة في القاهرة، بل أحس أنه يزداد تعقيدًا وهو بين أبناء الطبقة الشعبية يحس بمسئولية يريد أن يهرب منها مسئولية تمثيل والده علاوة على أنه اكتشف أنه يكلف صديقه غاليًا كلما زاره، فإن أهله يقيمون شبه وليمة كلما جاء إليهم إلى أن مال عليه والد صديقه يومًا وقال كأنه يهمس في أذنه

- عايزك في خدمة يا سي أشرف أصل مأمور الحتة تاعبنا وما حدش عارف يلمه يمكن كلمة منك للسيد الوالد توقفه عند حده

ومضى والد الصديق يروي قصة طويلة لأشرف عن تصرفات المأمور برغم أن أشرف لم يكن أيامها قد تجاوز الثالثة عشرة من عمره ولا يستطيع أن يفهم كثيرًا مما يسمعه كل ما فهمه أن ليس له قيمة إلَّا بوالده حتى وهو بعيد في حارة طناش بحي الباطنية

وقال لوالد صديقه

- حاضر

ولم يبلغ والده بشيء لكنه شطب من حياته صداقة هذا الصديق

وظل يحاول إثبات شخصيته بعيدًا عن أبيه حتى أنه وهو في هذه السن سن الثالثة عشرة أراد أن يثبت لزملائه الطلبة أنه «ولد شقي» ولا يقل عنهم تطاولًا على المدرسين، فاتفق معهم على أن يربط حبلًا رفيعًا في مقعد مدرس اللغة العربية. حتى إذا جاء ليجلس عليه شده فسقط المدرس على الأرض وقام المدرس صارخًا يكيل الشتائم للتلاميذ ويصيح

- من هو ابن الـ. الذي دبر هذه الجريمة؟ !!

وقام أشرف وهو ممسك بطرف الخيط في يده

- أنا يا أستاذ

وسكت صراخ المدرس ونظر إلى أشرف في حيرة وتردد

- معقول يا أشرف لابد أنهم سلطوك وضحكوا عليك

وحاول أشرف أن يثبت أنه المسئول، وأن ينال عقابًا، ولكن لا أحد يريد أن يستسلم لاعترافه وأمر الناظر بإجراء تحقيق، ونام التحقيق !

وأحس زملاؤه بأنهم يستطيعون أن يرتكبوا كل الآثام في حمايته، وحاولوا أن يحرضوه على مؤامرات طلابية أخرى، ولكنه كان يرفض، لأنه اكتشف أن هذه المؤامرات أو المداعبات لا تحرره من شخصية والده بل تزيده خضوعًا لها، وتزيد شخصيته الخاصة ضياعًا لو أنه كان قد عوقب كأي تلميذ عادي فربما كرر هذه المداعبات لكنه لم يعاقب لأنه ابن إسماعيل عبد الصبور فلا أمل

ويكبر والعقدة تتضخم في صدره، وتتلف أعصابه، وتسيطر على عقله، ويحس دائمًا بأنه ضائع وأنه شهيد أبيه الذي أخذ منه كل شيء يمكن أن يكون ملكًا خاصًّا له حتى عندما أحب وكان قد التقى بعفاف وهو في الخامسة عشرة من عمره التقى بها صدفة بعيدًا عن عائلته وعائلتها وهي تعرف أنه ابن إسماعيل عبد الصبور، وهو يعلم أنها ابنة محمود رفعت موظف كبير بدرجة مدير عام ومع الأيام بدأ يلاحظ أن عفاف تعطيه كل ما يريد وأكثر إنه يستطيع أن يحادثها بالتليفون كلما أراد، ويستطيع أن يخرج معها كلما أراد، بل إنه حاول مرة أن يدعوها إلى الخروج بعد الساعة الثامنة، واحتج بأنه تعب ويفكر في الانتحار، وقالت له عفاف في التليفون

- انتظر حتى أسأل ماما

ووافقت ماما على أن تخرج عفاف للقائه في الليل. وهو دهش! كيف توافق أي أم على أن تترك ابنتها التي لم تتجاوز الثالثة عشرة للقائي ليلًا هل هي عائلة من هذا النوع؟! وقد حرص على أن لا يدعوها لبيته أو يقدمها لأمه إنه يريد أن يبتعد بها عن مظهر عائلته عن أبيه يريد أن يكون بالنسبة لها شخصية قائمة بذاتها ولكن عفاف تلح عليه أن تقدمه لعائلتها، وتدعوه إلى زيارتها في البيت، وتغريه قائلة

- إذا تعرف إليك بابا وماما سهل علينا اللقاء

وكان عندما يطلبها بالتليفون ترد عليه الأم أحيانًا في ترحاب شديد

- من؟ أشرف؟ أهلًا يابني دقيقة واحدة لأدعو لك عفاف

وكان يتعجب لهذا الترحاب الكبير هل يطمعون في زواجه من عفاف ولكنه لا يزال في الخامسة عشرة، ولم يصل إلى التوجيهية بعد لم يحن الوقت لمجرد التفكير في الزواج وبرغم تردده لم يستطع إلا أن يستسلم لإلحاح عفاف

وذهب إلى لقاء عائلتها كأنه يستسلم لحكم الإعدام فإن ما حدث حتى الآن بينه وبينها يجب أن يبقيه بعيدًا عن عائلتها فكيف يواجه أباها أو أخاها؟ !!

وذهب

واستقبلوه بترحاب كبير وفي شبه وليمة رسمية، وأخذوا يدعون الجيران ليتفرجوا عليه ويتعرفوا به نفس ما حدث له مع صديقه في حارة الطناش بحي الباطنية واحتمل ولا يزال يأخذ من عفاف ما يريد أكثر إلى أن كان هناك يوم استدعاه فيه والدها إلى جلسة خاصة وقال وهو يرفع من درجة حنانه وحبه له

- إني لم أتعرف بالسيد الوالد حتى اليوم ربما لم تأت المناسبة بعد ولكني أقدر أن هناك تفاصيل هامة كثيرة لا تصل إليه لذلك أعددت مذكرة أقصد خطابًا أعتقد أنه يجب أن يصل إليه والواقع أني أستحق درجة وكيل وزارة منذ سنتين ولكن ما يجري في الوزارة مما لا يعرفه السيد الوالد كان السبب في أنهم تخطوني

وأخذ السيد محمود رفعت المدير العام يروي تفاصيل كثيرة دون أن يقدر أن أشرف وهو في الخامسة عشرة من عمره لا يمكن أن يعي شيئًا مما يسمعه وقال أشرف

- حاضر .

وأخذ المذكرة على أن يسلمها إلى أبيه، وقبل أن يصل إلى آخر درجات سلم الخروج كان يمزقها إنه يرفض أن تكون كل قيمته هو أنه ابن إسماعيل عبد الصبور وهذه العائلة تحتفي به كل هذا الاحتفاء لأنه ابن إسماعيل عبد الصبور الذي يستطيع أن يمنح الترقية إلى درجة وكيل وزارة وربما كانت عفاف لا تحب فيه إلّا أنه ابن إسماعيل عبد الصبور ومضت فترة كان أشرف يكذب فيها ويدعي أنه سلم المذكرة إلى أبيه، ولكنه لم يستطع أن يستمر في الكذب فبدأ يبتعد ويهرب من عفاف، إلى أن شطبها من حياته، وأقنع نفسه أنه لم يجن عليها فهي لم تكن تريده ولكنها كانت تريد أباه إسماعيل عبد الصبور

والعقدة التي يعانيها تشتد به وتزيده ضياعًا إنه لا يستطيع أن يساهم في أي نشاط سياسي، فشبح أبيه يسيطر على كل تحرك له لو اشترك في حركة تؤيد سياسة أبيه فهو منافق لا يفكر بعقليته ولكن بعقلية أبيه وإذا قال رأيًا معارضًا لرأي أبيه فإن المعارضة ترحب به لا لأنه رأي له قيمته ولكن لأنه رأي لابن إسماعيل عبد الصبور ويمكن استغلال الابن عند أبيه بل إنه كتب يومًا مقالًا سياسيًّا وسلمه بيده إلى رئيس تحرير الصحيفة وما كاد يعود إلى البيت ويلتقي بأبيه حتى قال له في لهجته الهادئة العاقلة

- دعك من المقالات السياسية الآن يا أشرف إن ما تكتبه سينسبه الناس إليّ فإذا صممت فلنتفق أولًا على ما ينشر وما لا ينشر

إن أباه على حق هذه هي الحقيقة كل ما يكتبه سينسب إلى أبيه ولكن الحقيقة التي لا يريد أن يعترف بها أبوه هي أنه ضحية شهيد ما ذنبه حتى لا يكون من حقه رأي خاص به؟ !

وقد حاول بعد ذلك كثيرًا أن يتفوق في شيء ينسب إليه وحده

حاول أن يتفوق في الرياضة لعب التنس والشيش وأيضًا المصارعة والملاكمة لكنه لم يستطع أن يتفوق في شيء وكانوا ينظرون إليه وهو يلعب على أنه ابن ذوات يتسلى ابن إسماعيل عبد الصبور

وحاول أن يتفوق في دراسته وقد تفوق فعلًا ولكن تفوقه ضاع في زحمة الإشاعات التي تثور حوله بعد كل امتحان إنهم يقولون إنه يحصل على كل الأسئلة قبل الامتحان ويقولون إنه يضع إشارة خاصة على ورقة الإجابة حتى يعرفها المصحح فيعطيه الدرجة القصوى وعندما التحق أخيرًا بكلية الهندسة قيل إنه استثنى من شرط المجموع

وهو دائمًا أشرف بن إسماعيل عبد الصبور

أشرف وحده لا يساوي شيئًا

إلى أن أدت به عقدته إلى التفكير في ارتكاب جريمة سرقة سيارة ربما تأكد الناس بعدها أن شخصيته تختلف عن شخصية أبيه

*

ووقفت السيارة الفخمة أمام باب البيت، وفتح السائق الباب، وضغطت أمه على يده وقالت في توسل

- أشرف من أجل خاطري تحمل أباك

وهز رأسه يطمئنها في صمت، ودخل البيت وراءها، ولم يتجه إلى غرفته هربًا من لقاء أبيه، ولكنه اتجه إلى الغرفة التي يعتقد أن أباه ينتظره فيها ووقف أمامه صامتًا وهو ينظر إليه بكلتا عينيه كأنه يريد أن يؤكد له أنه ليس نادمًا على ما فعل ولا خجلًا وأبوه ينظر إليه في حسرة ليست نظرة ثورة على هذا الابن

ولا حتى نظرة غضب ولكنها نظرة حسرة وألم عاطفي كأنه ينظر بها إلى ابنه المريض وقال إسماعيل عبد الصبور في لهجة اليائس

- ما هذا الذي فعلته يا ابني؟

قال أشرف في جمود

- سرقت

قال الأب في تأفف

- وهل كنت في حاجة إلى السرقة؟

قال أشرف ولهجته لا تخلو من السخرية

- طبعًا لا ابن إسماعيل عبد الصبور لا يمكن أن ينقصه شيء حتى يسرق إشارة واحدة من أصبعي تجعل سيارات الدولة تحت أمري ولكني سرقت لإجراء تجربة اجتماعية كنت أريد أن أكتشف هل أنا بني آدم أم أني مخلوق من نوع آخر نوع من الملائكة أو من الشياطين !

وزم عبد الصبور شفتيه امتعاضًا ثم شد نفسه كأنه يتحامل ويستعين بالصبر وقال

- وماذا اكتشفت؟

قال أشرف وابتسامته الساخرة تتسع

- طبعًا لا يمكن أن أكون مجرد بني آدم أنا ابن إسماعيل عبد الصبور إن البني آدم إذا سرق يقبض عليه ويقدم للمحاكمة ويدخل السجن أما النوع الآخر من المخلوقات الذي أنا منهم فإنه إذا سرق فإن رجال البوليس يصطفون طابور شرف تحية له، والنيابة تنحني احترامًا، والحكام تعتبر نفسها في عطلة رسمية كأنها في يوم عيد وطني !

وقال عبد الصبور وقد بدا كأنه قرر أن يكون مازحًا

- اسمع يا ابني و .

وصرخ أشرف مقاطعًا

- اسمع أنت يا بابا إذا لم تحقق معي النيابة في الجريمة التي ارتكبتها فلن أسكت ولن يهمني شيء سأخرج في الشوارع وأصرخ حتى يعرف الناس أن ابن عبد الصبور لص أو يتصوروا أن ابن عبد الصبور مجنونًا !

وارتفع صوت عبد الصبور محتدًّا

- اسكت يا ولد إن أقل حق لأبيك عليك هو أن تستمع إليه وإذا كنت تعتقد أني أحميك حماية لسمعتي ولصالحي فأنت جاهل أحمق ومما يعذبني أنك وقد بلغت العشرين من عمرك تزداد جهلًا إن مصالحي كانت تفرض عليّ العكس تفرض عليّ أن أقدمك للنيابة وأن أوصي بتشديد العقوبة عليك حتى أخلص ذمتي أمام الناس الذين يثقون بي، وحتى أثبت لهؤلاء الناس أني في سبيل العدالة أضحي حتى بابني

واهتزت جفون أشرف وهو يستمع لأبيه كأنه اكتشف شيئًا جديدًا كان غائبًا عنه، واستطرد الوالد قائلًا

- إن القبض عليك كان يشرفني كرجل مسئول. ولو كنت متأكدًا من أنك فعلًا قد وصلت إلى حد الإجرام، لما ترددت ولكني واثق أنك لست مجرمًا ولن تكون، ولكنك تعاني حالة نفسية أعرفها و

وقاطعه أشرف كأنه يقاوم اقتناعه بمنطق أبيه

- طبعًا أنت تعرف كل شيء أنت خبير في الاقتصاد. وفي السياسة وفي القانون، وفي الدين وأنت الآن خبير في علم النفس أيضًا

وقال الأب دون أن يغضب كأنه يعذر ابنه في كل ما يقول

- فعلًا أنا خبير في علم النفس وإلَّا لما نجحت وأنت تعاني عقدة عقدتك هي أنا وهي ليست عقدة غريبة إنها عقدة التطور الطبيعي للأبناء إلى أبعد مما وصل إليه الآباء وقد كنت معقدًا من أبي لأنه كان فقيرًا لم يستطع أن يتقدم بنفسه وهي عقدة دفعتني إلى أن أعمل أضعاف ما كان مقدرًا لي أن أعمل وأن أكتشف بنفسي طريقًا لم يكتشفه أبي ومنذ وصلت إلى العشرين والناس تتحدث عني دون أن تنسبني إلى أبي، بل إن أبي كان ولا يزال ينسب إليّ لم أكن أوصف بأني ابن فلان بل كان أبي يوصف بأنه أبو فلان وأنت إن عقدتك عكسية لقد ولدت لتجد أباك قد حقق شيئًا كبيرًا، وكان يمكن أن تكتفي بما حققه أبوك وتعيش راضيًا فخورًا به، ولكنك ورثت عني الطموح الشخصي فحاولت منذ صغرك أن تخلق شيئًا مميزًا ينسب إليك وحدك وكان هذا يسعدني أنا أيضًا أريدك أن تنجح في شيء ليس لي فضل فيه إن المزارع

الناجح يتمنى أن يكون ابنه طبيبًا ناجحًا حتى لا يكون له فضل في نجاحه فيحس أنه أنجب شخصية كاملة تستطيع أن تخلق نفسها بنفسها وكذلك أنا إني أتمنى أن تكتشف لنفسك طريقًا غير طريقي أحيانًا أتخيل أنك عالم في الذرة ولكن عقدتك كانت أقوى منك فلم تستطع أن تتحمل الوقت الطويل الذي يتطلبه بناء شخصية قوية في مواجهة شخصية أبيك إني أثبت وجودي أمام أبي وأنا في العشرين، أما أنت فربما تحتاج إلى أن تنتظر وتحتمل إلى سن الأربعين !

وسقط أشرف جالسًا على مقعد ورأسه بين يديه كأنه لم يعد يستطيع أن يقاوم منطق أبيه، وقال وصوته يتهدج كأنه على وشك البكاء

- إن الناس لا تترك لي مجالًا للإحساس بنفسي لإثبات وجودي للثقة في أني أستطيع أن أكوّن مستقبلًا إني دائمًا صورة للماضي دائمًا ابن إسماعيل عبد الصبور حتى وأنا ألعب وكأني أنفذ قرارًا رسميًّا أصدره إسماعيل عبد الصبور باللعب

وقال الأب وهو يقترب من ابنه ويمد يده يربت على كتفه

- تسافر إلى الخارج وتتم تعليمك هناك بعيدًا عن الناس هنا

وابتسم أشرف في مرارة قائلًا

- حتى في الخارج عندما كنت أسافر في الصيف كنت أبقى حبيسًا داخل شخصيتك، وعندما كنت أذهب إلى أحد الكباريهات لأرقص كانت السفارة كلها تلحقني وترقص معي

وقال الأب في رجاء

- إن ملاحقة شخصية الأب لشخصية ابنه لا يمكن أن تعوقه عن بناء نفسه و

وقاطعه أشرف وهو يهب واقفًا

- أرجوك يا بابا دعني أفكر لنفسي إني سأحاول أن أعيش بعيدًا عنك ولكن لا تسألني أين ولا كيف وثق أني لن أكرر خطئي لن أرتكب جريمة تمسك لن أفكر في مستقبلي على حساب الماضي

وقال الأب وابتسامة ضعيفة بين شفتيه

- أنا لست الماضي يا أشرف

فقال أشرف

- أريد أن أحس بك كماض حتى أحدد مستقبلي

وهز الأب رأسه في أسف قائلًا

- لقد تركتك حرًّا دائمًا المهم لا تضطرني أن أثبت للناس حرصي على الحق حتى لو ضحيت بابني

قال أشرف

- لن يحدث فقط دعني وحدي

قال الأب

- لا تحرمني من طبيعة الأب أريد أن أطمئن دائمًا عليك

وقال أشرف

- سأطمئن ماما دائمًا أرجوك اكتف بماما للاطمئنان عليّ ولا تعتمد على أي وسيلة أخرى

ونظر إسماعيل عبد الصبور إلى ابنه طويلًا، وقال وهو يتنهد كأنه في موقف وداع

- إنها تجربة سأتركك لها !

(2)

كان القرار الذي اتخذه هو أن يبتعد أن عن أبيه

ولكنه لا يدري أين يبتعد

وكان القرار هو أن يخلق لنفسه شخصية جديدة قائمة بذاتها منفصلة عن أبيه الرجل الناجح المشهور .

ولكنه لا يدري كيف تكون هذه الشخصية الجديدة

وفكر أن يهاجر إلى أمريكا لا أمريكا مزدحمة بالعرب ووالده على صلات قوية بمراكز القوى هناك، ولن يستطيع أن يكون شخصية منفصلة فليهاجر إلى أستراليا ولكنه كي يهاجر يجب أن يقدم أوراقه إلى مكاتب الهجرة أي يكشف نفسه أشرف بن إسماعيل عبد الصبور وأي سفارة يقدم لها أوراقه ستتصل بوالده فورًا ثم ماذا يعتمد عليه في هجرته؟! إنه لم يتم تعليمه لا يزال في السنة الأولى بكلية الهندسة، ولا يجيد أي عمل، ولم يتعلم بعد الاحتراف ولا حتى احتراف أن يكون سائق تاكسي

إنه في أي مكان في العالم مضطر أن يبقى معتمدًا على شخصية أبيه على نفوذ أبيه أو على أموال أبيه إنه حتى قبل أن يخرج من البيت أخذ من أمه مائة جنيه لم يخرج إلّا وشخصية أبيه في جيبه الشخصية التي تستطيع أن تعطي وربما كان الأفضل أن يستسلم لرأي أبيه ويقرر أن يسافر ليتم تعليمه في الخارج على حساب الدولة أو على حساب أبيه ولكن لا إن ما يعذبه ليس وجوده في مصر إنما وجوده داخل شخصية أبيه سواء في مصر أو خارج مصر ثم إنه لا يريد أن يتم تعليمه إنه يستطيع أن ينجح في كلية الهندسة ويحصل على البكالوريوس بسهولة، ولكن الحياة لم تعد تعتمد على الشهادات الجامعية الشهادة قد تكون شرطًا للحصول على وظيفة ولكنها ليست شرطًا للنجاح في الحياة معظم الناجحين في الدولة المتقدمة لا يحملون شهادات جامعية وهو يحس أنه يملك إمكانيات يمكن أن تحقق له النجاح حتى لو بدأ كبائع ترمس !

ربما كان مجنونًا

وابتسم بينه وبين نفسه ابتسامة حزينة إن عليه أن يكتشف أيضًا هل هو مجنون أم عبقري

وقرر أن يسافر إلى شاطئ العجمي ونحن في الشتاء والشاطئ خال يستطيع أن يختبئ فيه من شخصية والده ويترك نفسه هناك لفكره إلى أن يقرر مصيره وقد اختار شاطئ العجمي لأنه منذ سنوات شبابه الأولى تعود أن يهرب إليه في ليالي الصيف بعيدًا عن مجتمع أبيه الذي كان يحتل شاطئ المنتزه حيث أعلن - هذا المجتمع - أنه الوريث الشرعي لأرستقراطية العائلة المالكة !

وفي العجمي استأجر بيتًا صغيرًا على شاطئ «بيانكي» لا يعرف صاحبه، فقد استأجره من الخفير، وربما كان الخفير يحتفظ بقيمة الإيجار لنفسه لأنه تساهل جدًّا في تقديرها عشرون جنيهًا في الشهر بيت مؤسس مفروش وضحك إن الخفير حارس ومن حقه أن يطبق نفس لوائح هيئة الحراسات التي فرضت على بيوت الناس !

ومنذ اليوم الأول قرر أن يطلق شعر رأسه وذقنه ليتخفى لا يمكن أن يتصور أحد أن هذا الشاب الذي أطلق شعر رأسه حتى كتفيه وأطلق ذقنه وهذبها على الطراز المودرن يمكن أن يكون ابن إسماعيل عبد الصبور إن ابن إسماعيل عبد الصبور لا يمكن أن يكون كبقية الشبان إنه نوع آخر صنف آخر وابتسم في فرح وانطلاق إنه منذ سنوات وهو يتمنى فعلًا أن يطلق شعر رأسه كان مقتنعًا أن إطلاق الشعر هو نوع من إثبات شخصية الجيل الجديد وكل جيل من حقه إثبات شخصيته وفرض مزاجه وقد قرأ أن الجيل السابق جيل والده عاش أيضًا في تقليعة يرفضها الجيل الذي سبقه تقليعة البنطلونات الواسعة التي كانت تسمى شارلستون، وتقليعة إلصاق شعر الرأس بدهن «البريانتين» و«الفازلين»، وكان الجيل الأسبق يتهمهم بالخنوثة والميوعة وأنهم ليسوا رجالًا من يدري ربما كان أبوه قد لبس البنطلونات الشارلستون ودهن شعر رأسه بالبريانتين، ولكن كل جيل ينسى شبابه بمجرد أن يتعداه إلى الشيخوخة ولكن الواقع أن أباه لم يحذره أبدًا من إطلاق شعر رأسه وذقنه إنما هو نفسه كان مقيدًا بشخصية أبيه إلى حد أنه كان يحرم على نفسه أن ينطلق مع تقاليع الشباب

وربما كان أول ما بدأ يحس به من مسئولية كاملة هي مسئوليته عن نفسه وعن حياته العادية إنها المرة الأولى التي يعيش فيها وحيدًا وهو المسئول عن إعداد إفطاره وغدائه وعشائه، وتنظيف البيت وإعداد فراشه وغسل ثيابه وقد احتار أمام مطالب صغيرة لم يكن يحس من قبل بأهميتها، وكان يضحك ويسعى إلى مطالبه كأنه كريستوف كولومبوس يسعى إلى اكتشاف عالم جديد وعندما تشتد به الحيرة كان يلجأ إلى الخفير وزوجة الخفير، ولم يحاول أبدًا أن يكون له خادم إنه يريد أن يكون نفسه ولكنه يفتح عينيه مفكرًا في مصيره ويسعى إلى مطالب حياته اليومية مفكرًا ويخرج إلى الشاطئ يجري ويسبح وهو يفكر وكان يترك العجمي أحيانًا في الليل وبعد أن طال شعر رأسه ويتجول في حي المكس أو يصل إلى حي محرم بك في الإسكندرية ودائمًا على قدميه أو في أتوبيس وأحيانًا في تاكسي، فقد كان من بين القرارات التي اتخذها ألّا يأخذ سيارة من بيت أبيه ويتناول العشاء في مطعم شعبي وهو مطمئن إلى أن أحدًا لن يعرفه ولن يكتشفه، وعلى كل حال فهو لم يكن معروفًا خارج مجتمع أبيه ومجتمع زملائه في المدرسة أو الجامعة، فلم تكن صوره تنشر في الصحف، ولم يكن قد قام بعمل يلفت نظر الناس إليه وهو دائمًا يفكر وعندما يريد أن يستريح من التفكير يقرأ وكان يختار كتبًا متعددة الموضوعات لا يستقر على موضوع واحد وكان يجيد اللغة الإنجليزية، ويخطر على باله مرة أنه يمكن أن يكون عالمًا فلكيًّا فيشتري كتابًا في الفلك ولا يتم قراءته وأحيانًا يخيل إليه أن في داخله نزعة إلى الأدب فيقرأ في القصص أو في التاريخ أو في الهندسة الميكانيكية ولكنه لا يتم كتابًا أبدًا والجديد الذي طرأ عليه أنه بدأ يقرأ إعلانات الوظائف الخالية التي تنشر في الصحف كان من بين

ما يخطر على باله أن يبدأ بوظيفة صغيرة على أن يبقى مجهولًا لا يعرف أحد سر أبيه

وكان يحرص على أن يتصل بوالدته بالتليفون مرة كل أسبوع ليطمئنها، ووالدته تستمع إليه في فرحة، وأيضًا في استسلام فهي لا تسأله عن أكثر مما يريد أن يقوله لها تخاف إن سألت أن يهرب منها هي أيضًا كما هرب من أبيه وكانت تعلم أنه يقيم في الإسكندرية ولكنه لم يقل لها في أي مكان في الإسكندرية، ولم تسأله يكفي أنه يطمئنها على نفسه، وكانت كل مرة تعبر عن لهفتها إليه أن تسأله في نهاية كل مكالمة

- ألا تريد شيئًا يا أشرف؟

ويرد في صوت مرح متفائل

- أبدًا يا ماما

وقد مضى حوالي شهر على غيبته، والمائة جنيه التي خرج بها على وشك أن تنتهي وهي معجزة في تقدير أمه أن يعيش كل هذه الأيام بمائة جنيه فقط وتصورت أنه وجد عملًا يتكسب منه أو ربما يعيش في رعاية بعض أصدقائه ودائمًا قلقة كيف يستطيع أن يعيش بمائة جنيه فقط ودائمًا تخاف أن تسأله إن ابنها ليس طبيعيًّا وقد يثيره السؤال

ولم يكن أشرف يتعمد التوفير ولم يتعمد أيضًا النزول عن مستوى الحياة التي كان يعيشها والتي لا يمكن أن تكفيها مائة جنيه خلال شهر ولكن هذه هي الحياة التي يعيشها دون تعمد ولا يحتاج فيها لأكثر مما ينفقه ولكن المائة جنيه انتهت والخفير في انتظار العشرين جنيهًا قيمة الإيجار ليس أمامه إلّا أن يلجأ إلى أمه ولكن كيف يلتقي بها ليأخذ منها ما يريد ووضع الخطة سيطلب منها أن تأتي إلى الإسكندرية وتقيم في بيتهم هناك ويقابلها خارج البيت حتى لا يكتشفه العسكري الواقف على الباب يقابلها في المساء وفي سيارة تاكسي حتى لا يعرف أحد أن ابن إسماعيل عبد الصبور قد أطلق شعر رأسه وذقنه لا لن يقابلها في الطريق داخل حدائق المنتزه واستقر على الخطة وقال لأمه في التليفون وهي تسأله

- ألا تريد شيئًا يا أشرف؟

وقال ضاحكًا

- أفلست يا ماما أفلست قبل أن أصل إلى رأي

وقالت في ذعر

- اطلب يا أشرف اطلب كم تحتاج يا حبيبي

وأصر على أنه لا يريد أكثر من مائة جنيه أخرى، وحدد لها خطة اللقاء، واستسلمت للخطة بلا مناقشة إنها على الأقل سترى ابنها الوحيد

وهناك بين أشجار مدينة المنتزه وقفت أمامه تنظر إلى شعره الطويل وذقنه المهذبة نظرات حائرة كأنها تبحث عن ابنها الذي تعرفه. ثم ألقت نفسها فوق صدره تبكي، وقالت من خلال دموعها كأنها تخاف أن تغضبه بدموعها

- إني أبكي فرحًا يا أشرف أوحشتني يا ابني

وهو يقبلها في كل مكان من وجهها ويرفع يدها ويقبلها وهي تنظر إلى شعره الطويل وتضحك ضحكة خافتة وتشد خصلة منه وتقبلها، ثم تمسح بأصابعها في ذقنه قائلة

- هذه الذقن تجعل من أمك امرأة عجوزًا

ويتضاحكان ويسيران تحت الأشجار كأنهما عاشقان ويروي لها كل حياته أين يعيش وكيف وتضحك حتى تخفي حسرتها وجزعها عليه وتسأله في تردد خشية أن يفسر تساؤلها كأنه لوم

- هل أنت سعيد بهذه الحياة؟ !

وقال ضاحكًا

- على الأقل أصبحت لا أستطيع أن أنسب شيئًا مما يضايقني إلى أبي أنا المسئول وحدي عن نفسي وكل ما ينقصني هو أنت

واستمر لقاؤهما طويلًا، وربما تعمدت الأم أن تطيل فيه لعله يرضى في النهاية أن يعود معها إلى البيت لقد تجاوز الليل منتصفه وقد لا يرضى أن تعود أمه وحيدة ولكنه تركها تعود وحدها وقالت وهو يصحبها إلى قرب سيارتها التي جاءت بها وهي تقودها بنفسها تنفيذًا للخطة التي وضعها

- هل أراك غدًا؟ !

قال وهو يسحب ابتسامته ويبدو جادًّا

- لا

قالت في استجداء

- إني سأبقى بضعة أيام في الإسكندرية

قال وهو أشد حزمًا

- أرجوك يا ماما عودي غدًا إلى أبي

قالت ودموعها تكاد تطفر

- ولكني لم أشبع منك

قال

- لنتعود إنها حياة جديدة لا تضطريني أن أختفي في بلد آخر .

واحتضنها بسرعة وقبلها، ثم تركها مبتعدًا وجرى وراء أتوبيس وتعلق به ودخلت الأم إلى سيارتها وألقت رأسها فوق عجلة القيادة وبكت

وعادت إلى القاهرة في اليوم التالي إطاعة لأمر أشرف وحتى لا يفر إلى بلد لا تعرفه، وعندما التقت بزوجها إسماعيل عبد الصبور قالت وهي تحاول أن تتغلب بفرحتها على حسرتها

- عرفت أين يقيم أشرف إنه في العجمي

وقال إسماعيل عبد الصبور في برود

- أعرف

وقالت في دهشة

- كيف عرفت؟ !

قال كأنه يتهمها بالغباء

- طبعًا أستطيع أن أعرف كل شيء

قالت

- ولماذا لم تقل لي؟ !

قال

- فضلت أن تعرفي منه هو إنها إحدى وسائل العلاج النفساني أن يتأكد من أنه أصبح أقوى مني إلى حد أني لا أعرف مكانه وقد خشيت أن يعرف منك أني أعرف أعرف كل شيء

وتنهدت في ألم وقالت في يأس

- لعلك تكتشف لي علاجًا أنا الأخرى !

*

وفي العجمي في يوم من أيام الشتاء والشاطئ يكاد يكون خاليًا من الناس تعرف أشرف إلى دينوس وعائلته إنها عائلة يونانية تقيم في الإسكندرية وتملك بيتًا في العجمي قريبًا من البيت الذي استأجره أشرف، تقضي فيه عادة إجازة نهاية الأسبوع يومي السبت والأحد وكان أشرف جالسًا أمام بيته ينظر إليهم من بعيد ويبتسم وهو يتتبع صياحهم ورقصاتهم إن عددهم كبير شيوخ وشبان وأطفال وكانت ابتسامته تنبض بالحسرة على نفسه إنه لم يعش أبدًا مثل هذه الحياة العائلية المرحة ولم يجرب إجازة نهاية الأسبوع الخميس والجمعة إن عائلته في يوم الجمعة تعودت أن يهرب كل واحد فيها من الآخر وأبوه يصبح يومها ودمه أثقل من أي يوم آخر، كأنه لا يحاول أن يستريح من متاعب الأسبوع الذي مضى ولكنه يجمعها فوق رأسه

وخرج دينوس من بين الشلة واقترب من أشرف وقال وهو ينطق بالعربي في لهجة تتراقص فيها الموسيقى اليونانية

- من فضلك هل تعرف أحدًا نستأجر منه أنبوبة بوتاجاز اكتشفنا أن الأنبوبة عندنا فارغة

وقال أشرف

- إن الخفير يعرف كل شيء هنا

وقال دينوس

- إذن لأبدأ البحث عن الخفير شكرًا

وقبل أن يبتعد استوقفه أشرف قائلًا

- تستطيع أن تستعمل البوتاجاز الذي عندي إني لست في حاجة إليه اليوم والخفير قد لا تجده الآن

وتبادلا كلمات سريعة ثم دخل دينوس مع أشرف إلى المطبخ وحملا أنبوبة البوتاجاز، كل منهما من ناحية، وعادا بها إلى البيت الآخر واستقبلتها العائلة بالتهليل المرح، وعزف واحد منهم على «البازوكا» لحن السلام الملكي القديم تحية لأنبوبة البوتاجاز ووقف أشرف بينهم ضاحكًا حائرًا إلى أن تقدم إليه الرجل الكبير لعله الأب يقدم له كأسًا من نبيذ الريتسينا صائحًا

- في صحة البوتاجاز وفي صحتك

وشرب الكأس ضاحكًا، وفي لحظات أحس كأنه واحد منهم واللغة اليونانية تملأ أذنيه كلهم يتكلمون في وقت واحد، وكل منهم لا يكف عن الكلام أبدًا وينتبهون إلى وجوده بينهم فيطلقون بضع كلمات بالعربية ثم يعودون بسرعة إلى إطلاق قذائف يونانية إن اللهجة الجريكية أشبه بقذائف المترليوز ويحاول أن يلتقط أسماء كل منهم دينوس بانايوتي بابادوبلو تاكي مارينوس وأسماء البنات صوفياس جوانا ماريا أتني كاتيا إنه يحس وسط كل هؤلاء كأنه طار بعيدًا عن مصر بعيدًا عن أبيه إنه الآن في أثينا وعيناه تطوفان بشوارع أثينا ثم تتوقفان طويلًا عند كاتيا شيء في داخله يشده إليها خيل إليه أنها أجمل بنات العائلة أهدأهن على الأقل إنها أقل البنات ثرثرة والجميع في حاجة دائمة إليها كاتيا كاتيا كاتيا وهو لا يدري ماذا يطلبون منها ولكنها تتحرك دائمًا والتفت إليها مرة فوجدها هي الأخرى تنظر إليه من بعيد وتعلقت عيناها بعينيه وبينهما ابتسامة !

وخرجوا جميعًا إلى الشاطئ يلعبون الكرة، ويتسابقون، ويقفز أحدهم فوق الآخر، ويتحدون أحدهم الآخر من منهم يقبل أن ينزل البحر في عز البرد رهان وقبل أشرف الرهان ونزل إلى البحر وخرج وهو يقاوم رعشته وكانت قيمته الرهان أن تسقيه كل فتاة من العائلة كأسًا من الريتسينا وصاحت كاتيا، بينهم بكلمات كثيرة جريكية لم يفهم منها شيئًا، ثم تقدمت إليه تحمل كأسًا وقالت في لغة عربية لغة تتعثر كلماتها فوق لسانها حتى اضطرت أن تقلبها إلى اللغة الإنجليزية

- أخاف عليك أن تسكر لا شك أنك لست متعودًا على شرب الريتسينا كأس واحدة تكفي كأسي

وشرب الكأس وقال ضاحكًا

- أحس كأني عندما ولدت أرضعوني ريتسينا

وضحكت وقالت كأنها أمهم التي أرضعته

- قم نلعب الراكت حتى تدفأ

وقام يلعب معها الراكت والجميع يهللون من حولهم برافوا أشرف أشرف نرجوك لا تهزم كاتيا وكان قد قدم نفسه إليهم باسم أشرف إسماعيل، ولم يتم بقية الاسم كأنه يداري عورته وترك كاتيا تغلبه أو هكذا أقنعته، ولكن الواقع أنها غلبته

والتفت معهم حول أطباق طعام الغذاء وعرف أن الكباب الجريكي اسمه سوفلاكي وأحس أن أطعم سلاطة ذاقها هي السلاطة الجريكي التي يضاف إليها الجبن

وفي العصر والجميع في راحة وقد سكتت طلقات المترليوز الجريكية كان نينوس ممددًا بجانب أشرف على الشاطئ يروي له قصة عائلته إنهم كلهم ولدوا في مصر منذ أيام أجدادهم وهم في مصر وكان أبوه وعمه يعملان في البورصة ويديران شركة كبيرة لأعمال التصدير والاستيراد، ويمثلان شركات للنقل البحري ثم في عام 1960 شملهم التأميم صودر كل ما يملكون واضطروا إلى الهجرة إلى اليونان ما عدا العم، فقد أصر على أن ينهي حياته في مصر واستسلم لضياع أمواله واكتفى بأن أصبح شريكًا لصديق يوناني يملك مقهى ومطعمًا في الإسكندرية قريبًا من محطة الرمل والذين عادوا إلى أثينا أحسوا أنهم غرباء هناك حتى الشباب منهم لقد نجحوا في أعمال كثيرة ضخمة هناك ولكنهم دائمًا غرباء، وأهل أثينا أنفسهم يعتبرون الجريك الوافدين من مصر غرباء، بل يحاربونهم ويحاولون قطع أرزاقهم، وبما إن جريك مصر هم أمهر وأرقى من جريك اليونان أنفسهم، على الأقل يتميزون بإجادة اللغات الأجنبية التي أصبح العمل في اليونان يحتاج إليها احتياجًا أساسيًّا، في حين أن عدد الذين يجيدون اللغات هناك لا يكفي

واستطرد تينوس يروي القصة إنهم برغم نجاحهم في بلادهم قرروا العودة إلى مصر بمجرد أن شعروا بالاطمئنان وعاد معظمهم لا ليطالبوا بممتلكاتهم التي ضاعت منهم ولكن ليبدأوا العمل فيها من جديد

وضحك تينوس قائلًا

- هل تعلم ما هو مشروعنا الجديد؟! إنشاء مطعم ومقهى جديد. مطعم كبير فخم من المطاعم السياحية العالمية إن عمي بعد أن اشترك في إدارة المقهى الصغير أصبح يؤمن بأن المقاهي والمطاعم أكثر ربحًا من الشركات العالمية

وقال أشرف في تردد

- وكاتيا هل ولدت في مصر؟ إن لغتها العربية ضعيفة

وقال تينوس وهو ينظر إليه كأنه يفهمه

- كاتيا لم تكن قد تجاوزت عامًا واحدًا من عمرها عندما أخذناها إلى أثينا وبرغم ذلك فقد كبرت وكأنها تعيش في مصر إن مصر في دمنا

والأفكار تتضارب في رأس أشرف كأنه وجد الطريق الذي يحدد من خلاله مصيره كأنه هو الآخر مثل باقي أفراد العائلة عاد إلى مصر بعد أن ولد فيها وغاب عنها طويلًا ولم يخلص من أفكاره إلّا عندما بدأ الغروب وبدأت العائلة تعود إلى نشاطها ومرحها وسهر معهم على نغمات البوزك يسمع أغاني البوزوكا، ويحاول تقليد رقصات الكلاماتيانوس والسيرتاكي والكاسبيو ويرقب كل شيء كأنه قرر أن يتعلم كل شيء أن يصبح جريكيًّا وكاتيا ترقص معه وتعلمه خطوات الرقصات اليونانية وتضحك، ودائمًا تعامله كأنهامسئولة عنه كأنها أكبر منه إنه حائر فيها ولا حتى ابتسامة تعطيها له لتشجعه عليها إنما ابتسامتها كلها كأنه الأخ الأصغر أو كأنه تلميذ يتعلم الحياة

وبرغم أن تينوس روى قصته لأشرف فهو لم يحاول أن يسأل أشرف عن أي قصة لم يحاول حتى أن يسأله من هو ربما لأنه حتى الآن لم يكن يهمه أن يعرف

وعادت العائلة كلها إلى الإسكندرية في مساء الأحد

ولم يحتمل وحدته أكثر من يومين لم تعد أفكاره ولا قراءاته ولا إحساسه بمسئوليته عن نفسه يمكن أن تشغله واتصل بتينوس ودعاه إلى العشاء في مطعم المكس هو وماريا وكاتيا ثم انتظرهم في شوق لقضاء إجازة نهاية الأسبوع في العجمي ثم أصبح يزور تينوس في بيته في الإسكندرية لم يعد حريصًا كل هذا الحرص على الاختفاء في العجمي يكفي شعره الطويل وذقنه لإخفاء شخصيته وكاتيا تعبر عن مسئوليتها عنه أكثر وأكثر إنها أيضًا تشرف

على إدارة البيت الذي يستأجره وتتعمد أن تترك له كل مساء أحد كثيرًا من قطع الجبن التي يحبها وعددًا من زجاجات النبيذ التي تكفيه بقية الأسبوع لم يعد يستطيع أن يستغني عن النبيذ مع طعامه كأي واحد من أفراد الشعب اليوناني

ولم تعد المائة جنية تكفيه ثم أحس بحاجته إلى سيارة ولم يقاوم حاجته، طويلًا اتصل بأمه وجاءته في لهفة والتقت به في حدائق المنتزه طبقًا لنفس الخطة السابقة وروى لها عن صداقته الجديدة بالعائلة اليونانية، وأخذ منها مائتي جنيه لا مائة وعندما همت أن تودعه وتركب السيارة الصغيرة دون أن تعرض عليه أن يأتي معها خوفًا من أن يرفض، فاجأها بقوله

- دعيني أقود السيارة حتى أوصلك إلى البيت وسآخذ السيارة لأني في حاجة إليها

وفرحت أمه فرحت لأنه سيخلص نفسه من بهدلة ركوب الأوتوبيسات والتاكسيات وربما كانت تتمنى أكثر منه أن يأخذ السيارة، فهي سيارة تترك دائمًا في بيت الإسكندرية ليستعملها الموظفون في فترات الصيف إن أشرف بدأ يفيق من جنونه لا شك أنه بدأ يفيق ما دام يطلب سيارة من بيت أبيه

وأشرف يحادث نفسه وهو يقود السيارة عائدًا إلى العجمي يجب أن يعترف بأنه حتى الآن لا يستطيع أن يستغنى عن أبيه لا يستطيع أن يعيش إلّا بفضل أبيه ولابد أن أباه يعلم بما تعطيه له أمه من نقود، ولابد أنه سيعلم بأنه أخذ هذه السيارة إنه ليس مغفلًا حتى يتصور أن أمه تستطيع أن تخفي شيئًا عن أبيه لا يهم إنه على الأقل أصبح حرًّا هو الذي يطلب أو لا يطلب لم يعد عبدًا للمظاهر ولا لما تعرضه عليه شهرة أبيه ولم يعد يتلقى أوامر من أحد وتحسس شعر رأسه الطويل وذقنه المهذبة وابتسم ساخرًا ربما كان هذا هو كل ما وصل إليه من حرية أن يطلق شعر رأسه حتى لو كان ابن إسماعيل عبد الصبور وسحب ابتسامته الساخرة وامتلأت عيناه بنظرات جادة وهو يقول لنفسه لا تيأس إنك لم تبدأ بعد لم تمض سوى ثلاثة شهور على حريتك والأمل كبير في أن تتحرر من أبيك تحررًا كاملًا أن تعمل وتكسب لا تفقد الأمل

وكان على موعد مع كاتيا في اليوم التالي كان يوم سبت واتفقت معه على أن تأتي إليه في الصباح الباكر قبل أن تصل بقية العائلة، حتى تعد معه بيته وبيتهم ولكنها ما كادت تصل حتى أخذها من يدها وأركبها بجانبه السيارة ثم انطلق بها كالمجنون وقالت تسأله في هدوء كأنه لم يفاجئها بشيء

- إلى أين؟

وقال دون أن ينظر إليها

- لا بد أن نصل إلى شيء

وقاد السيارة بجنون حتى وصلا إلى شاطئ العلمين، ثم توقف ونزل من السيارة ونزلت معه واتجه بها إلى مقبرة قتلى الحرب ثم توقف بين أعمدة الصلبان التي ترتفع فوق القبور، وواجهها قائلًا

- كل هؤلاء شهداء وأنا لا أريد أن أكون شهيدًا !

قالت وهي تبتسم ابتسامة هادئة

- ماذا تقصد؟

قال

- إن الشهيد هو ضحية لحظة جهل أعمته عن الرصاصة التي قتلته وأنا أعيش منذ أكثر من شهرين وأنا في جهل لا أدري أين أنا منك، ولا أين أنت مني كل هذا وأنا لا أدري هل تحبينني كما أحبك

وأرخت عينيها وقالت بعد لحظة صمت كأنها تفكر فيما يمكن أن تقوله، وكلماتها تتعثر بين العربية والإنجليزية

- إني أعيش في جهل أوسع من جهلك إني إلى الآن لا أعرفك مجرد لقاء مصادفة جمعنا داخل الشلة وبرغم ذلك عرفت أني أحببتك ولكني فضلت أن أداري حبي حتى أعرفك أكثر إني لا أعرف عائلتك ولا أعرف بماذا تعيش ولا أريد أن أسألك لا أنا ولا أبي ولا أمي يريد واحد منا أن يسألك إنها حريتك وصداقتك ممتعة واكتفى الجميع بهذه الصداقة. أنا وحدي التي لا أكتفي بها ولكني أحمي نفسي بها

وقال في حدة

- لا أستطيع أن أقدم لك طلب حب على ورقة رسمية أسجل فيها اسمي واسم عائلتي والشهادة التي حصلت عليها وقيمة دخلي وأملاكي أنا لا أبحث عن وظيفة حبيب لك لقد قدمت لك شخصيتي كاملة، فإما أن تحبي هذه الشخصية أو ترفضيها أو تكتفي بصداقتها وتصوري أني في حالة نفسية تدفعني أن أهرب من نفسي حتى لا أريد أن أفصح عنها أمامك تصوري أني مريض ومرضي يجعلني غير قادر على أن أ قول من أنا بل قد أكون قد أخفيت عنك اسمي ولكن الحب يتسع حتى للمرضى !

ونظرت إليه طويلًا وعيناها تضمانه إليها في حب وقالت كأنها تهمس

- إنك لست مريضًا ولكنك في معركة لا أدري سرها هذا ما أحس به وقد قررت أن أقف معك حتى تنتهي المعركة وبعدها أعرفك كلك بعد أن ترفع عنك ثياب وأقنعة الحرب وأنا متأكدة أنك لن تكون شهيدًا ولا أنا فتعالى نخرج من هنا من حديقة الشهداء

واستدارت وهو معها وسارا بعيدًا عن قبور قتلى الحرب إلى أن أصبحا بين أشجار التين البرشومي الممتدة حتى الشاطئ، وقال وصوته لا يزال ثائرًا

- إن الحب لا ينتظر حتى تنتهي المعركة أو حتى يشفى المريض

ومدت يدها ووضعتها في يده وهي تهمس

- ومن قال إنه يستطيع أن ينتظر

وتوقف بها عن السير ونظر إليها طويلًا وهمس هو الآخر

- هل أستطيع؟

وشفتاها تتطلعان إلى شفتيه لم يعد فيهما سوى شفاه وكانت القبلة الأولى بعد كل هذه الأيام التي جمعتهما وسقطا مع قبلتهما تحت شجرة التين

وتحركت بين ذراعيه قبل أن تصل القبلة إلى باقي جسديهما وهذا ما عودته عليه دائمًا أن يكتفيا بالشفاه وقامت تجري ضاحكة وهو يجري خلفها إلى أن وصلا إلى السيارة

وقال وهما في طريق العودة

- لقد وجدتك بقي أن أجد نفسي

قالت كأنها تثير حماسه

- وجدت الصعب وبقي السهل

*

وقد اعترفت العائلة اليونانية بأن كاتيا أصبحت لأشرف اعترافًا صامتًا قد يثير نكاتًا حلوة يطلقونها أحيانًا على تصرفات كل منهما نحو لآخر وهو دائمًا معهم، وقد بدأ من خلال أحاديثهم يكتشف عالمًا واسعًا لرجال الأعمال إنهم لا يقصرون نشاطهم في مشروع المطعم والمقهى الكبير، ولكنهم وكلاء عن شركة فرنسية تتطلع إلى بناء مدينة سياحية كاملة على ساحل البحر الأحمر إنه مشروع تصل تكاليفه إلى أكثر من ثلاثين مليونًا من الدولارات، ولو استطاعوا تحقيقه فإن العمولة التي يحصلون عليها لا تقل عن نصف مليون وهو يستمع إلى كل هذا وليس له أن ينتقل بكل فكره إلى هذا العالم الجديد عليه بل إن كل أحاديثه مع كاتيا حتى في خلوتهما كانت تدور حول هذا العالم كأنه يحاول أن يتعلم منها ما لا يستطيع أن يتعلمه من أخيها أو من أبيها وينام وهو يفكر ويصحو وهو يفكر إن كل هذه المشروعات التي يتحدثون عنها يمكن أن يحققها أبوه ببساطة ولكنه لا يريد أن يلجأ إلى أبيه إن مشروع المطعم يعتبر صغيرًا بالنسبة لمشروع المدينة السياحية، مشروع ليس في حاجة إلى تدخل أبيه، فلماذا لا يشترك فيه؟ !

وجلس مع صديقه دينوس وعرض عليه أن يدخل معهم شريكًا في المطعم السياحي وعرض أن يساهم بعشرة آلاف جنيه، وقال كأنه يغري دينوس

- إني لا أريد ربحًا، ولكني فقط أريد أن أتعلم

ووعد دينوس أن يعرض الموضوع على بقية العائلة: ثم غاب أيامًا أيامًا طويلة وعاد يعلن أشرف بأن العائلة قررت أن تقبله شريكًا في مشروع المطعم

واتصل بأمه في التليفون، وكان صريحًا برغم أنه يعلم أن التليفون يضم في داخله شريط تسجيل وقال لها إنه يعلم أنها تحتفظ بمبلغ باسمها الخاص وهو في حاجة إلى هذا المبلغ ليساهم في مشروع وروى لها كل تفاصيل المشروع، واتفق معها على لقاء، وفي هذه المرة لم يتمسك بلقاء حدائق المنتزه، إنه سيلقاها في بيت الإسكندرية

وقالت الأم لزوجها ورد إسماعيل عبد الصبور فورًا

- أعرف إنه مشروع مطعم أعطه ما يريد ولكن النصيحة أن يبقى مشروع الشركة سرًّا بينه وبين شركائه الجريك

وسافرت الأم إلى الإسكندرية، وذهب أشرف للقائها في البيت، ولم يهتم كثيرًا عندما أدى له العسكري الواقف على الباب تحية تعظيم سلام

واقتنع بما نصحته به أمه واتفق مع دينوس ووالده بابا دوبلو على أن تبقى الشركة في اتفاق خاص بينهما ولا تسجل رسميًّا

وتركوه حرًّا في أن يختار العمل الذي يريد أن يساهم به، وقد اكتفى بأن يكون كل عمله هو أن يتعلم ويفهم، وبدأ يراجع أوراق المصروف والإيراد وعمليات استيراد ما يحتاج إليه المطعم، وتكاليف العمالة بدأ يدرس العملية كلها ووجد عقله يتفتح ويستوعب بسهولة كل ما يتعلمه، حتى أنه اكتشف أنه كان مخطئًا بالنسبة لنفسه عندما اختار يومًا ما أن يكون مهندسًا والتحق بكلية الهندسة، ربما لو كان قد التحق بكلية التجارة لجذبته أكثر ولما فر منها

والعائلة كلها صاحبة المشروع تبدي إعجابها به دون نفاق، وتستجيب بسرعة لأغلب اقتراحاته ولكن هناك فكرة للتوسع في المشروع لم يستطع أحد منهم أن يحققها ففوق المطعم الذي يقع على الشارع دور كامل من العمارة يشمل ثلاث شقق كانت الحراسة قد استولت عليها وأجرتها للمحافظة التي تستعملها كمكاتب لأرشيف السجلات لو استطاعوا أن يأخذوا هذه الشقق الثلاث ثم يصلون بينها وبين المطعم الأصلي الواقع إلى الشارع، لأقاموا أكبر مطعم في الإسكندرية بل واحدًا من أكبر وأفخم مطاعم العالم وقد حاولوا كثيرًا ودفعوا كثيرًا من مقدم العمولات أي من الرشاوي، حتى يقنعوا مكتب الحراسة بإلغاء إيجار المحافظة لهذه الشقق ليستأجروها ولا أمل

وشغل أشرف كل فكره بهذا المشروع توسيع المطعم السياحي يعتبر فعلًا خطوة وطنية أجدى على البلد من الاحتفاظ بهذه الشقق كمخازن للأرشيف لا يهم أن يتم هذا العمل الوطني على يد شركة جريكية أو فرنسية أو إنجليزية ولا تهم أرباحه هو شخصيًّا إن أرباحه بمجرد أن ساهم في الشركة تصل إلى مائة جنيه في الشهر وقد فوجئ بهذا الربح السهل عندما أعطاه بابا دوبلو نصيبه خيل إليه أنهم يشترونه، أو على الأصح يرشونه، ولكنه عند مراجعة حسابات المطعم اكتشف أنه يستحق فعلًا هذا المبلغ وهو ليس في حاجة إلى أكثر منه. وتفكيره في التوسع ليست دوافعه زيادة الربح إنما هو اندفاع وطني لتحقيق مصلحة وطنية

وارتدى في الصباح بدلة كاملة على غير عادته وذهب إلى الحلاق وقص شعره إلى أن أعاده إلى حالته الطبيعية ثم حلق ذقنه هل تخلى عن شخصيته التي حاول أن يخلقها وأجاب نفسه بلا إنه فقط وجد الطريق الذي يسير فيه

وسار إلى مكتب المحافظ، ونظر إليه السكرتير في امتعاض

- أفندم

وقال أشرف في هدوء

- أنا أشرف إسماعيل عبد الصبور

وقفز السكرتير واقفًا وهو يقول في تلجلج

- تشرفنا يا أفندم اتفضل

وقاطعه أشرف

- هل أستطيع مقابلة السيد المحافظ؟

وقال السكرتير في رعشة

- طبعًا يا أفندم طبعًا دقيقة واحدة

ودخل السكرتير إلى مكتب المحافظ. ثم عاد مهرولًا

- اتفضل يا أفندم

وكان السيد المحافظ مجتمعًا ببعض موظفيه وقام من على مائدة الاجتماع يستقبل أشرف مرحبًا ثم التفت إلى الموظفين قائلًا

- الاجتماع يعتبر مستمرًّا إلى أن أدعوكم

وخرج أعضاء الاجتماع وتفرغ المحافظ لأشرف وروى له أشرف كيف اكتشف أن هناك مصالح وطنية معطلة وأنه يجب تحقيقها حتى مع تحدي اللوائح البالية وعليه فيجب إخلاء الشقق الثلاث من موظفي الأرشيف ليقام مكانها مطعم عالمي سياحي يفتح للبلد صنبورًا من العملة الصعبة

واقتنع السيد المحافظ بسرعة، ولكنه أمهل أشرف يومين حتى يراجع المسئولين في الوزارة

وكان أشرف يعلم أن أباه إسماعيل عبد الصبور لا بد سيعلم بهذا المشروع بل وسيعلم أنه ذهب بنفسه للقاء المحافظ وقرر أشرف أن يثبت حسن نيته وأن يعترف بأنه في حاجة دائمًا إلى أبيه، فاتصل بأمه وروى لها تفاصيل المشروع وهو واثق أنها ستبلغ به والده

وعاد إسماعيل عبد الصبور يقول بعد أن استمع لزوجته

- عارف وأنا موافق الولد ابتدى يشتغل جد

ووافق المحافظ على المشروع بعد يومين

ولم تصدق عائلة بابا دوبلو الخبر وكادت تجن من الفرح عندما صدقته، وأقاموا حفلًا عائليًّا حول برميل كامل من النبيذ تحية لأشرف، وقال بابا دوبلو كأنه يلقي خطابًا رسميًّا إنهم كانوا قد خصصوا ميزانية تبلغ قيمتها ثلاثين ألفًا من الجنيهات للحصول على هذه الشقق وأصبح هذا المبلغ كله من حق أشرف

ورفض أشرف أن يتقاضى كل هذا المبلغ، وقال إنه عضو مساهم في الشركة وما يعود على الشركة يعود عليه، ومع إصرار أشرف قررت العائلة أن تضيف الثلاثين ألفًا إلى نصيب أشرف من الشركة وقام بابا دوبلو وهو ينظر إليه كأنه لم يكن يصدق أن أشرف له مثل هذا الذكاء

- هذا أفضل لك لقد أصبحت ابن سوق إن نصيبك الآن في الشركة يساوي ضعف نصيب ابني دينوس

ولم تكن فرحة أشرف بما كسبه ولكنه كان فرحًا بأنه استطاع أن يثبت شخصيته بعيدًا عن أبيه لقد قال أبوه إنه وهو في العشرين من عمره استطاع أن يكون شخصية منفصلة عن أبيه إنه هو الآخر استطاع أن ينفصل وهو في الثانية والعشرين لعله لم ينفصل تمامًا إن مشروع الشقق لم يمكن أن يتم إلّا إذا كان قد قص شعره وحلق ذقنه ليبدو أنه ابن أبيه ولكن ليس أبوه هو الذي فكر في المشروع وليس أبوه هو الذي قدمه إلى عائلة بابا دوبلو إنه الآن شخصية تفكر لنفسها

وكاتيا تنظر إليه من بعيد وهي تبتسم في صمت ابتسامة لا تعبر عن شيء لا عن فرح ولا عن قلق وأخذها أشرف إلى خارج الحفل وقال وهو يرفع يدها ويضع أصبعها بين شفتيه

- كاتيا لنعلن خطبتنا الليلة ونتزوج الأسبوع القادم لقد فكرت في كل شيء سأجد شقة لنا غدًا من السهل أن آخذ شقة خالية وإلى أن يتم تأثيثها نسافر إلى الخارج إلى الريفيرا في فرنسا بعيدًا عن هنا

ولم تنطلق كاتيا بالفرحة كما كان يتصور، وقالت كأنها تهم بالبكاء

- إني خائفة !

وقال أشرف في دهشة

- خائفة من ماذا؟ !

قالت وهي لا تنظر إليه

- لا أدري ولكنك منذ قصصت شعرك وحلقت ذقنك وأنا أحس أنك ابتعدت عني

وقال مبتسمًا

- إنك دائمًا تعيشين في شك من كل من حولك اسمعي سأقول لك كل شيء إن اسمي الكامل هو أشرف إسماعيل عبد الصبور ابن إسماعيل عبد الصبور طبعًا معروف وكنت قد هربت من البيت حتى أثبت شخصيتي بعيدًا عن شخصية أبي وأعتقد أني نجحت

وقاطعته كاتيا في صوت خفيض

- إني أعرف !

وقال في دهشة

- تعرفين ماذا؟ !

قالت

- أعرف كل شيء عنك

قال والدهشة تستبد به كأنه تلقى صدمة

- منذ متى؟ !

قالت

- منذ دخلت الشركة مع عمي بابا دوبلو كان مستحيلًا أن يقبلوك دون أن يعرفوك

قال

- ولماذا لم يصارحوني بأنهم عرفوا

قالت

- كانوا في انتظار أن تصارحهم أنت هذا حقك

وابتسم أشرف ابتسامة يسخر بها من نفسه لعلهم لم يقبلوه شريكًا إلَّا بعد أن عرفوا أنه ابن إسماعيل عبد الصبور لا يهم يجب أن يتخلص من هذه العقدة المهم أنه حقق أرباحًا ويستطيع الآن أن يعتمد على نفسه وقال لكاتيا كأنه يواسي نفسه

- مهما كان فلنعلن خطبتنا الآن

وعادت تقول

- إني خائفة !

ثم فجأة انطلقت تتحدث باللغة اليونانية تكلمت كثيرًا كأنها لسان إبرة جرامفون وقفت على أسطوانة مشروخة وأشرف يصرخ فيها ماذا تقولين؟! ماذا جرى لك؟! وهي مستمرة في الكلام باليونانية حتى رفع أشرف كفه وصفعها صفعة قوية، وقالت ودموعها تفيض على خديها

- إني أستطيع أن أتكلم بلغة لا تفهمها طول عمري، فكيف نتزوج؟ !

وقال يحيطها بذراعه في حب

- ولكني أستطيع أن أتعلمها بل تعلمت الكثير منها وأحببت كل شيء جريكي أحببت الريتسا والسوفلاكي والتارامو، والموزاكا وأحببت البوزك والسيرتاكي والكاسابيو والكلامابتانوس أصبحت نصف جريكي ويمكن في أيام أن تجعليني كلي جريكيًّا تعالي

وأخذها ودخل بها إلى الحفل وهمس في أذن دينوس، وهمس دينوس في أذن بابا دوبلو، وهمس بابا دوبلو في أذن مارينوس، وساد الجميع صمت قلق، ثم صاح بابا دوبلو

- سيداتي وسادتي أعلن لكم خطبة كاتيا إلى أشرف

وهلل الجميع وهم يرقصون حول برميل النبيذ

*

وقرر أشرف أن يبلغ أمه بالخبر حتى تبلغه لأبيه وذهب إليها في بيت الإسكندرية، وما كادت تراه بعد أن حلق شعره وذقنه حتى احتضنته في فرحة وقالت وهي تمسح بيدها على خده

- الآن أحس أنك عدت إلينا

وأخذ يحدثها عن مشروعاته وعن الأرباح التي حققها، ثم قال

- وقد نويت الزواج

وقالت أمه في فرحة

- عين العقل سأختار لك أحسن وأجمل بنت في البلد

وقال ضاحكًا

- اخترت

قالت في دهشة

- من؟

قال

- كاتيا أخت صديقي دينوس

قالت

- جريكية مستحيل يابني هوه من قلة بنات البلد وتعمل فينا كده ليه نناسب جريك آدي اللي كان ناقص .

اسمع يا أشرف و

وقاطعها مبتسمًا

- اعملي معروف يا ماما وافقي حتى لا أجن وأهرب مرة ثانية

وسكتت وبدا عليها أنها تبذل جهدًا كبيرًا حتى لا تفقد أعصابها، ثم قالت وهي تتنهد كأنها تستغيث بالله

- لك الحق يا ابني هذه حياتك وأنت حر فيها موافقة

وقال في فرح

- سأصحبها معي في المرة القادمة حتى تتعرفي بها وتباركينا

وقالت في أسى

- أهلًا وسهلًا بها

وبعد أن تركها أشرف أخذت سيارتها وانطلقت فورًا إلى القاهرة تبحث عن زوجها إسماعيل عبد الصبور وعندما لاقته صرخت في وجهه. كأنها تستدعي بوليس النجدة

- الحقني يا إسماعيل أشرف سيتزوج جريكية

وصمت الأب كأنه واجه مشكلة ضخمة وقال ساخرًا

- وصلت إلى حد الزواج !

ثم رفع صوته في حدة قائلًا لزوجته

- اسمعي اتركي هذا الموضوع لي لا تناقشي فيه أشرف خذيه بعقله

*

وعندما بدأ أشرف يتحدث مع بابا دوبلو في تحديد موعد الزواج. قال له إن الموضوع في حاجة إلى وقت طويل فيجب أن يتصل بالعائلة في أثينا، ثم إن اختلاف الدين يجعله مضطرًّا إلى اتخاذ إجراءات كثيرة حتى لا تشن الكنيسة ثورة عليه أنت لا تعرف الجريك يا أشرف إنهم متعبون في كل شيء وكاتيا معك خطيبتك وهي معك مهما طال الوقت حتى يتم الزواج

ولكنه بدأ يلاحظ أن العائلة كلها ليست متحمسة لهذا الزواج وإن كان لم يسمع صوتًا يعارضه ثم بدأ يلاحظ انشغال الرجال بموضوع آخر غير موضوع المطعم ولا يشركونه فيه إنه موضوع المدينة السياحية على شاطئ البحر الأحمر لقد تقدمت شركة إيطالية تنافسهم فيه لا يهم إنه لا يريد هذا المشروع ولن يتدخل

فيه ولكن لماذا لا يهمه؟! إنه مشروع يدر الملايين إنه يستطيع به أن يصل إلى درجة مليونير ولكن ليبدأ أولًا بالانتهاء من مشروع زواجه

ويخيل إليه أن كاتيا تتغير إنها تخفي عنه شيئًا وهي دائمًا قلقة ودموعها كثيرة إنها تبكي كلما قبلته وكأنها قبلة الوداع وصرخ في وجهها

- ماذا تخفين؟! ماذا يقلقك؟ !

ونظرت إليه طويلًا كأنها قررت أن تكشف له سرًّا وقالت

- اسمعني يا أشرف لقد عرفتني طويلًا وأنت تخفي عني سرك، وأنا أيضًا لي سر أخفيه عليك إني قبل أن أنتقل إلى مصر كنت مخطوبة تقريبًا لأحد أقاربنا في أثينا وقد أرسلنا إليهم أخيرًا لإلغاء هذه الخطبة قلنا لهم كل شيء ولكنهم لم يوافقوا إن إلغاء الخطبة قد يؤدي إلى نكبة على العائلة وهم يريدونني أن أعود إليهم ولم أقل لك شيئًا لأني أقاوم ولا أدري إلى متى أستطيع أن أقاوم !

وثار أشرف

- لقد تغيرت إنك تكذبين لا أصدق شيئًا مما تقولين هناك سبب آخر لكل هذا كوني أكثر صراحة ثم ماذا يهمنا من عائلتك أو عائلتي تعالي الآن لنتزوج وحدنا ونهرب بعيدًا وحدنا

وقالت كاتيا وهي تبكي

- إني أحبك ولكني لا أستطيع

واشتدت ثورة أشرف، وصرخت كاتيا

- أشرف لم أعد أحتمل قبلني قبلني

وألقت نفسها بين ذراعيه، واحتضنت شفتيه بشفتيها ولم تتركهما كعادتها قبل أن يسري إحساسهما إلى باقي جسديهما تركت هذه القبلة تصل بها إلى كل شيء أعطته كل ما يريد وأكثر

وفي اليوم التالي ذهب أشرف إليها وهو يحس بالزهو لقد أصبحت كلها له وعندما دخل البيت استقبله بابا دوبلوس ودينوس في وجوم

- أين كاتيا؟ !

- سافرت صباح اليوم إلى أثينا

وهمّ أشرف أن يتوعد سيلحق بها سيحطم كل ما يعترضه

وقال له بابا دوبلوس في هدوء

- إنها مشكلة أكبر منا ومنك تأكد أننا حاولنا كثيرًا

ونظر إليهما أشرف ساخرًا، ثم جلس مدعيًا الهدوء قائلًا

- لنعتبر الموضوع منتهيًا لم تعد هناك مشكلة إلى ماذا وصلتم في مشروع مدينة البحر الأحمر؟

والتف حوله بابا دوبلوس ودينوس يشرحان له ما وصلا إليه، ولم يستمع إليهما طويلًا وتركهما وركب سيارته واتجه بها إلى طريق القاهرة منذ عامين وهو لم يفكر أبدًا في العودة إلى القاهرة ولكن ليعد ليعترف بالواقع إنه يستطيع أن يستفيد من الواقع بقدر ما يمكن أن يؤذيه خياله والواقع هو أنه ابن إسماعيل عبد الصبور وإسماعيل عبد الصبور هو الأمر الواقع إنه يسيطر على قدره سواء كان بجانبه أو بعيدًا عنه إنه استطاع أن يطرد كاتيا من مصر كلها ربما هدد عائلتها أو ربما أغراها بمساعدتهما في مشروع البحر الأحمر ولكنه متأكد أن أباه هو الذي طرد كاتيا

ووقف أمام أبيه هادئًا، وأبوه يستقبله بابتسامة الرجل القوي المنتصر حتى على أولاده وقال أشرف ساخرًا

- أقدم لك نفسي أنا أشرف إسماعيل عبد الصبور ابن إسماعيل عبد الصبور

ومد أبوه ذراعيه وضمه إلى صدره وقال

- أوحشتني يا أشرف ورغم بعدك عني كنت فخورًا بك لم أكن أعتقد أن عنادك يمكن أن يقودك إلى كل هذا النجاح

وقال أشرف كأنه ينافق

- الفضل لك دائمًا فأنا لست إلَّا ابن إسماعيل عبد الصبور

وقال الأب كأنه يرضيه

- وأنا أبو أشرف

وقال أشرف وهو يحاول أن يحتفظ بشخصيته كاملة أمام أبيه

- وقد جئت أطالب أبي بحقي في التعويض

وقال الأب في دهشة

- التعويض عن ماذا؟

قال أشرف

- لقد فقدت فتاة خطبتها وإني مستسلم لما حدث وأعرفك أنك السبب ولا يمكن أن يلهيني عن استسلامي إلَّا أن أدخل في مشروع جديد

وقاطعه الوالد

- إن مشروع البحر الأحمر تمت الموافقة عليه ومن حقك أن تأخذه وحدك لو أردت

وقال أشرف

- إن أصحاب المشروع لم يحرموني من خطيبتي. ولن آخذ منهم المشروع انتقامًا وعقابًا ولكن فقط سأساهم معهم، وأردت فقط أن أتأكد منك أنه تمت الموافقة عليه وأردت أيضًا أن أعلن لك أني قد عدت إليك إلى البيت وسأدعو بابا دوبلوس ودينوس إلى هنا إلى بيتك وبيتي للعشاء غدًا هل تكون معنا؟

وقال الأب

- حتى نكون أكثر واقعية أفضل ألَّا أكون معكم وأفضل أن تدعوهم في الخارج هذا نوع من التغطية

وقال أشرف

- لك الحق إني ما زلت تلميذًا لك عن إذنك

وهمّ أشرف أن يخرج فناداه أبوه قائلًا

- أشرف ما دمت مازلت تلميذًا فإني أنصحك بأن تحصل على شهادتك الجامعية إنك تستطيع أن تكون مليونيرًا بلا شهادة، ولكنك لا تستطيع أن تكون

وزيرًا وسياسيًّا إلّا بشهادة وأنا أريد لك أن تكون يومًا ما وزيرًا رئيس وزراء هذا يسعدني ويجعلني أزهو بك

وقال أشرف وهو ينظر إلى أبيه في عجب

- الشهادة سهلة أستطيع أن أسافر وأعود بشهادة من لندن دكتوراه وسأختار دكتوراه في الاقتصاد لم أعد أريد الهندسة

وقال الأب

- اترك لي هذا الموضوع !

أسرار المهنة

شدت قوامها الطويل الممشوق وسلطت عليه عينين غاضبتين وقالت في صوت تنطلق فيه رنة قاسية بجانب موسيقاه الرائعة كرنة آلة السيكسفون بين نغمات الكمان

- اسمع إني خبيرة في مهنتي وصاحب رأس المال يعتبر غبيًّا إذا تدخل في أعمال الخبراء

ونظر إليها في قرف واحتقار وقال

- ربما من كثرة ما تعاملت مع أمثالك من الخبراء كشفت أسرار المهنة

- قالت وهي تنظر إليه في تعال

- لم أكن أتوقع أن ألتقي بكل هذا الغباء إنك لن تكشف أبدًا سر مهنتي الزبون لا يمكن أبدًا أن يصل إلى أسرار التاجر سواء قضى عمره يتعامل مع تاجر واحد أو تنقل بين ألف تاجر، وكنت أعتقد أنك تفهم ذلك دون حاجة إلى أن ألقي عليك درسًا، فنحن الاثنان أبناء سوق واحدة أنت تاجر وأنا تاجرة أنت رجل أعمال وأنا سيدة أعمال وإذا اعتبرت نفسك خبيرًا اقتصاديًّا فأنا أيضًا خبيرة في الاقتصاد والفرق بيننا هو في نوع البضاعة التي نتحمل مسئولية تسويقها وهذا هو ما يفرض على كل منا أن يحترم خبرة الآخر في تخصصه

قال في حدة

- إني أقبل وقاحتك لأنه لم يعد هناك وقت لاستبدالك بغيرك و

وقاطعته ساخرة

- إنها ليست وقاحة، إنها مصارحة، وأنت تقبلها لأننا وحدنا ولا أحد يسمعنا لو كنت أقول هذا الكلام أمام الناس لقتلتني أو قتلت نفسك ولكننا الآن وحدنا أنت ترفض أن تتعرى أمام الناس ولكنك تقبل أن يعريك شركاؤك وأنا شريكتك هذه الليلة ومن حقي أن أعريك ما دمنا في اجتماع مجلس إدارة

وقال في ثورة

- إنك لا تعرينني ولكنك تسرقينني مائتا جنيه ثمن الثوب الذي ترتدينه في السهرة هل هذا معقول؟! مائتا جنيه ولمجرد أني طلبت منك أن تظهري في مظهر لائق

وقالت في هدوء

- ليس لأنك طلبت المظهر اللائق ولكن لأني درست كل شيء، ولعلك تذكر أني كنت أفرض عليك أسئلة كثيرة قبل أن نتفق على هذه العملية وقد علمت منك أن ضيفك شخصية كبيرة واسعة النفوذ وواسعة الثراء يملك ما لا حصر له من دولارات البترول وعرفت منك أنك تحاول أن تصل معه إلى صفقة سيارات نقل تصل قيمتها إلى حوالي خمسين مليونًا الزبون مليونير والصفقة بالملايين ومهمتي هي أن أضعف مقاومة هذا المليونير خلال السهرة حتى يستجيب كيف أضعف مثل هذا الرجل؟

وقاطعها ساخرًا وهو يحاول أن يقلد لهجتها الجدية التي تتحدث بها

- وطبعًا الوسيلة الوحيدة لإضعافه هي أن تشتري ثوبًا بمائتي جنيه !

وقالت وهي تنظر إليه في تأفف

- لقد عرفت منك أنك بدأت حياتك تاجرًا صغيرًا وأعتقد أنك لا تزال تعيش بعقلية التاجر الصغير، وسأحاول أن أقنع فيك هذه العقلية إن هذا الثوب هو الفترينة التي تعرض فيها البضاعة وكلما أراد التاجر أن يقنع الزبائن بأن البضاعة غالية وأراد أن يشدهم إليها وضعها داخل فترينة مغرية لها مؤثرات تشد أنواع الزبائن الذين يسعى إليهم إن فترينة الملابس الشعبية غير فترينة الملابس الراقية. وفترينة لعب الأطفال غير فترينة المجوهرات وهذا الثوب هو الفترينة التي أعرض فيها بضاعتي وقد اخترته حسب تقديري لشخصية الزبون، ولعلك تلاحظ أنه ليس ثوبًا عاريًا لا يكشف عن شيء من جسدي لماذا؟! حتى أبدو أمامه كامرأة غالية، فهذا النوع من الرجال يقضي كل ليلة وأمامه امرأة معروضة عليه حتى أصبح يتعالى على النساء الرخيصات في حين أنه من السهل أن تقنعه المرأة بأنها غالية بمجرد أن تغطي جسدها حتى لو كان جسدًا تعود على العري إن الرجل يثيره ما لا يراه أكثر مما يراه يثيره خياله أكثر مما تثيره عيناه وهذا كله مع ثقتي بأن بضاعتي مثيرة للخيال حتى لو عرضتها داخل بطانية

وقال ساخطًا

- ولماذا لم تشتر بطانية بدلًا من أن تغتصبي مني مائتي جنيه؟ !

وقالت في تأفف

- إنك لا تزال مبتدئًا وعقلك لا يزال ضيقًا إنك تؤمن بأن المظهر أهم من الواقع ولكنه إيمان تطبقه على نفسك فقط إنك تركب سيارة بويك 76 وتشتري ثيابك من لندن والكرفتات من كريستيان ديور وأحذيتك من إيطاليا والدعوة تقيمها الليلة في هيلتون، وبرغم هذا فعندما دخلت بيتك أشفقت عليك إنها شقة في الزمالك لأنك في حاجة أن تقول إنك تسكن في الزمالك تغطية للمظهر، ولكنها في داخلها تجمع قطعًا من الأثاث المهلهل وفراشك يبدو أنك لم تبدله منذ عشرين عامًا - والثلاجة التي رأيتها يبدو أنها من بقايا عصر التجارب التي سبقت اختراع الثلاجات، وحتى التليفزيون، نصر وأنا أعرف أنك لا تدعو أحدًا إلى البيت، كل حياتك خارج البيت، الخارج هو المظهر والداخل هو الواقع! وقد أخذتني إلى الواقع لأنك اعتقدت أني أنا أيضًا أعيش في نفس الواقع المهلهل المسكين لا آسفة إن بيتي أرقى مائة مرة من بيتك ورغم ذلك فإني لم أدهش عندما رأيت واقعك إنه واقع كثير من رجال الأعمال خصوصًا وهم يجتازون مرحلة ما قبل المليون الأول ولكنك تخطئ خطأ كبيرًا إذا حاولت أن تبخل عليّ بمطالب المظهر فأنا وأنت نقوم بعملية واحدة ويجب أن نكون في مظهر واحد

وخبط على حافة المائدة بقبضة يده وصرخ

- لا تقارني نفسك بي أنت تعرفين من أنت

وقالت في برود

- أنا أعرف من أنا فعلًا، ولهذا فإني أعتبر نفسي متساهلة وفي منتهى التواضع عندما أقارن نفسي بك أنا تاجرة وأنت تاجر، ولكن مسئوليتي عن الزبون أشرف من مسئوليتك أنت تبيع المجهول وأنا أبيع الواقع والمجهول يبقى مجهولًا مهما جمعت من تفاصيله، أما الواقع فكله واقع إن تاجر الفاكهة يبيع البطيخة بعد أن ينظفها من خارجها حتى تبدو لامعة، ويعرضها في دكانه عرضًا مغريًا، وقد يشقها لك حتى ترى احمرار باطنها وبرغم ذلك فعندما يأكلها الزبون قد لا يجد لها طعمًا، والتاجر بعد ذلك ليس مسئولًا انتهى دوره إنه مجرد سمسار بين البطيخة والزبون وكذلك أنت قد تحقق صفقة السيارات ومهما ضمنتها من شروط فهي مجرد عقد ينتهي دورك فيه بمجرد توقيعه مجرد سمسار بين الشركة والزبون وقد يكتشف الزبون وهو داخل السيارة أنها عاطلة أو ناقصة وأنت لست مسئولًا أما أنا فشيء آخر أنا مسئولة أمام الزبون حتى ينتهي من استهلاك البضاعة، فإذا اكتشف فيها عيبًا فقد لا يدفع الثمن المتفق عليه أو قد يؤذيني، بل إني أحيانًا أعطي أكثر مما ينتظر الزبون حتى أطمئن إلى أمانتي في البيع تجارتي ليس فيها مجال للغش أو الاختلاس أو

الخداع أما أنت أنت سمسار تقدمني وتتفق مع الزبون أما أنا أنا البطيخة التي يأكلها الزبون ويجب أن تكون طبقًا للمواصفات وإلّا ألقى بها من النافذة وماتت أقصد ضاعت هل فهمتني إني لهذا أعتبر نفسي متواضعة عندما أقارن نفسي بك

وزفر أنفاسه قائلًا

- لا أدري لماذا أحتملك؟ !

وقالت ساخرة

- لأنك في حاجة إليّ

قال

- احذري فإني أستطيع أن أطردك في أي لحظة

قالت مبتسمة

- إني واثقة أنك لن تطردني الآن إن حاجتك إليّ تجعلني أنا الأقوى هذا هو حكم الحاجة دائمًا قانون العرض والطلب ربما بعد أن تنتهي العملية تطردني لأنك تنتهي من حاجتك إليّ ولن أفاجأ إني أحسب حساب كل شيء

ونظر إليها كأنه يحاول أن يكتشفها من جديد

- لم أكن أتصور أنك بهذه المادية ليس فيك ذرة من العاطفة خبريني هل عرفت الحب يومًا؟ !

وابتسمت كأنها تحتقره وقالت

- إن الحب هو امتياز للأغنياء، وليس مهنة للعاطلين هكذا قال أوسكار وايلد وأنا لست غنية حتى أعيش في ملهاة الحب، وإذا توقفت عن العمل وأصبحت عاطلة فالحب لا يصلح مهنة أعيش منها إن ما نمارسه شيء آخر غير الحب

قال

- إنك تعرفين أوسكار وايلد

قالت

- قلت لك إني تخرجت في كلية الآداب

قال

- ولماذا لم تحاولي أن تكوني شيئًا آخر وأنت تحملين شهادة جامعية محترمة؟ !

وضحكت ضحكة خافتة وقالت

- إن شهادتي تؤهلني للفكر أن أفكر وأبيع أفكاري ولكني اكتشفت أن الأفكار ليس لها سوق هنا أو في أي بلد آخر الأفكار بضاعة مرفوضة عندنا

وقال في استخفاف

- لا أظن كل ما هنالك أنك اخترت الطريق السهل

قالت

- بالعكس اخترت الطريق الصعب إن اعتمادك على الفكر هو الأسهل ولكن أين تبيع هذا الفكر؟! إن الشعب العربي كله لا يزال يعيش في عصر الترجمة إنه يترجم كل ما تعيش فيه الدول المتحضرة من أفكار حتى عندما يحاول أن يتقدم في مأكولاته يترجم ما تأكله الشعوب المتحضرة انظر إلى آخر تطورات مجال الأطعمة الهوت دوجز، والويمبي، وكانتاكي كلها تقدم أطعمة مترجمة وبطريقة مترجمة لم يظهر فكر عربي يحاول أن يطور طعام العدس، والفتة، والفطير المشلتت بحيث يتماشى مع متطلبات الحياة الحديثة وحتى في السياسة إن أبرز رجال السياسة في البلاد العربية كلها لا يتميزون بشيء إلّا أنهم مترجمون حتى النظم السياسية كلها نظم مترجمة تحالف قوى الشعب العامل نظام مترجم عن اليوغوسلافية والأحزاب والبرلمانات والرأسمالية والشيوعية كلها ترجمات حتى الكويت الدولة العربية الصغيرة لم تجد فكرًا يكتشف لها نظامًا سياسيًّا خاصًّا بها فترجمت النظام الغربي والسعودية ظلت متمسكة بالنظام القبلي ولكنها لم تجد فكرة تعينها على تطويره، وبدأ الإلحاح عليها بأن تقتبس هي الأخرى النظام السياسي الأمريكي وانظر إلى لبنان، لقد كان يقال إن الشعب اللبناني أكثر الشعوب العربية تقدمًا وقد استطاعوا أن يكونوا فعلًا مركز السوق العربية ولكنها سوق لا تتعامل مع عمليات الخلق الفكري ولكنها تتعامل فقط مع الأفكار المترجمة أي مع البضاعة الأجنبية كل ما في السوق مترجم سواء في مجال السياسة أو في مجال الاقتصاد أو في مجال الفن أو حتى المظاهر الاجتماعية إلى أن وقع لبنان في مشكلة لم يجد لها حلًّا مترجمًا ولم يستطع الفكر اللبناني أو الفكر العربي كله أن يجد حلًّا

لهذه المشكلة لأن الفكر ليس له سوق عندنا، فاستسلم لبنان للانهيار وأنت أنت رجل الأعمال المحترم هل تعتبر نفسك مفكرًا؟ للأسف أنت أيضًا مجرد مترجم إني أعرف عشرات من رجال الأعمال يتبعون نفس أسلوبك ونفس خطواتك أنت مترجم حتى وأنت تدخل في منافسات مع الآخرين إنك تنافس الآخرين كأنك في حلقة ملاكمة ولا شك أن الملاكمة في حاجة إلى ذكاء وحضور ذهن حتى تنتصر على خصمك، ولكن اللعبة نفسها مترجمة لعبة منقولة عن الحضارة الأجنبية لم تستطع ولم تحاول أن تخلق أو تبتكر لعبة جديدة فأنت لست مفكرًا أنت مترجم

وصرخ في وجهها

- إني لم أدعك لتلقي عليّ محاضرة فارغة وسواء كنت مفكرًا أو مترجمًا فأنا على الأقل متمسك بالشرف شرفي أما أنت

وضحكت ضحكة عالية وقالت

- الشرف أرجوك لا تضحكني إنك تدعوني لتبيع ليلة الأحد لعملائك أنا البضاعة وأنت التاجر فمن منا الذي يبيع الشرف ما ذنب البطيخة إذا حقنها تاجر الفاكهة لتبدو في داخلها حمراء؟! من الغشاش البطيخة أم التاجر؟! ثم ما هو الشرف؟! لقد انتقلنا من عصر الترجمة إلى المعنى الجديد للشرف لم يعد الشرف يتركز في مكان واحد من الجسد الشرف هو الإنسان كله من رأسه إلى أخمص قدميه الشرف هو عدم الاعتداء، وهو عدم الإيذاء، وهو الترفع عن الغش الشرف هو أن يعرفك الناس كما أنت والحرية الاجتماعية التي في الدولة المتحضرة لا تعني الاعتداء على الشرف أو التضحية به بل تعني وضع الشرف في معناه الصحيح وصدقني هذا المعنى المترجم أصبح سائدًا في كل الشعوب العربية حتى وإن بقي في بعض المجتمعات سرًّا لا يعلن عنه

وقال في تأفف

- أن تكوني كل ليلة في فراش رجل. فأنت لا تزالين شريفة !

وقالت دون أن تغضب

- هذا صحيح، ما دمت لا أعتدي ولا أغش وأنت تخلط بين معنى الشرف ومعنى الامتلاك الشرف هو إرادة فردية، كل فرد يفسر الشرف كما يريد، أما الامتلاك فهو تعاقد بين اثنين قد أتفق مع رجل على أن يمتلكني ليلة واحدة وقد أتفق معه على أن يمتلكني العمر كله كل شيء له ثمن ثمن مالي وثمن اجتماعي والفرق بين امتلاك ليلة وامتلاك العمر كله أي الزواج، هو الفرق في الثمن لا

تتصور أن الزواج ليس عملية تجارية إنه مجرد عملية تجارية وجميع الأديان والقوانين تنظمه كعملية تجارية عملية يحكمها الثمن وتحكمها الحاجة إلى هذا الثمن هل تدري؟! لقد قرأت أخيرًا أن نسبة الطلاق بين العاملات والنساء اللاتي لهن دخل خاص أكبر من نسبة الطلاق بين النساء اللاتي لا يعملن وليس لهن دخل خاص أتدري لماذا؟! لأن المرأة التي لها دخل خاص أقل احتياجًا للارتباط بعقد الزواج أقصد الاحتياج المالي والاجتماعي ولذلك سرعان ما تسعى إلى التحرر من الامتلاك أو على الأقل فإنها إذا اضطرت للاحتفاظ بهذا العقد فإنها قد تقيم لنفسها علاقة خاصة مع رجل آخر بجانب زوجها إنهم يقولون إن النساء الفقيرات أشرف من النساء العاملات أو الثريات لا لسن أشرف كل ما هناك أنهن لفقرهن أكثر استسلامًا لملكية الرجل وهناك رجال كثيرون لا يمكن أن ينالوا امرأة إلّا في حدود الشرع والقانون شرف إن بينهم واحدًا تزوج خمسًا وأربعين امرأة شرف يا صديقي صدقني ليس للشرف دخل في كل هذا إنما هو مجرد تنظيم وضعته الأديان والقوانين لتنظيم عقود الامتلاك مجرد تنظيم تجاري !

وقال ساخرًا

- معنى هذا بالنسبة لك أن ثمن الامتلاك ليلة واحدة يدر عليك دخلًا أكبر من ثمن الامتلاك طول العمر أي ثمن الزواج !

قالت في بساطة

- لا إنه الفرق بين الأعمال الحرة والوظيفة وأنا إلى الآن أفضل الأعمال الحرة لم ألتق بالرجل الذي يغريني بالوظيفة وظيفة العمر

وقام من أمامها في زهق وأخذ يخطو داخل الغرفة

- تأخذين مني مائتي جنيه ثمنًا لثوب واحد ثم تلقين عليّ درسًا فلسفيًّا !

وقالت وهي تقوم كأنها تجري وراءه

- عدنا إلى المائتي جنيه يا صديقي الجاهل صدقني أن هذا في صالح العملية لقد اشتريت ثوبًا بمائتي جنيه ولكني مثلًا لم أشتر حذاء انظر إني أضع في قدمي حذاء قديمًا لا يساوي أكثر من خمس جنيهات لماذا؟! لأن الحذاء لا يعتبر الليلة مؤثرًا في المظهر، فالثوب الذي اشتريته طويل سيغطيه ثم إن ضيفك من هذا النوع من الرجال الذي لا يهمه أن ينظر إلى حذاء المرأة لأنه يسلط كل عينيه على وجهها وجسدها ولا يصل بهما إلى حذائها ثم إني أعفيتك من شراء الحلي التي أعتمد عليها في تزيين هذا الثوب كنت أستطيع أن أصر على

شراء عقد أو سوار أو خاتم حتى لو كان فالصو فإن صديقك من الرجال الذين لا يفهمون في البترول ولا في المجوهرات برغم أنهم يملكون بترول العالم ومجوهراته، ولن يستطيع أن يميز بين الفالصو والحر وقد اكتفيت بالحلي التي أملكها فعلًا ودفع ثمنها رجل غيرك كل هذا لأوفر عليك، لأني أعلم أنك لا تزال في بداية الطريق ولم تصل بعد إلى المليون الأول المهم كيف ستقدمني إلى ضيفك؟

وقال في سذاجة

- ماذا تقصدين؟

قالت كأنها ضاقت بغبائه

- أقصد ماذا سأكون بالنسبة لك عندما نلقاه؟ !

قال في زهق

- كأنك تتصورين أننا في طريقنا إلى حفل دبلوماسي إني لست في حاجة إلى تقديمك إنه سيفهم كل شيء بمجرد أن يراك معي

وقالت كأنها تبصق في وجهه

- أنت عبيط لم أكن أتصور أنك جاهل بكل شيء وإلى هذا الحد إني مضطرة ألقي عليك درسًا آخر أرجوك استمع لي بانتباه فهو درس مهم إن هناك أكثر من صورة نستطيع أن نبدو بها أنا وأنت فإذا كانت العملية صغيرة تافهة أو كانت مجرد لقاء للدردشة فتستطيع أن تقدمني كصديقة مجرد صديقة عابرة وهذا يعطي لضيفك الحق في أن يغازلني من اللحظة الأولى ويستأذنك في أن يأخذني منك وإن كانت العملية أكبر قليلًا أي صفقة صغيرة فإنك تقدمني في هذه الحالة على أني صديقتك الخاصة أي عشيقتك وتتظاهر بأنك في حالة حب معي هذا من شأنه أن يرفع ثمني ويجعل صديقك يدفع أكثر لأني سأبدو أمامه امرأة أصعب في الوصول إليها أما إذا كانت العملية أكبر من ذلك واقتربت من ربع المليون دولار مثلًا فإنك تقدمني إلى ضيفك على أني أختك أو ابنة خالتك، لأني أنقلب في هذه الحالة في خيال الضيف إلى امرأة شريفة لا تخرج من البيت إلّا في حماية عائلية أو كما يقولون في حماية محرم وبذلك يصبح الثمن أكبر ويصبح التأثير على ضيفك حتى يتم العملية أسهل عليّ أما إذا كانت العملية تصل إلى المليون دولار كالعملية التي تقوم بها اليوم فإن الطريق الصحيح هو أن تقدمني إليه على أني زوجتك

وقاطعها صارخًا

- هل جننت هل تتصورين أن يصل بي الأمر إلى هذا الحد؟! أن تكوني زوجتي والله ولا مائة مليون دولار

وقالت في هدوء

- أرجوك استمع في هدوء، إني لا أطلب منك شيئًا ولكني ألقي عليك درسًا في مهنة رجال الأعمال إني عندما أكون زوجتك فإن الطرف الآخر يعتبرني جزءًا من الصفقة أي إذا كانت العملية تساوي مليونًا ونصف مليون دولار فهو مستعد أن يوقعها بمليون فقط والباقي لزوجتك أي أنا إن الزوجة لها طعم آخر وقيمة أخرى لمجرد أنها زوجة ولكننا في هذه الحالة في حاجة إلى عدة إجراءات مكملة فيجب مثلًا أن ندعو معنا إحدى صديقاتي حتى نبدو كأننا أبرياء وأنك لم تأخذني إليه وإنما معنا امرأة أخرى لتجالسه وتهتم به ولا تخش شيئًا فإني مع وجود هذه المرأة الأخرى سأكون أكثر إغراء لصاحبنا وسيضطر أن يبذل مجهودًا أكبر حتى يصل إليّ ويرتفع ثمني أكبر أكبر وفي هذه الحالة فإني يجب أن أضع على كتفي معطف فيزون حتى أبدو كأني فعلًا زوجتك لا تخش شيئًا لن تدفع ثمن الفيزون ولكننا سنستأجره إن لي صديقة تؤجر معطفها الفيزون كما تؤجر شقتها مفروشة

وقال ساخرًا

- وطبعًا بما إنني قدمتك كزوجتي فإني مضطر بعد ذلك أن أتزوجك فعلًا حتى لا ينكشف أمري أمام الرجل الذي يمكن أن يستمر تعاملي معه سنوات هذا ما تسعين إليه هذا أبعد من كل أحلامك

وقالت في تأفف

- إنك رخيص إنك أغبى من أن تفهم لماذا أتزوجك فعلًا؟! ما مصلحتي؟! لقد اشتركت في عملية منذ سنتين وكان صاحبها يقدمني في مجتمع الأعمال على أني زوجته وكان فعلًا رجلًا ممتازًا رائعًا واستطاع وهو معي أن يحقق ثلاث صفقات ضخمة، وكان دائمًا يعترف بفضلي ويعطيني حقي، وبعد الصفقة الثالثة طلب مني أن يتزوجني فعلًا قال لي إن المجتمع العالمي أصبح يظن أننا أزواج فلنحقق ظن العالم ولكني رفضت لماذا؟! لأني أفضل الأعمال الحرة على الوظيفة وإذا تزوجته فإني سأصبح أقرب إلى موظفة عنده ثم إننا تعودنا على أن نكون معًا بلا زواج وربما بعد أن نتزوج يزهق ويضيق أحدنا بالآخر بل إنه بعد الصفقة الثالثة بدا كأنه أصبح أقل حاجة إليّ لذلك تركته أصبحنا مجرد أصدقاء وعندما يسأله أحد عني يجيب بما يفهم منه أننا انفصلنا بالطلاق ولكنه

كان نوعًا آخر من رجال الأعمال غيرك كانت كل أعماله في الخارج وكنت أسافر معه كل شهر أو شهرين إلى لندن أو باريس أونيويورك ومجتمع الخارج أكثر حرية وكان من السهل علينا أن ندعي أننا زوج وزوجة أما أنت إنك لا تزال رجل أعمال محليًّا والأعمال المحلية تبقى دائمًا في مستوى تافه ضئيل

ونظر إليها كأنه تلميذ بليد وقال في تردد

- وكيف تريدينني أن أقدمك إليه؟ !

وقالت في زهق

- لقد شرحت لك كل أساليب العمل وعليك أن تختار الأسلوب الذي تقتنع به

وصمت طويلًا وهو يفكر ثم قال

- اسمعي لن أقدمك إليه بأي صفة لا زوجتي ولا عشيقتي ونتركه يفهم ما يريد ولكننا سنصحب صديقتك معنا ونتركه يفهم أنها له وأنك لي

وابتسمت قائلة

- بدأت تثبت أنك لست غبيًّا كما تصورتك

*

وبعد أن انتهت السهرة قالت له وهي بجانبه في السيارة عائدًا بها إلى بيتها

- طلب مني أن أحادثه في التليفون

وقال في دهشة

- متى طلب منك لم أسمع شيئًا

قالت ضاحكة

- إنك عندما تأكل لا تسمع بطنك أقوى من رأسك وتصور إنه لم يطلب من صديقتي أي موعد اسمع إن حديثي معه في التليفون قد يستمر ثلاثة أو أربعة أيام وبعدها سأطلب منه استئجار شقة لأني لا أستطيع أن أقابله في جناحه

بالفندق ولن أقابله وأعطيه شيئًا إلّا قبل أسبوعين وفي خلال الأسبوعين يجب أن تكون قد انتهيت من الصفقة هناك خوف على الصفقة لو أعطيته نفسي قبل أن تتم يجب أن يدفع مقدمًا ويجب أن تدعوه معنا كل ليلة أو نتركه يدعونا وستكون صديقتي معنا دائمًا

وقال

- كيف ندعو صديقتك وأنت تقولين إنها لم تعجبه؟

وقالت

- لا تكن غبيًّا اترك هذا الموضوع لي سأقول له إني أتعمد دعوة صديقتي لأني أعرف أنها لا تعجبه فلا أغار منها عليه هذا يجعله أكثر سعادة وأشد انجذابًا

*

وبعد أيام اتصل بها في التليفون وهو يصيح مهللًا في فرح

- تمت الصفقة وقعنا العقد

وقالت في برود كأنها انتهت من عملية عادية

- مبروك وسألقاه غدًا في الشقة التي استأجرها

قال كأنه يزغرد

- سألقاك الليلة وحدنا وسنقيم احتفالًا خاصًّا بالنجاح

وقالت

- لا الليلة سأسهر مع صديقتي ميمي إنها ثائرة عليّ وأنت تعرف ميمي إذا ثارت فربنا يستر اذهب أنت إليه وحدك لا يصح أن تهمله بعد توقيع العقد وقل له إني في زيارة أمي لأنها مريضة وسأكون قد حدثته بالتليفون

*

وكان جالسًا في الصباح يملأ عينيه بصفحة كاملة من الجريدة اليومية، تحمل إعلانًا عن العقد الذي وقعه باستيراد سيارات النقل وصورته وهو يوقع العقد وبجانبه الضيف الكبير ومعه المسئولون من كبار الموظفين وكلهم يبتسمون

لقد وصل

حقق المليون

عقبال المليون الثاني

وأخذ يقلب في صفحات الجريدة وكل نبضاته تخفق بالسعادة وفجأة اتسعت عيناه في دهشة إنها هي صورتها وهذه صورة صديقتها ثم هذه صورة السيدة ميمي إن بوليس الآداب هاجم منزل ميمي وقبض على من فيه من النساء

وطوى الصفحة بسرعة كأنه يداري فضيحة وهمس كأنه يواسي نفسه

- البلد لم يعد فيها أخلاق ولا حياء !

تائه بين السماء والأرض

كلمة

هذه قصة أخرى من قصص الأدب السينمائي، وقد سبق أن طالبت بأن نعترف بأدب السينما كما اعترفنا بأدب المسرح، وكتبت أكثر من تفسير وتحليل لهذا اللون من الأدب

وقد حدث أن اتصل بي الأستاذ عبد الحليم حافظ باحثًا عن قصة ينتجها سينمائيًّا ويمثلها وقلت له

- لماذا لا نستلهم قصة حياتك؟

وبدأت أكتب من وحي قصة حياة عبد الحليم حافظ دون أن أكون مؤرخًا له، إنما أطلقت لخيالي حرية تصور الحياة التي اختارها عبد الحليم، وعلى قدر ما ابتعدت عن الواقع فقد تأثرت به حتى أني جعلت البطل يغني باللغة الإنجليزية والفرنسية معبرًا بذلك عن العقدة التي يعاني منها كل الفنانين والتي يمكن أن تسمى عقدة «عمر الشريف» فكل منهم يريد أن يكون عالميًّا ويمثل أو يغني باللغة الأجنبية كعمر الشريف

وكما سبق أن كتبت فإن الأدب السينمائي يبدأ بقصة ثم تتحول القصة إلى سيناريو ثم يتحول السيناريو إلى حركة، وهو في الأصل عمل جماعي يعتمد على مجموعة أشخاص تبدأ بالمنتج صاحب رأس المال ثم المخرج والمصور والممثل، والممثلة و و وكل هذا بعكس الأدب المجرد أو الأدب المقروء الذي يتم في مرحلة واحدة ويعتمد على الكاتب وحده

لذلك فهذه القصة السينمائية التي يقرأها القارئ لن تكون أبدًا هي نفس الفيلم الذي يشاهده المتفرج، وذلك نتيجة اختلاف العمل الفردي عن العمل الجماعي

كنت جالسًا على مقعدي بين أعضاء الفرقة الموسيقية والناي بين أصابعي وقد أسندته فوق ركبتي وكل عينيّ مركزتان على صلاح وهو يغني لم أكن أتطلع إلى الجمهور الكبير الذي يستمع، رغم أنه جمهور يضم كل الشخصيات الكبيرة في البلد ونحن الموسيقيين نتبادل مع الجمهور نفس درجة الاهتمام أثناء

الحفلات الغنائية الجمهور ينظر إلينا نظرة سريعة ثم يركز اهتمامه على المطرب ونحن أيضًا ننظر إلى الجمهور نظرة سريعة ثم نركز كل اهتمامنا على المطرب من فوق آلاتنا الموسيقية إلّا إذا قام واحد منا ليعزف «سولو» بمفرده فنركز نحن والجمهور اهتمامنا عليه ولم أكن أيضًا أركز اهتمامي على الناي الذي أحمله بين أصابعي

إن هذا الناي عود البوص الهزيل المتواضع هو كل حياتي ورغم ذلك ففي هذه الليلة لم يأخذ من اهتمامي كثيرًا فالفترات التي سأشترك فيها بالناي خلال اللحن متباعدة وحفظها غيبًا إلى حد أن أذني أصبحتا تستطيعان أن ترفعا يدي بالناي إلى شفتي بمجرد أن يأتي دوره دون أن أحتاج إلى تركيز ذهني عليه وحتى الفقرات التي وضعت لأعزفها «سولو» كانت متمكنة مني إلى حد أني أقف من تلقاء نفسي وأعزف دون أن أحتاج إلى التركيز على الترقب والانتظار

الكل كان مركزًا على صلاح وكان صلاح يغني كعادته وكأنه يغني لكل واحد من هذه المئات المتجمعة من أمامه فيحرك عينيه ويديه وطبقات صوته ويحرك نفسه كأنه يريد أن يصل بنفسه إلى آخر فرد يجلس في آخر صف من الصالة العريضة إنه ينسى وهو يغني ينسى كل شيء إلّا مسئوليته عن فنه ينسى مسئوليته عن نفسه

واستدار صلاح مواجهًا الفرقة الموسيقية وظهره للجمهور إن صلاح يستدير أحيانًا ويتولى بنفسه قيادة الفرقة خلال الفقرة الموسيقية ولكنه غالبًا ما يستدير ليلتقط أنفاسه وظهره للجمهور إنه إنسان عادي من حقه أن يريح أنفاسه ويعيد التقاطها ويريح ابتسامته، ويريح نظرات عينيه من الأضواء المسلطة عليها ومن افتعال القوة والجمال والأمل الذي يبدو دائمًا في الصور الفوتوغرافية التي تلتقط له أو هو واقف أمام الجمهور الذي يغني له

وأنا جالس في الصف الأول من الفرقة الموسيقية، وعندما يستدير صلاح يواجهني مباشرة وجلستي في منتصف الصف الأول ليست فقط لأن هذا هو المكان الطبيعي الذي يتطلبه التوزيع الموسيقي لآلة الناي، ولكن أيضًا لأنني أصر على أن أكون دائمًا بجانب صلاح وتطلعت بكل عينيّ في وجه صلاح .

لا أحد يستطيع أن يرى في وجه صلاح ما أستطيع أن أراه أنا

وهمست إليه همسة أقرب إلى الأمر

- اشرب قليلًا من الماء

ومددت يدي تحت مقعدي حيث أتعمد دائمًا أن أحتفظ بكوب من الماء ولكن صلاح ابتعد عني بسرعة واتجه إلى ناحية بعيدة من الفرقة حيث الجيتار والأورج وأخذ يقودهما بتأشيرات ذراعيه لعله لم يسمع همستي أو الأرجح أنه سمعها وهرب منها .

وعاد صلاح يواجه الجمهور وعلى شفتيه الابتسامة الواسعة وفي عينيه بريق القوة والجمال والأمل .

وأنهى صلاح الفقرة التالية من الأغنية وعاد يدير ظهره للجمهور ويواجه الفرقة الموسيقية، أي يواجهني وجهه يملأ عينيّ وذعرت استولى عليّ نوع من الخوف أقرب إلى الفزع، إن ما أراه لا يستطيع أحد آخر أن يراه حتى من بين أفراد الفرقة وقلت وأنا لا أتعمد الهمس ولكني أكتم الصراخ

- لا تكرر الكوبليه ادخل في الكوبليه الثاني وبسرعة اختم بسرعة

وكان مفروضًا في هذه الفقرة أن أقف لأعزف على الناي سولو وكنت قد تعودت أن أطيل عزف هذه الفقرة وأن أكررها بناء على طلب وإلحاح الجماهير ولكني في هذه الليلة وقفت وأديت الفقرة كأني تلميذ بليد يحفظ دروسه صم دون أن يفهمها وأنهيتها بسرعة وجلست، وقد تعجب الجمهور إلى حد أنه لم يلح عليّ طويلًا كعادته في إعادة الفقرة، والتصفيق لي تصفيق بارد

وعاد صلاح إلى الجمهور وحاول أن يبدأ الكوبليه التالي ولكن الجمهور اشتد صراخه وتصفيقه مطالبًا بالعودة إلى الكوبليه السابق من الأغنية وإذا بصلاح يستسلم للجمهور للناس الناس الذين لا يستطيعون أن يروا في خطوط وجهه ما أراه أنا ويشير صلاح إلى الفرقة الموسيقية ويبدأ في إعادة غناء الكوبليه السابق

وعندما استدار إلى الفرقة الموسيقية بعد الانتهاء من الكوبليه وواجهني مد يده إليّ وهو لا يزال محتفظًا بابتسامته رغم أنها أصبحت ابتسامة ضعيفة لأن ظهره للجمهور وفهمت أنه يريد كوب الماء ولكني ما كدت أمد يدي إلى تحت المقعد حتى ابتعد صلاح عني لقد غير رأيه لن يشرب جرعة الماء وابتعد عني إلى الناحية الأخرى من الفرقة وانتهت الأغنية

إن الفقرة الأخيرة أيضًا كررها صلاح ثلاث مرات

والتصفيق

وأسدلت الستار وفتحت الستار أكثر من مرة ليرد على تحية الجمهور

ووقف صلاح أمامنا وقد أسدلت الستار لآخر مرة وبين شفتيه ابتسامة ضعيفة يقاوم كثيرًا ليحتفظ بها كأنه يهديها لنا وجفناه يتأرجحان فوق عينيه وهو يميل في وقفته كأنه يبحث عن شيء يستند عليه، ثم مرة واحدة سقط !

سقط على الأرض !

وانطلقت دماؤه ثقيلة غامقة تسيل من بين شفتيه

وركعت بجانبه لم أبك ولم أكن أنتظر دموعي فإني كنت أعرف أن كل هذا ممكن أن يحدث وكنا كلنا نعرف تعليمات صلاح في مثل هذه الحالة الصمت لا أحد يتكلم لا يجب أن يعرف غريب وخصوصًا من الصحفيين ما حدث وتلكأ أعضاء الفرقة الموسيقية إلى أن دخل يس سكرتير صلاح ومعه الطبيب الذي يصاحب صلاح دائمًا وأعطاه حقنه في فخذه أوقفت النزيف بسرعة ثم استطاع أن يقوم واقفًا واستند عليّ حتى أوصلناه إلى حجرة داخل المسرح، وتركناه للطبيب وأفراد كثيرون من الجمهور دخلوا إلى صالة المسرح يريدون أن يروا صلاح وكنا نعتذر لهم بأنه يستريح ونترك للنكات الضاحكة أن تنطلق .

ومرت ساعة

وخرج صلاح من الغرفة ومعه الطبيب الذي لا يعلم أحد أنه طبيب وكان الجمهور قد خف من طول الانتظار ورغم ذلك فقد خرج صلاح وكأنه على استعداد ليواجه جمهوره كله بابتسامة تملأ وجهه وخطواته مرحة ونظراته تحمل القوة والجمال والأمل

وركب سيارته وصمم أن يسوقها بنفسه وحاول الطبيب أن يقنعه بأن يعدل عن السواقة

- دعني أسوق أنا يا صلاح طول عمري وأنا أتمنى قيادة هذه السيارة إنها سيارة متعبة مثلك وأنا متخصص في المتعبين

ولكن صلاح صمم أن يقود السيارة بنفسه ويشير للجمهور الواقف محييا بذراعه ونحن معه صامتون إلى أن وصلنا إلى البيت

وما كاد يرى فراشه حتى انهار !

إنه هنا فقط يعترف بما هو فيه

وأنا واقف أرى استسلامه الكامل لقدره ودمعتان ضعيفتان تنزلقان من عينيه كأنهما تواسيانه في آلامه

وكانت فاطمة قد سبقتنا إلى البيت

إن فاطمة مثلي إنها تستطيع أن تتنبأ بما سيحدث لصلاح قبل أن يحدث إنها تحس به دون أن تحتاج إلى أن ترى خطوط وجهه إنها تعتمد على هاتف إحساسها، هاتف الحب إنها تحبه إلى حد إنها ترى داخله حتى وهي بعيدة عنه وهي دائمًا بعيدة إن صلاح لا يريدها أبدًا أن توجد بين الناس في حفلاته يريد أن يحتفظ بها فوق الناس يريدها له وحده أنانية الفنان !

والطبيب يلم صلاح كله بين ذراعيه وأنواع متعددة من الدواء الإبر والحبوب وما يذوب وما لا يذوب ثم انتهى بعد وقت طويل وهو يقول له في حدة كأنه يهم أن يصفعه

- قلت لك إنه كان يجب أن تؤجل حفل هذه الليلة ولكنك لم تسمع الكلام اسمع أمامك ثلاثة أسابيع ترقدها في الفراش سامع ثلاثة أسابيع بلا حركة وإذا تحركت فلن أكون مسئولًا عنك بعد اليوم

وأمرنا الطبيب أن نخرج كلنا من الغرفة حتى فاطمة بعد أن أعطى صلاح دواء منومًا لينام رغم أنفه

وعدت إلى بيتي وكل ما في رأسي هو هذه الأسابيع الثلاثة التي فرض على صلاح أن يقضيها راقدًا في فراشه إني أعلم أن صلاح مرتبط بأكثر من حفلة خلال هذه الأسابيع الثلاثة، أقربها حفلة زفاف ابنة رئيس الوزراء بعد يومين ولكن لا شك أنه سيعتذر إنه لا يستطيع أن يعرض نفسه لما حدث له لقد كان ما حدث هو أول مرة يصاب فيها صلاح بأزمته وهو فوق خشبة المسرح لقد كان يصاب بها قبل الحفل بأيام أو بعد الحفل بأيام أما أن يصاب بها وهو على المسرح فهذه هي المرة الأولى ولعلها تكون درسًا له فإني أعلم أن أكثر ما يكرهه هو أن يبدو أمام الناس مريضًا ولن يعرض نفسه لمرضه مرة أخرى وهو أمام الناس

واعتذر صلاح فعلًا عن حفل زفاف ابنة رئيس الوزراء

إلى أن صدمت !

كان قد مر أسبوع واحد على قرار الطبيب وكان صلاح قد بدأ يبدو أحسن حالًا، وكان مطيعًا فعلًا لكل التعليمات لا يتحرك من فراشه ويسأل بنفسه عن الدواء مرتاحًا هادئًا

كان أحيانًا عندما أكون معه يكلفني بمهام تافهة حتى كان يخيل إليّ أنه يتعمد أن يبعدني عنه وكان يفعل نفس الشيء مع فاطمة ومع أصدقائه

إلى أن كان صباح يوم الخميس

وذهبت إليه في الساعة الواحدة بعد الظهر كعادتي إنه ليس في البيت وفاطمة جالسة تبكي إنها لا تعرف أين هو؟ !

ولا أحد في البيت يعرف. لقد خرج كأنه هرب لم يره أحد وهو يخرج !

وكنت أنا أعرف واكتشفت أنه خلال رقادم في فراشه كان يتخلص مني أنا وفاطمة ليتحدث في التليفون وليس هناك إلّا جهة واحدة يهمه أن يتحدث معها في التليفون، الجهة التي يحتاج إليها

وذهبت إلى نادي الفرقة الموسيقية

ورأيته أمامي واقفًا بين أفراد الفرقة الموسيقية يجري بروفات على أغاني الحفلة التي كان مقررًا أن يقيمها الليلة لصالح مشروع بيت الطلبة

وابتسمت في يأس لا أمل

وفتحت حقيبتي وأخرجت أعواد الناي وأخذت مكاني بين أفراد الفرقة ولم يقل لي صلاح شيئًا كأنه لم يفعل شيئًا !

إنها قصة طويلة

قصة بدأت منذ كنا أطفالًا

*

(2)

لقد ولدت مع صلاح في قرية واحدة كفر ممونة وأنا أكبر من صلاح بأربع سنوات ولكنه منذ كنا في عمر الصبا وهو يحاول أن يفرض شخصيته على كل أولاد القرية ربما لم يكن يحاول ولكن حيويته التي لا تهدأ، وشقاوته الجريئة التي كانت تثير الغيظ أحيانًا والضحك أحيانًا كانت تدفع كل أولاد القرية إلى التجمع حوله، أحيانًا لمشاركته اللعب وأحيانًا للانتقام منه بعد أن يكون قد لعب لعبة بايخة وأنا شخصيًّا كنت أحس بارتباطي بصلاح دائمًا كنت أحب شقاوته وأحب جنونه وجرأته وأحب ذكاءه ودائمًا معه نلعب الكرة الشراب أو نتسلل إلى حقول الذرة لنسرق ونأكل أو نتسلل إلى الجاموس والبقر المنتشر بين الحقول بعيدًا عن أصحابه لنمتص اللبن بشفاهنا من أثدائها

وكان أكثر ما يهواه صلاح بعد أن كبرنا قليلًا هو العوم العوم في الترعة والعوم في القناة وأحيانًا لا يعوم ولكنه يلقي بنفسه في قناة صغيرة بعد أن يخلع ثيابه وينام في الماء وكنا نعلم أن هناك شيئًا اسمه بلهارسيا كل أهل القرية يعرفون البلهارسيا ويعرفون أن سمومها ترقد في مياه الترع والقنوات ورغم ذلك فكل أهل القرية يعيشون في مياه الترع والقنوات وأنا مع صلاح دائمًا في الترع وفي القنوات مع البلهارسيا

ولم يكن كل ذلك هو أقوى ما جمعني بصلاح

كان هناك ما هو أقوى

كان والد صلاح الحاج عبد الله مرعي معروفًا في القرية بأنه يهوى الأصوات الجميلة ولم يكن يغني كان شخصية محترمة في القرية يمتلك عشرة أفدنة وأحيانًا يستأجر عشرين فدانًا عندما يكون على وفاق مع ناظر عزبة الباشا وربما لهذا واحتفاظًا باحترامه بين أهل القرية لم يكن يغني إنما كانت كلما مرت بالقرية فرقة من الفرق الفنية الجوالة تضم مطربًا يدعوها الحاج عبد الله إلى دواره ويقيم ليلة يستمع فيها إلى هذا المطرب وكان أهل القرية - كلهم - يجتمعون وهم في انتظار حكم الحاج عبد الله على هذا المطرب فإذا استمع منه إلى موال أو أغنية واعتذر بعدها في أدب واتجه إلى داخل الدوار وترك المطرب إلى أهل القرية عرفوا أنه مطرب لا يستحق ولا يساوي آذان الحاج عبد الله أما إذا بقي الحاج عبد الله إلى نهاية السهرة فمعنى هذا أن المطرب يستحق

ولكن أعجوبة الحاج عبد الله في أنه يتولى بنفسه أداء أذان الفجر في كل فجر تصحو القرية كلها على صوت الحاج عبد الله يؤذن للصلاة وكان صوته أعجوبة إنه لا يؤذن كمجرد أداء واجب ديني، فهو ليس مؤذنًا ولا إمامًا للمسجد ولكنه فنان إنه مطرب إنه صوت غال نادر ولو أنه استطاع أن يحرر نفسه من شخصية المزارع وتقاليد مجتمع القرية لاستطاع أن يحترف الغناء ويصبح

مطربًا مشهورًا في مصر كلها ولكنه كان مصممًا على أن يحتفظ بشخصيته في القرية وبكل التقاليد القديمة المفروضة على هذه الشخصية. وربما كان يغني أغاني عادية بينه وبين نفسه ولكن لا أحد يسمعه ولا أحد سمعه إلّا وهو يؤذن أذان الفجر كأنه قرر أن لا يعطي فنه إلّا لله حتى لو حرم منه الناس

وفي مناسبات قليلة كان أهل القرية يلحون على الحاج عبد الله أن يلقي أذانًا آخر وكان عندما تكون هناك مناسبة مفرحة كنجاح محصول القطن، أو انفراج أزمة يقبل أن يلقي أذان العشاء بجانب أذان الفجر ومرة واحدة في عمره كله ألقى أذان الصلوات الخمس ألقاها كما لم يسمعها مسلم من قبل ألقاها ودموعه بين عينيه وكان هذا يوم توفيت أم صلاح

وكان صلاح عندما نكون معًا وحدنا يقف ويقلد والده في الأذان وكنت أيامها أضحك عليه وأقول له إن صوته أشبه بصوت صراصير الليل بجانب صوت أبيه ولكن صلاح كان يبدو متمتعًا منفعلًا وهو يقلد أباه وكان يقلده دائمًا في الخفاء خوفًا من أن يصل الخبر إلى أبيه فيفسره بأن ابنه يستهزئ به ومع السنوات بدأ صلاح لا يكتفي في خلواتنا بتقليد أبيه بل أصبح يقلد كل المطربين ويردد مواويل وأغاني الريف، ثم تجرأ صلاح أكثر وبدأ يردد أغانيه في جلساتنا مع أولاد القرية أثناء الليل وبدأنا نحبه وهو يغني لم يخطر على بالنا أيامها أن نقدره كفنان ولكننا كنا نتركه يغني دون أن نطلب منه أن يغني لنغني معه وغالبًا ما يرتفع صوتنا على صوته

ولم يجرؤ صلاح أبدًا على أن يغني أمام أبيه أو أن يعترف أمامه بأنه يحب أن يغني رغم أنه قطعًا ورث صوته وورث كل فنه عن أبيه، ربما لأن تقاليد القرية كانت تجعل من الفنانين والمطربين مجموعة أقرب إلى الشحاذين، وهي التقاليد التي حرمت على والد صلاح نفسه أن يغني وأجبرته على الاكتفاء بأداء أذان الفجر، وهي نفسها التقاليد التي كانت تجعله يتمنى أن يكون ابنه أي شيء إلّا أن يكون مطربًا وربما كان كبقية آباء الريف يصل غاية ما يتمناه لابنه أن يكون ضابط بوليس لأهمية وقوة ضباط البوليس بين قرى الريف

وأنا أنا ليس في عائلتي أي تراث ولا أي ظاهرة موسيقية ولكني وجدت نفسي منذ صباي أمد يدي إلى أعواد البوص وأحاول أن أنفخ فيها أنفاسي لتصبح نغمًا. ثم بدأت أقلد الذين يصحبون الفرق الريفية من عازفي الأرغول والناي أبحلق في أصابعهم وهي تتحرك فوق ثقوب عود البوص بل إن أول ناي حاولت أن أعزف عليه صنعته بيدي تقليدًا لما كنت أراه في أيدي العازفين ورغم ذلك فلولا ارتباطي بصلاح منذ صبانا لما أصبحت الآن عازفًا محترفًا للناي إلى أن دخلنا المدرسة الابتدائية

وانتقلنا صلاح وأنا لنقيم في المركز، ورغم أني أكبر منه سنًّا فقد كنا معًا في سنة دراسية واحدة ربما لأني أصلًا لم أكن من هواة دخول المدارس كان حلم صباي أن أزرع وأجلس على حافة الساقية أعزف الناي وصلاح يغني لي !

وفي المركز انطلقت هوايتنا وانطلق بنا الفن إلى آخره

كان صلاح يغني ليل نهار، وبمناسبة وبلا مناسبة، وأنا أعزف الناي كلما استطاعت أصابعي أن تصل إلى ثقوبه بل إننا، صلاح وأنا، بدأنا نحاول أن نعزف أي شيء نصل إليه صلاح حاول أن يغني باليوناني تقليدًا لبقال جريكي كنا نتردد عليه، وحاول أن يعزف الأكورديون والبيانو، والكمان، والأرغول و و

كل ذلك دون أن يخطر على بال أحدنا أنه يرسم لنفسه مستقبلًا فنيًّا

وأذكر أننا كنا في زحام مولد سيدي البراني، وانفصلنا مع بقية الطلبة إلى مكان بعيد وبدأ صلاح يغني والطلبة تصفق وأنا أعزف الناي وكلنا نضحك ونقطع الأغاني لنتبادل الشتائم التي كنا نعتبرها نكات وتجمع بعض الناس حولنا يستمعون إلى صلاح ويغنون معنا ويضحكون معنا وكان من بين من تجمع طالبات المدرسة الابتدائية للبنات، كن متباعدات في خجل يتضاحكن الضحكات الخجولة المثيرة وغنى صلاح إحدى الأغاني الريفية المعروفة وإذا بصوت يبدو من بين الطالبات يغني معه صوت خجول يغني كلمتين ويسكت ثم يعود يغني ولكن الطالبات ابتدأن في الإلحاح على الفتاة أن تغني مع صلاح كأن البنات قررن أن يتحدين في الفن الأولاد

ونحن أيضًا بدأنا نلح عليها أن ترفع صوتها لنسمعه

وغنت الفتاة

بل اشتركت مع صلاح في أغنية واحدة كانت أيامها أغنية شعبية معروفة كل منهما يرد على الآخر بمقطع منها

وكانت هذه الفتاة هي فاطمة

ولم نعرفها يومها

وسأل صلاح بعدها عنها كثيرًا ربما كانت ابنة موظف من موظفي المركز أو ابنة مزارع أو ابنة المأمور

بل إن صلاح بدأ يذهب ويقف أمام مدرسة البنات بحثًا عن هذه الفتاة التي لم نكن نعرف أن اسمها فاطِمة

ولكن صلاح لم يعثر عليها أبدًا

وفي هذا العام ونحن في السنة الثالثة الابتدائية توفي الحاج عبد الله والد صلاح وفي صباح يوم الوفاة ودون أن يبلغ صلاح أحدًا، أو يستأذن خاله الذي أصبح مسئولًا عن العائلة أو أخاه الأكبر وحتى دون أن يقول لي صعد في الفجر إلى مئذنة جامع الكفر وأذن للصلاة كما كانت عادة أبيه كأنه يريد أن يقول لأهل القرية إن أباه لم يمت، أو كأنه يريد أن يعلن أنه يستطيع أن يملأ الفراغ الذي تركه أبوه، أو كأنه كان يريد أن يرسل تحية لأبيه في قبره وذهل أهل القرية وهم يستمعون إلى صلاح وهو يؤدي الأذان واعترفوا لأول مرة أنه ورث عن أبيه صوتًا أقوى وأحلى وأداء لم تسمعه القرية من قبل وبدأوا يلتفون حوله في ليالي المأتم ويطالبونه بأن يقرأ القرآن أو أن يعود ويؤذن لبقية الصلوات ولكن صلاح كان يرفض

إلى أن عدنا إلى المركز إلى المدرسة

وبدأ صلاح يبدو في شخصية جديدة لقد كان والده هو الشخصية الوحيدة التي تقيده ويحسب حسابها ويخفي عنها حقيقة ميوله ومطمع أحلامه وقد تحرر بعد وفاة والده وأصبح يجاهر بفنه المتمكن منه، ويركز كل ذكائه وكل جرأته وأحيانًا كل جنونه على ممارسة هوايته

ولكنه لم يكد يبدأ في انطلاقه حتى أصيب بالضربة الأولى

البلهارسيا

والبلهارسيا كانت قد أصبحت في الريف مرضًا عاديًّا كالزكام أو الصداع ولكن صلاح لم يكن ينتظرها لم يعتبر نفسه مسئولًا عنها رغم السنوات الطويلة التي قضاها في مياه الترع والقنوات وهو يعلم أنها مياه مسمومة بالبلهارسيا لقد كان غروره بنفسه يرفض أن يدعه يعترف بأنه السبب في أي مصيبة تحدث له لذلك مرت شهور وصلاح منزو، منهار، ساخط على كل شيء، يعالج نفسه من البلهارسيا

وشفي

لا إنني بعد سنوات طويلة أصبحت مقتنعًا بأنه لم يشف وأن اندفاعه نحو هوايته الفنية أيامها جعلته يتسرع ويهمل في علاج نفسه، وبمجرد أن انقطع الدم الذي كانت تنزفه البلهارسيا اعتبر نفسه وكأنه شفي تمامًا ولم يعد في حاجة إلى طبيب ولا إلى علاج

وكان الانطلاق الذي اندفع إليه صلاح بعد وفاة والده يجعله لا يكتفي بالاشتراك في الفرقة الموسيقية التي تجمع بين الهواة من طلبة المدرسة، والتي أصبح بها مطرب المدرسة، ولا يكتفي بالغناء بين أصدقائه بل أصبح يبحث عن المناسبات التي يستطيع أن يغني فيها ورغم ذلك فإنه لم يصل إلى شيء إلّا إشباع هوايته لم يكن بين الناس أكثر من طالب يستطيع أن يغني ويستطيع أن يلعب بكثير من الآلات الموسيقية مجرد لعب

ودائمًا كان يسأل عن فاطمة

ولم يعلم عنها شيئًا أبدًا حتى من صديقاتها اللاتي كن معها يوم رآها ربما كانت أيامها مجرد زائرة لإحدى عائلات المركز، أو ربما جاءت إلى البلدة مع أهلها مصادفة لحضور الاحتفال بالمولد. إلى أن انتهينا - هو وأنا - من المدرسة الابتدائية

وفي فترة الصيف قضينا أيامنا في القرية نحاول أن نرسم مستقبلنا

وكان المفروض أن المستقبل كله ينحصر في التحاقنا بمدرسة دمنهور الثانوية ولكن لا صلاح ولا أنا، نريد أن نضع أنفسنا بين حوائط المدارس

نريد أن ننطلق أن نجري أن نجرب وتركزت كل أحلامنا في الالتحاق بالمعهد الموسيقي الذي كنا نسمع عنه أي أن نهاجر إلى القاهرة ولولا أننا كنا مجبرين على أن ندخل المدارس أي مدرسة لما فكرنا حتى في الالتحاق بالمعهد الموسيقي، ولانطلقنا نغني ونعزف في كل البلاد كأي فرقة من الفرق الريفية إلى هذا الحد كان صلاح يريد أن يمارس فنه، ويمتع به نفسه قبل أن يمتع به الناس وإلى هذا الحد كنت متأثرًا ومقتنعًا بكل ما يخطر على بال صلاح

ولكن لأننا كان يجب أن ندخل مدرسة، فقد دخلنا المعهد الموسيقي، ولم يعارض خال صلاح فقد كان كل ما يشغل باله هو نفقات التعليم وربما كان مقتنعًا بأن صلاح ورث عن أبيه ميوله الفنية، فتركه لجنونه وأنا أيضًا لم يكن يهم عائلتي إلّا كم تدفع

وذهبنا لنعيش في القاهرة

(3)

ولم يلتحق صلاح بقسم الأصوات ولكنه التحق بقسم الآلات معي ربما لأن الدراسة في قسم الآلات أوسع، وربما لأنه هو نفسه لم يكن يدري حتى هذه الأيام هل يستطيع أن ينجح كمطرب أم يستطيع أن ينجح كعازف؟! أنا شخصيًّا كنت أتمنى له ما أتمناه لنفسي رغم الفرق الكبير بين قيمة صوته وصوتي كنت أريده أن يكون عازفًا لأن امتلاك الآلة الموسيقية أطول من امتلاك صوتك إن الآلة لا تستطيع أن تخالف أمرك ليست معرضة للمرض ولا للضعف ولا للهزال ولا لسرعة التطور الآلة إذا أصيبت بخدش تستطيع أن تلقيها بعيدًا وتستبدلها بأخرى جديدة ولكن صوتك إذا خدش لا تستطيع أن تبدله والآلة تعيش التاريخ كله

البيانو الذي كان يعزف عليه شيللي هو نفسه البيانو الذي نعزف عليه اليوم مهما تطورت الألحان ولكن صوت صالح عبد الحي لا يمكن أن يطرب الآن، لأن الصوت مرتبط بالقدرة على التجديد، والتجديد يعتمد على الطبقات الصوتية والطبقات الصوتية هي قدرات فردية لا يستطيع أي فرد أن يصل إلى ما يشاء من الطبقات

وأريد أن أروي كيف كنا نعيش في القاهرة ليست أعجوبة أن نبدأ في القاهرة وأن نعيش بقرشين صاغ في اليوم وتستطيع أيضًا أن تصل إلى مائة جنيه في اليوم

وكنا منذ وصلنا إلى القاهرة نعيش - صلاح وأنا - في حجرة واحدة مؤجرة داخل بيت في إحدى حواري الجيزة من البيوت التي تؤجر للطلبة

وكنت أصحو كل يوم وأنا في انتظار معجزة من معجزات صلاح، قد تكون معجزة ترتفع بنا، وقد تكون معجزة تنهار على رؤوسنا ولم تكن معجزة صلاح أنه استطاع بسرعة أن يجيد العزف على الكمان الذي اختار أن يتخصص فيه عندما التحقنا بالمعهد، ولا معجزة تقدمه بصوته الذي يغني به تقدمًا كان يدهشني أن شخصيًّا رغم أني عشت العمر كله مع هذا الصوت ولكن معجزته الكبرى هي قدرته على الاتصال بالناس واكتساب صداقتهم ثم استغلال هذه الصداقة

لقد كان يعرف بذكائه أن الفن لا يساوي شيئًا إلَّا إذا استطاع صاحبه أن يصل به إلى الناس إلى الجمهور ولكي تصل إلى الجمهور يجب أن تصل أولًا إلى مراكز القوى التي تسيطر على حركة المرور إلى الجمهور مراكز القوى الفنية إنها مراكز تضم أفرادًا أقرب إلى عساكر المرور تشير، فتمر إلى الجمهور تشير فتقف مكانك دون أن تتقدم إلى الجمهور وأحيانًا كثيرة تسحب منك رخصة القيادة الفنية فتجد نفسك قد انتهيت كفنان

وكان صلاح له قدرة عجيبة وذكاء خارق في اكتساب أفراد مراكز القوى الفنية إنه يعرف مقدمًا ماذا يريد كل منهم ومنهم من لا تستطيع أن تكسبه إلّا إذا بدوت أمامه ضعيفًا غلبان، محتاجًا، تثير شفقته، وتثير فيه عقدة السيادة وتشبع فيه شهوة العظمة ومنهم من يحتاج لإقناعه لنوع من القوة أقرب إلى التهديد ومنهم من ينتظر رشوة والرشوة ليست دائمًا مبلغًا من المال إن هناك أنواعًا كثيرة من الرشاوي وصلاح يستطيع دائمًا بذكائه وجديته وحيويته أن يكتشف الإنسان الذي يحتاج إليه، ويكتشف وسيلة الوصول إليه

وكان أول ما حاول صلاح أن يستغل فيه معجزاته هو حاجتنا إلى أن نعمل ونكسب حتى نرتفع من مستوى سندويتش الفول إلى مستوى طبق الكباب ومن مستوى البنطلون الواحد إلى مستوى ثلاثة أو أربعة بنطلونات ولم يكن هناك طريق أمامنا لنعمل ونكسب ونحن لا نستطيع شيئًا إلّا الفن ولا نقبل أن ننحرف عن إصرارنا بأن نعطي كل حياتنا لهذا الفن، ولا أحد يعرفنا كفنانين في هذا البلد الكبير ولا نزال طلبة في المعهد مفروض أننا لم نتم تعليمنا بعد ولكن صلاح استطاع في عام واحد أن يعرف كثيرين من أفراد الفرق الموسيقية، وأن يكسبهم بذكائه وخفة دمه، ولا أقول القدرة الفنية، بل كان صلاح يتعمد إخفاء قدرته الفنية حتى لا يثير بين أصدقائه الجدد الغيرة والخوف على أنفسهم من فنه، كما يحدث دائمًا بين أفراد المهنة أو الفن الواحد

ولم يكد العام الأول يمر ونحن في فقر نعيش على ثلاثة جنيهات في الشهر يتلقاها صلاح من بلده وجنيه واحد أتلقاه أنا، حتى استطاع صلاح أن يضع نفسه في إحدى الفرق الموسيقية كعازف للكمان، ويضعني معه كعازف ناي وكسبنا ارتفعنا إلى مستوى الكباب ومستوى شراء القمصان والبنطلونات وتفصيل البدل وارتفعنا أيضًا إلى مستوى السكن في شقة إيجار شقة وحدنا صلاح وأنا وكل ذلك كان ارتفاعًا إلى مستوى متواضع، أي إلى مستوى عشرة في المائة من المستوى الذي نعيشه الآن ولكننا - أيامها - كنا نحس أننا ارتفعنا مليونًا في المائة من المستوى الذي نحلم أن نعيش فيه

وكان أصدقاؤنا الجدد قد بدأوا يعرفون أن صلاح يغني وكان يغني لهم، والكثيرون منهم يهللون له ويلحون عليه أن يبدأ في محاولة الظهور كمطرب وكثيرون أيضًا استهزأوا به ورفضوا الاعتراف به كمطرب كفاية عليك الكمنجة. ما تطلعش فيها .

وصلاح لا يريد أن يقدم نفسه علانية كمطرب إلَّا في الجلسات الخاصة الضيقة إنه عندما يغني يردد أغاني محمد عبد الوهاب أو سيد درويش وأحيانًا محمد عبد المطلب أو يردد الأغاني الريفية والشعبية وهو لا يريد لنفسه كل هذا إنه مقتنع بأن صوته يمكن أن تكون له شخصية منفصلة شخصية قائمة بذاتها شخصية تخلق الجديد ولا تكتفي بترديد القديم إنه لا يريد أن يقدم نفسه

للجمهور إلّا كشخصية فنية جديدة، شخصية الصوت وشخصية اللحن وشخصية الأداء يجب أن يبدأ بشخصية جديدة بأغنية لم يسمع الناس مثلها من قبل

ولكن الجديد، يتطلب ملحنًا جديدًا وشاعرًا جديدًا إنه لا يستطيع أن يذهب إلى أي ملحن ويطلب منه أن يلحن له فهو غير معروف، ولا يستطيع أن يدفع ثمن اللحن، وصوته قد لا يكفي ليدفع أي ملحن إلى أن يقدم له لحنًا مجانيًّا وعبد الوهاب إنه حلم صلاح إن عبد الوهاب بالنسبة له هو القمة التي لا يستطيع أن يصل إليها أو على الأقل لا يستطيع أن يصل إليها وهو لا يزال واقفًا في القاع إنه يخشى وهو في القاع ألّا يصل صوته إلى القمة يرتعش ويخاف أن يرفضه عبد الوهاب !

وبدأ ذكاء صلاح يعمل إنه جديد جيل جديد مجهول من الناس ومن محطات الإذاعة وشركات الأسطوانات وزعماء التليفزيون فإذا أراد أن يبدأ فيجب أن يبدأ معه كل الجيل الفني الجديد إنه يقدم نفسه وهو مجهول ويجب أن يكون الملحن أيضًا مجهولًا وكاتب الأغنية وموزع الموسيقى والموسيقيون. يجب أن يكونوا كلهم مجهولين يجب أن يقدم نفسه من داخل الجيل الجديد وبدأ صلاح وأنا معه نعيش بين مجموعة من الفنانين الشبان المجهولين بعضهم من طلبة المعهد وبعضهم من الهواة وبدأنا كلنا نعمل لنضع أغنية جديدة فنًّا جديدًا كل ما فيه جديد قد ننجح كلنا أو نفشل كلنا قد ينجح الجيل الجديد أو يفشل الجيل الجديد كنا نعيش أيامها كأننا نخطط لانقلاب للاستيلاء على مقاليد الحكم الفني

وانتهينا من وضع أول أغنية تمثل الجيل الجديد كلنا كنا فيها نشترك في التلحين وفي الأداء وفي الغناء كنا نعيش كأننا في مظاهرة فنية

ولكن كيف نقدم هذه الأغنية للناس لا طريق إلَّا الإذاعة

ولكن

مستحيل أن تقبلنا الإذاعة

وبدأنا كلنا نعيش اعتمادًا على ذكاء صلاح وقد استغرق ذكاء صلاح عامًا كاملًا استطاع خلاله أن يكتسب صداقة الأستاذ عباس حمدي الذي يعتبر إحدى الشخصيات القوية في مركز قيادة الإذاعة وأعجب عباس بصلاح كفنان أعجب به فعلًا وأعجب بالأغنية الجديدة واللحن الجديد إلى حد أن أعلن الثورة على الروتين المتجمد للإذاعة الذي يحرم دخول الجيل الجديد

وأذيعت الأغنية لأول مرة

وسمعها الجمهور في عشر دقائق وكنا قد قضينا في إعدادها عامين، آخرهما أسبوعان لم ننم خلالهما أبدًا. قضيناهما كلهما نعيد ونراجع ونعيد ونراجع إلى أن تم التسجيل في الإذاعة

فرحتنا الكبرى نجحت الأغنية

وكل الأسماء التي أذيعت معها، كانت أسماء جديدة صلاح والملحن رأفت التوني والشاعر أحمد حلمي أما اسمي فهو لا يذاع

ولكن النجاح الأول لا يمكن الاعتماد عليه إنه أشبه بصدمة لا أحد ينتظرها ولا يمكن أن نخلق جمهورًا ثابتًا خصوصًا إذا كانت الأغنية قد أذيعت فجأة وبلا دعاية تجذب الناس لها

ترى كم واحدًا سمعها

وأذكر أني عدت ليلتها مع صلاح إلى البيت، وقال لي وهو منطلق في خياله كأنه يبحث به عن المستقبل

- لسه بدري يا عمر

وليلتها دخل صلاح الحمام، وكنت في غرفتي واعتقدت أنه دخل يغسل وجهه ثم ذهبت إليه داخل الحمام وفوجئت به وقد أمسك الفوطة وهو يمسح بها حوض الحمام والفوطة ملطخة بالدم وخطوط من الدم لا تزال معلقة داخل الحوض وذعرت

- ما هذا الدم يا صلاح؟ !

وأجابني صلاح وهو يحاول أن يعلق ابتسامة بين شفتيه

- لا شيء بسيطة إن دمي ثقيل وأحاول أن أخففه !

وصرخت

- هل هي المرة الأولى التي تنزف فيها دمك من فمك؟ !

وأجاب وهو لا يزال يحاول أن يبتسم

- المرة الأولى وبإذن الله الأخيرة

وأخذته إلى فراشه، وأنا ساخط أصرخ في وجهه وأصمم على استدعاء طبيب ولكنه يرفض إنه يهدد بالكذب على الطبيب لو استدعيته وهو مؤمن بأن لا شيء قد حدث له إنه لم ينم طوال أسبوعين، وقد أسرف في وضع الشطة داخل الساندويتش وهذا هو كل السبب

ونام

وبدأت ألاحظ لأول مرة الخطوط التي ترتسم على وجهه عندما تنتابه الأزمة

خطوط تظل عالقة تحت عينيه حتى وهو نائم !

(4)

وفي صباح اليوم التالي دق جرس الباب وفتحت

إنها فاطمة

وفرحت بها كأني وجدت الدواء الوحيد الذي يمكن أن ينقذ صلاح

وأجلستها في الصالة، وجريت إلى صلاح وهو لا يزال راقدًا متعبًا من أثر الأزمة وما كاد يعرف أنها فاطمة الفتاة التي يبحث عنها منذ خمس سنوات حتى قفز من الفراش وألقى على وجهه قطرات من الماء وأدخل نفسه في قميصه وبنطلونه وجرى إليها إلى فاطمة وهو يهمس كأنه يهنئ نفسه

- الأغنية نجحت ما دامت قد جاءت لي بفاطمة فقد نجحت

وكان هذا صحيحًا، لقد سمعت فاطمة الأغنية في الإذاعة وقالت له إنها عرفته من صوته لا من اسمه رغم أنها لم تسمعه إلّا مرة واحدة في سوق سيدي براني ومنذ خمس سنوات واتصلت بالإذاعة وعرفت عنوانه وجاءت وقد حاولت من قبل أن تتصل به فلم تستطع مرت سنوات حتى استطاعت أن تعود مرة أخرى إلى دمنهور، وسألت عنه هناك، ولم تجده

ورأيت صلاح يومها كما لم أره منذ زمان طويل إن ضحكته منطلقة صادقة ليس فيها هذا التعمد الذي يضعه دائمًا كأنه واقف دائمًا أمام آلة تصوير

والخطوط التي تركتها الأزمة تحت عينيه اختفت بسرعة وهما يتذكران الأغنية التي غنياها معًا في المولد ثم يغني لها أغنيته الجديدة وتغنيها معه إن صوتها فيه شيء إنها يمكن أن تصبح شيئًا جديدًا كبيرًا

وأصبحت فاطمة في حياة صلاح لا أقصد إن صلاح أصبح في حياة فاطمة أما حياته فإني لم أكن أعتقد أنه يمكن أن تكون فيها فاطمة أو أي إنسان آخر لقد أعطته فاطمة قوة جديدة قوة الزهو بالنفس قوة الغرور ولكن كل هذه القوة لم يكن يعطيها لأحد إلّا لفنه أنانية الفنان

وقد بدأ صلاح في إعداد الأغنية التالية ويقضي كل أيامه مع فنه، وفاطمة لم تجد طريقًا إليه إلّا أن تجري وراءه وهي لا تغضب إنه يعطي نفسه لشيء تحبه لفنه وهي راضية، فرحة به وتتحمله كأنها هي التي تغني وكانت تغني فعلًا كانت في الأوقات التي يبقى فيها صلاح في البيت وتأتي إليه، تغني معه وتعيد كل ألحان البروفات التي كان يؤديها وهي جالسة تسمعه وفي يوم قلت لصلاح

- إن فاطمة صوت جديد إنها تستحق أن تكون مطربة لنحاول أن نقدمها لأصدقائنا ونظر إليّ صلاح في دهشة كأني قد نسيته وقال

- انتظر إلى أن أنتهي من بناء نفسي أولًا

ورفض صلاح أن يقدم فاطمة إلى عالم الغناء أنانية الفنان ربما لم يكن يريد أن يكرر طبيعة الصراع الفني الذي كان قائمًا بين عبد الوهاب وأم كلثوم. كان يخاف أن يعاني هذا الصراع ويخلق أم كلثوم أخرى من يدري ربما كانت فاطمة تستطيع أن تكون شيئًا جديدًا بالنسبة لأم كلثوم، كما أصبح صلاح شيئًا جديدًا بالنسبة لعبد الوهاب ولكن المهم أن فاطمة نفسها لا تريد أن تكون أم كلثوم لا تريد أن تحترف الفن وتعلن نفسها أمام الجمهور كمطربة يكفيها صلاح إنها تجد فيه كل ما تحلم به لنفسها !

وكان صلاح قد اكتشف بعد الأغنية الأولى أن النجاح لا يتم إلَّا بجذب الناس إلى العمل الفني إن كل شيء يحتاج إلى قوة جذب حتى الأغنية الناجحة وقوة الجذب الكبرى هي الصحافة إن الزعماء السياسيين يعتمدون على الصحافة كقوة لجذب الناس لا يكفي أن الزعيم يلقي خطابًا ويجذب الجمهور دون أن تقوم الصحافة بمهمة وضع الجمهور أمامه والشيكولاته لا يأكلها الناس إلّا إذا جذبتهم إعلانات الصحف إلى شرائها أو أكلها وكذلك الفنان الذي يواجه الجمهور وبدأ صلاح يركز ذكاءه على الاتصال بالصحفيين حتى يجذبوا الناس إلى أغانيه الجديدة صغار الصحفيين وكبار الصحفيين وأذكر أن صلاح أقنع أحد صغار الصحفيين بأن يقدمه إلى أحد كبار الصحفيين وصحب الصحفي الصغير

صلاح إلى الصحفي الكبير وطلب منه أن يستمع إليه ولم يكن قد سمعه في أغنيته الأولى، وقال الصحفي الكبير

- اعمل معروف لا تجربه فيّ دعه يجرب نفسه في غيري

ولم تنقض شهور حتى أصبح هذا الصحفي الكبير من أقرب أصدقاء صلاح إن صلاح لا ييأس أبدًا من الاستيلاء على صداقة من يريد صداقتهم

وبدأ اسم صلاح يلمع في الصحف ولم يكن يكفي حتى يلمع اسمه أن يكون صديقًا للصحفيين بل يجب أن يكون قد نجح في اجتذاب الجمهور، حتى تضطر الصحف إلى ترديد اسمه أي يصبح نجاحه أقوى من أن تتجاهله الصحف ولكن الصحف بدأت تعرف قصة الحب بينه وبين فاطمة وبدأ صلاح يخفي قصة حبه لقد طلب من فاطمة ألّا تكون معه أثناء البروفات وطلب منها ألّا تظهر معه في مكان عام وكان عندما يدعى إلى حفل خاص ويجدها هناك يتعمد أن يبدو أقل اهتمامًا بها بل يتعمد تجاهلها وقلت له يومًا

- إنك تقسو عليها بهذا التجاهل

وقال وهو يتنهد بحسرة

- إني أقسو على نفسي إن مسئوليتي عن فني تأخذ مني أكثر مما أطيق إن المغني الذي يغني للحب يرسم أمام المستمع صورة من الخيال وهذا المستمع يتصور أن الفنان نفسه هو هذه الصورة كالقارئ الذي يقرأ قصة حب، إنه يتخيل أن الكاتب نفسه هو بطل هذه القصة ويعيش معه فيها، وقد تكون القارئة فتاة يأخذها خيالها إلى أن تتصور نفسها بطلة وأنها هي التي يحبها كاتب القصة وكذلك المطرب إني عندما أغني الحب أرفع المستمع إلى الحب إلى الخيال ولو عرف الناس قصة فاطمة فكل مستمع سيتصور أني أغني لفاطمة وحدها فينهار خيال المستمعات يفقد الخيال متعته لأنه ينقلب إلى واقع قصتي مع فاطمة أنا محكوم عليّ حتى أحتفظ بخيال المستمع والمستمعات بأن أشعر كل فتاة بأني أغني لها حتى ولو كنت في الواقع أغني لفاطمة محكوم عليّ أن أخفي حبي داخل قلبي وتحت ثيابي حتى لا يراه الناس !

وربما لم أقتنع بهذا الكلام ولكن فاطمة نفسها كانت مقتنعه به كانت مقتنعة بأن الفنان ملك لكل الناس وليس ملكًا لنفسه فإذا ابتسم يجب أن يبتسم لكل الناس وإذا أحب يجب أن يبدو كأنه يحب كل الناس ويجب أن تبقى حياة الفنان الخاصة بعيدة عن الناس إنها تفكر كما يفكر صلاح وتحس كما يحس صلاح بل خيل إليّ أنها أصبحت تتكلم بنفس أسلوب وصوت صلاح بل إنها أيضًا تقلده في

حركاته دون أن تتعمد التقليد ربما لأنها أحبته حتى جعلته قطعة منها من عقلها ومن شخصيتها وربما لأن النجاح السريع الذي حققه صلاح يجعل كل من يطمع في النجاح يتأثر به وفاطمة لا شك تطمع في النجاح وإن كانت لم تحدد بعد ماذا تريد أن تنجح فيه

ولكن الحدث الأكبر في حياة فاطمة وصلاح كان يوم عرفت بمرضه كان قد مضى أكثر من عام وهو يخفي عنها الأزمات التي تنتابه وتقفز بدمه من بين شفتيه، ويسقط بعدها وكأنه لم يعد فيه قطرة دم، كان يعتبرها هي أيضًا واحدة من الجمهور الذي يخفي عنه مرضه حتى لا تنهار صورته الفنية صورة الشاب المرح القوي المليء بالحياة الذي يغني للحب كانت شخصيته الفنية تغلب شخصيته الآدمية، حتى لا يريد أن يعترف بأن فاطمة يمكن أن تحبه كبني آدم إنها تحبه فقط كفنان والفنان لا يمكن أن يكون مريضًا وكانت فاطمة أحيانًا تلمح الهزال والضعف الذي يبدو على وجه صلاح ولكن - لأنها لم تكن تعرف أنه مريض - كانت تعتقد أن كل ما يبدو عليه هو نتيجة إنهاك نفسه في عمله الفني وأحيانًا كانت تعتقد أن هذه هي طبيعة تكوينه الجسمي ولد هكذا ترتسم فوق وجهه خطوط الضعف والهزال وينحصر قوامه في جسد رفيع قصير وكانت تقول له ضاحكة

- صلاح طول عمرك ستبقى سنك سبعة عشر عامًا إنك تستطيع أن تمثل في السينما أدوار الشباب المراهقين دون أن تحتاج إلى مكياج يا بختك احمد ربنا

إلى أن كانت يومًا معنا في البيت وكان صلاح قد استيقظ من النوم منهكًا عصبيًّا وجلس معها وهو لا يستطيع أن يستمر في حديث ولا يستطيع أن يغني لها أو يدعها تغني له وفجأة تقلصت عضلات وجهه، واتسعت عيناه كأنه يختنق، ويضع يده على صدره كأنه يحس في داخله بطلقات مدفع مترليوز تنفجر واحدة بعد الأخرى وفمه مفتوح إلى آخره دون أن يصرخ وصرخت فاطمة

- صلاح ماذا حدث لك؟! أجبني تكلم

ولم يتكلم صلاح إنه لا يستطيع وقام يجري مترنحًا ناحية الحمام، وقبل أن يصل إليه سقط على الأرض وانفجر شلال الدم من بين شفتيه

إنها الأزمة

ولأول مرة تراه فاطمة في أزمته

وساعدتني فاطمة في حمله إلى فراشه، وهي ترتعش وتصرخ

- الدكتور اطلب الدكتور أين الدكتور؟

ولم تكن تعرف أن صلاح كان حتى اليوم يحرم علينا استدعاء الطبيب حتى لا يعرف الناس خبر مرضه .

وكان شلال الدم قد توقف قبل أن نصل بصلاح إلى فراشه إنه شلال لا يستغرق سوى ثوان كطلقات مدفع المترليوز، ونظر إليها صلاح وهو ممدد يلتقط أنفاسه كأنه يسترد بها الحياة، وقال في ضعف

- لست في حاجة إلى دكتور يا فاطمة أنا بخير الدم توقف

ثم اغتصب ابتسامة من بين شفتيه وعاد يقول

- أمس وضعت على عشائي نصف كيلو شطة على الأقل وهذا هو السبب إنها ليست القوطة هي المجنونة كما يقول الناس إنها الشطة الشطة مجنونة وأنا مجنون بالشطة !

وفاطمة تنظر إليه في تعجب، ثم انقلبت نظرتها إلى نظرة غاضبة ثائرة كأنها أم أخرجها ابنها عن هدوئها، وصرخت في وجهه

- اسمع أنا أفهمك جيدًا ليس هناك عاقل يرفض استدعاء الطبيب بعد أن يتقيأ دمه إننا نستدعي الطبيب عندما نصاب بصداع أو زكام وأنت أفرغت دمك، ربما كان فيك شيء تمزق، ولكنك لا تريد الطبيب لأنك لا تريد أن تعترف بالمرض لا تريد أن يعرف الناس أنك مريض حتى أنا أخفيت عني كل هذه الأيام أنك مريض اعتبرتني واحدة من جمهورك إنك لا تحبني وأنا مجرد إحدى المعجبات بفنك الرفيع

ورأيت صلاح يرفع رأسه كأنه يستجمع كل شبابه مدافعًا عن نفسه، ولأول مرة أسمعه يعترف

- فاطمة أنا أحبك عمري ما اعتبرتك واحدة من الجمهور ولكني أخفيت عنك لأني كنت أخاف على حبك من مرضي إني أريد حبك كاملًا ولا أريده إشفاقًا عليّ من مرضي

وقالت فاطمة وقد استردت هدوءها

- اثبت لي حبك

قال

- كيف؟! ما هو أكثر من أن أتركك تريننى في ضعفي في مرضي؟ !

قالت في هدوء

- الأكثر أن تتركنا نستدعي الطبيب

والتفتت إليّ فاطمة تطلب مني أن أستدعي الطبيب في التليفون، واحترنا، هي وأنا، في تحديد اسم الطبيب الذي نستدعيه، ولكن صلاح هو الذي حدد اسم الطبيب من يدري ربما كان قد تردد على هذا الطبيب من قبل سرًّا ودون أن يبلغني أو ربما كان يراجع بينه وبين نفسه أسماء الأطباء ويختار المتخصص في مثل حالته استعدادًا لمثل هذا اليوم إن ذكاءه يتسع لكل شيء !

وجاء الطبيب

وقبل أن يصل كان فاطمة قد أخذتني خارج الغرفة وجلست معي بحجة أن نترك صلاح ليستريح وجعلتني أعترف لها بكل حالات مرض صلاح

وكان الطبيب قد وصل بأسرع مما نتصور، ربما لأنه اندفع وراء فرحته باستدعائه لعلاج المطرب المشهور صلاح، وربما لأنه أحس بإرضاء غروره بنفسه واكتساب شهرة طبية عندما يعرف الناس أنه طبيب المطرب المشهور، وربما لأن هذه هي طبيعته في تلبية حاجة المرضى الله أعلم ولكنه جاء بسرعة والاهتمام يشمل كل ملامح وجهه، ودخل إلى صلاح وأنا وفاطمة معه وبدأ يسأله وصلاح يجيب إجابات مائعة، وهو لا يزال مصرًّا على الاحتفاظ بابتسامته، كأن الطبيب ليس سوى واحد من الجمهور

وتدخلت فاطمة قائلة في حزم

- قل كل شيء بصراحة يا صلاح وإذا لم تقل فسأقول أنا إنني الآن أعرف كل شيء .

ونظر إليها صلاح غاضبًا، كأنه ليس من حقها أن تحادثه بهذه الجرأة أمام غريب أمام واحد من الجمهور ولكنه بدأ يكون أكثر صراحة في حديثه مع الطبيب

واستغرق الطبيب وقتًا طويلًا في الكشف على صلاح ثم كتب له مجموعة كبيرة من الأدوية تشرب وتبلع وتحقن، ثم قال وهو يجمع أدواته

- بسيطة ولكن أرجوك لا تتحرك من الفراش إلَّا بعد أن أقول لك إن الكشف لم يتم بعد يجب أن نأخذ أشعة على كل جسمك خصوصًا الكبد ثم قال لنا الطبيبِ ونحن نسير به إلِى بابِ الخروج

- المسألة ليست سهلة أعتقد أنه نوع من تليف الكبد نتيجة البلهارسيا نتج عنه فقاعات في المرئ يتجمع فيها الدم، وتتضخم إلى أن يتقيأ دمه كل ذلك مجرد استنتاج، في انتظار الأشعة

وما كاد الطبيب يخرج ونعود إلى صلاح حتى قال

- العود هاتوا العود

وقالت فاطمة

- عود إيه يا صلاح؟! الدكتور كتب لك حقنة منومة ويجب أن تنام تستريح

وصرخ صلاح

- العود مش ممكن أنام وأنا عايز العود وخلاص اعتبري الزيارة انتهت فين العود؟ !

ودون أن أسمع رأي فاطمة حملت العود ووضعته بين يدي صلاح إني أطمئن على صلاح والعود في أحضانه أكثر مما أطمئن عليه وهو بين يدي الطبيب !

وانصرفت فاطمة خارجة وهي غاضبة .

ونغم العود يملأ البيت بلحن الأغنية الجديدة وصرخت من بعيد

- مش كده يا صلاح غلط راجع الفقرة دي تاني

*

(5)

وهكذا عشت مع صلاح عشت معه والأزمات التي تستنزف دمه لا تنتهي ولا تتوقف وتكاد في كل مرة تقضي عليه، ولا ينقذه منها إلّا أن يمارس فنه ويستمد منه قوة تعيده إلى الحياة حتى أصبحت أؤمن أن قوة الفن أعظم من قوة العلم أقوى من علم الطب والأطباء، إن العلم يأمره بأن يبقى في فراشه ويهدده بالموت والفن يأمره أن يعيش فنه، أن يعيش بين الناس أن يغني

ويضحك ويعمل وينتصر الفن على العلم! ولكن تعدد الأزمات على صلاح جعله يعيش وهو في حالة خوف دائم ونقله الخوف إلى حالة عجيبة، فهو لا ينام الليل أبدًا وينام النهار، وعندما حاولت في بداية هذه الحالة أن أجعله كبقية الناس ينام الليل ويعيش النهار قال لي في يأس

- لا أستطيع إني أخاف الليل أخافه لأن كل الناس من حولي نيام وقد تنتابني الأزمة فلا أجد من حولي أحدًا ليساعدني عليها ولذلك يجب أن أبقى صاحيًا حتى أساعد نفسي أو أستطيع أن أوقظ من يساعدني أما في النهار فكل من حولي في يقظة فأنام أنا مطمئنًا على نفسي إني أخاف الليل رغم أني أغني الليل للناس

وأنا مع صلاح في خوف دائم أخاف عليه وهو في أزمته وأخاف عليه وهو يتحدى الأزمة ويستسلم لفنه ويهرب من فراشه ليعمل ليغني وهكذا فاطمة أصبحت تعيش مثلي مع صلاح صلاح المريض المنهار الذي ينزف الدم، صلاح الفنان الجبار الذكي الأناني الذي يستطيع أن يحصل دائمًا على كل ما يريده فنه

ولكن فاطمة بدأت تعيش حالة جديدة فإن نجاح صلاح جذب إليه مئات المعجبات بنات ونساء يجذبهن إليه فنه ونجاحه وكل منهن تحاول الاستيلاء عليه، أو على الأقل تحاول تذوقه إن النجاح يجعل من الرجل الناجح شيئًا أشبه بقطعة الفاكهة النادرة التي تطمع كل امرأة في الاستيلاء عليها أو على الأقل تذوقها وكان صلاح يفرح بأنه قطعة من الفاكهة النادرة، ويفرح بهؤلاء المعجبات، ويفرح بالتليفونات والخطابات والدعوات الخاصة ويفرح أكثر عندما تكون المعجبة من عائلة كبيرة معروفة إنه يحس معها أنه استولى على العالم كله من القمة إلى السفح

وكنت أرى صلاح وهو مع هؤلاء المعجبات أو وهو يحادثهن في التليفون كأنه يمثل دورًا في فيلم سينمائي إنه يبدو كأنه كله حب، وكله فن، وكله رقة، وحديثه الذكي يستطيع به دائمًا أن يكمل الصورة التي رسمها، حتى لا يترك واحدة إلّا وقد استسلمت لكل ما يريده ويتركها وهي تعيش الحب حبه وكان خبر مرض صلاح قد أذيع وانتشر وعلى عكس ما يتصور صلاح فإن الجمهور تعلق به أكثر بعد أن عرف بمرضه وازداد عدد المعجبات الجريئات إن الجمهور يزداد ثقة بالإنسان الضعيف المريض !

وأصبحت صورة صلاح أمام الناس هي صورة الرجل المريض الذي لا يمكن أن تكون له شهوة في إحدى النساء إنه مريض ولا يستطيع أن يستسلم لشهوة واطمأن إليه الرجال فلا يشك أحد منهم في أنه يمكن أن تكون له علاقة بامرأة بزوجة أو ابنة أو أخت والبنات اطمأنن أكثر إلى الاتصال به لأن لا أحد يمكن أن

يشك في أنه يمكن أن تقوم علاقة كاملة بين أي فتاة وبينه اكتسب سمعة البراءة كأنه راهب ولا يمكن أن يكون إعجاب امرأة به أكثر من إعجاب بالفن

وبدأت فاطمة تجتاز مرحلة حائرة إنها تحبه تحبه قبل أن يكون قطعة من الفاكهة النادرة وهي تخاف على حبها من هاتيك المعجبات وهي تعلم أن صلاح ليس مجرد فنان إنه رجل كبقية الرجال ومرضه ليس له علاقة برجولته وأحيانًا كانت تشتد بها الغيرة وتبدأ في نقاشه والصراخ في وجهه، فيرد عليها وهو يحتضنها بين ذراعيه

- لا تكوني مجنونة يا فاطمة هذا شغل الشغل عايز كده أنا مضطر وكما أني لست ملك نفسي، لا أستطيع أن أكون ملكك لوحدك أنا ملك الناس وإذا كنت بتحبيني صحيح لا تحرمي الناس مني، ولا تحرميني من الناس

وكانت تقول ودموعها تلمع في عينيها

- أنا خايفة عليك يا صلاح وخائفة على نفسي خائفة أن تضيع مني ماذا يطمئني؟ !

ويقول وصوته ينبض بحبه

- يطمئنك أن ليس بينهن واحدة تعرفني كلهن يعرفن صوتي بس ليس بينهن واحدة تعرف شكلي عندما تنتابني الأزمة ولما باتنرفز وباتخانق باقول إيه ولما باكل على راحتي باكل إيه وباكل إزاي ليس بينهن واحدة تعرف صلاح الإنسان وكلهن لا يعرفن إلّا صلاح الفنان وإنتي عارفة إني فنان وأنت لوحدك اللي بتشوفيني كإنسان

وكانت فاطمة تقتنع، وتتحمل المعجبات، بل إنها أحيانًا وهي معنا في البيت كانت ترد على التليفون وتتلقى مكالمات المعجبات ثم تعطي السماعة لصلاح وتجلس بجانبه وهي تسمعه يمثل دور راهب الحب وعندما كانت تسألها المعجبة التي تتلقى مكالمتها عن من هي كانت ترد أنا أخته وأحيانًا ترد أنا الشغالة يا ستي

وربما كان أكثر ما يطمئن فاطمة في حيرتها أنها كانت مقتنعة بأنها وحدها التي لها الحق في زيارة صلاح في بيته كل البنات يحادثنه في التليفون ويقابلنه في الحفلات الخاصة أو العامة هي وحدها التي تدخل البيت

وكانت فاطمة تحيرني دائمًا تحيرني في شخصيتها وتحيرني في كل حياتها فهي - كصلاح أيضًا - لا تتحدث كثيرًا عن نفسها ولا تتكلم إلّا بقوة ذكائها كنا لا

نعرف شيئًا كثيرًا عن عائلتها ولا عن حياتها العائلية كل ما كنا نعرفه أنها تعيش مع أبيها الموظف بوزارة الداخلية، ومع زوجة أبيها، بعد أن توفيت أمها وطبعًا كنا نعرف عنوان بيتها ونمرة التليفون ولا أكثر وكنا نعرف أنها طالبة في الجامعة كلية الاقتصاد والسياسة ولكنها كانت أغلب الأيام معنا وكنا نسألها لماذا لم تذهب إلى الجامعة، فتقول ضاحكة زوغت أو تقول في قرف

- ما ليش نفس للجامعة أنا دخلت الجامعة بس علشان أخرج من البيت

وكان الشيء الوحيد الذي تتمسك به هو أن تعود إلى بيتها في الساعة السادسة حتى تتفادى ثورة زوجة أبيها لم نرها أبدًا بالليل

إلى أن دخلت نهال في حياة صلاح !

(6)

كانت نهال من أجمل فتيات المجتمع الراقي كانت ابنة رجل حفيد عائلة السلاموني، واستطاع أن يستمر في الاحتفاظ بمستوى ثرائه ومكانته الاجتماعية وربما كان في حياة نهال ما جعلها دائمًا هادئة هدوءًا أقرب إلى الحزن، صامتة دائمًا كأنها مكتفية بأن تعيش في خيالها والهدوء والصمت يلفانها بالطبيعة الحلوة ويحتفظان لجمالها ببهرة ليست مثيرة أقرب إلى صورة من صور الملائكة أو صورة مريم العذراء وربما كان ما في حياتها هو ما أدى بها إلى التعلق بصوت صلاح وأغاني صلاح، هو ما جعلها تتعلق به منذ اليوم الأول الذي التقت به في خلال حفلة عائلية خاصة

وبهر صلاح بها كما لم يبهر من قبل بهر بجمالها وبهر باسم عائلتها الكبير وبهر بهدوئها، وبهر بصمتها

هل أحبها؟ !

لا أدري

ولكن كل أيامه أصبحت «نهال» إنه يفتح عينيه ليحدثها في التليفون ويحدد مصير يومه كله بعد أن يحدد مصيره معها في هذا اليوم متى يلقاها ومتى

تحدثه في التليفون وبعد ذلك كل شيء، حتى فنه أصبح يأتي بعد تحديد مصيره مع نهال

وهي نهال

قطعًا أحبته

إنها تعطيه من اهتمامها ومن اللهفة إليه أكثر ما تعطي فتاة لا يدفعها سوى الإعجاب بفنه وبدأت قصة نهال وصلاح تنتشر في المجتمع، ثم نشرت في الصحف ولم يعترض صلاح على نشر القصة في الصحف وقد كان يستطيع بصداقته لكل رجال الصحافة أن يمنع نشرها ولكنه لم يفعل ربما لأنها قصة يتباهى بها وترضي غروره، أو ربما لأنه قدر أنها قصة ترفعه في أعين المعجبات لأن نهال بينهن شيء غال ثمين !

ولم تكن فاطمة قد عرفت شيئًا عن قصة نهال وكان صلاح لا يزال مرتبطًا بها وإن كان قد أصبح يحتج بأعماله ومواعيده حتى يقلل من زياراتها له واتصاله بها إلى أن قرأت ما نشر في الصحف

وجاءت إلى البيت وأنفاسها مبهورة وبلا موعد ولم يكن صلاح في البيت فانتظرته وتأخر إلى ما بعد الساعة السادسة فبقيت في انتظاره. إلى أن جاء في الساعة التاسعة يبدل ثيابه استعدادًا لحفل كان يقيمه في تلك الليلة، وفوجئ بها

إنه لم يتعود أبدًا أن يرى فاطمة بعد الساعة السادسة

وقالت في هدوء

- إيه الحكاية الجديدة دي يا صلاح؟ !

قال وجفونه ترتعش فوق عينيه

- حكاية إيه؟

قالت وهي لا تزال تبتسم

- حكاية اللي اسمها نهال

وقال وهو يلوي شفتيه ساخرًا

- زي بقية الحكايات

قالت

- بس أنت بتقول لي على كل الحكايات، ودي ما قلتليش عليها

قال

- ما افتكرتش وما جتش مناسبة

قالت

- واشمعنى الحكاية دي اللي انتشرت في الصحف

قال

- أنا عارف يمكن علشان من عيلة معروفة

قالت

- بس أنت كنت تقدر تقول لهم ما ينشروهاش

قال وقد بدأ يفقد أعصابه

- أنت فاكراني عايش في الجرايد علشان أعرف إيه اللي يتنشر وإيه اللي ما يتنشرش ما احنا حكايتنا اتنشرت، قبل ما أطلب أنها ما تنتشرش .

قالت

- وحكايتها زي حكايتي

وصرخ صلاح

- فاطمة ما تجننيش إذا كنت بتقولي بتحبيني يبقى حبيني زي ما أنا ما فيش فايدة إنك تغيريني وما فيش فايدة إنك تحاسبيني

قالت وهي تكاد تبكي

- الحب يعني أطمئن على حبك وأنا مش مطمئنة

قال كأنه قرفان

- أطمنك إزاي؟

ونظر إليها طويلًا إلى أن هدأت ثورته، ثم ارتفعت إلى شفتيه ابتسامة هادئة كأنه استرد كل حبه لفاطمة، وقال وهو يقترب إليها ليأخذها بين ذراعيه

- عايزة تطمني بوسيني

وتركتهما ليكملا بقية قبلتهما

وفي اليوم التالي كنت أنا الذي أتصل بفاطمة بالتليفون لأطمئن عليها بعد أن تأخرت في العودة إلى بيتها ما بعد التاسعة ولم ترد على التليفون رد صوت عنيف كلماته كقطع الحجارة تلقى في وجهي لعلها زوجة أبيها واتصلت مرة ثانية، ولم ترد فاطمة أيضًا وفي آخر النهار هي التي اتصلت لتقول لي إنها تشاجرت مع زوجة أبيها بسبب تأخرها وتركت البيت، وهي تقيم الآن عند إحدى صديقاتها، وعندما أحست بانزعاجي عليها، قالت ضاحكة

- ما يهمش مش دي أول مرة كلها كام يوم وأرجع البيت تاني

وصلاح مستمر في علاقته مع نهال وأصبح يبدو معها في المجتمعات، بل ربما كان يتعمد الظهور معها، إلى أن بدأت صورتهما تظهر بجانب صورته في الصحف

وفاطمة تحتمل بل تحتمل أيضًا تهرب صلاح منها، وتباعدت الأيام التي أصبحت تلقاه فيها إلى أن أصابته الأزمة يومًا، وما كاد نزيف الدم يتوقف حتى صرخ

- فين فاطمة؟ دور على فاطمة

وفي هذا اليوم، وهو لا يزال راقدًا في فراشه عقب الأزمة، اتصلت نهال بالتليفون وأشار إليّ من بعيد لأقول لها إنه خرج، بينما كانت فاطمة قد جاءت لتجلس بجانب فراشه فراشه المريض

ومرت الأزمة

وعاد صلاح يغني ويثير ضجة حول حكايته مع نهال ويخفي حبه لفاطمة

ولم أكن أعرف أن نهال مخطوبة إلَّا بعد أن قرأت خبر فسخ خطبتها في الصحف

وأعقب نشر خبر فسخ الخطبة إشاعات ملأت البلد كلها حول قرب زواج صلاح، وكنت أنا أول من سأل صلاح

- هل ستتزوجها؟

وأجاب ضاحكًا

- مش ممكن ما فيش واحدة ترضى بينا احنا الاثنين أنا وأنت. كل حاجة عملناها من يوم ما اتولدنا احنا الاتنين فاكر اللعب اللي لعبناه في البلد والكتاب والمدرسة والناي والكمنجة والمزيكة والفن والجوع والشبع والضحك والبكاء كله احنا الاتنين إلَّا الجواز أهو ده اللي ما نقدرش عليه احنا الاتنين

وضحكت دون أن أفهم شيئًا من نيات صلاح ونهال !

وجاءت فاطمة

جاءت ثائرة على غير عادتها لا تحاول أن تعتمد على ذكائها ولا تحاول أن تفتعل الهدوء ولا النفاق وجاءت في الساعة الثامنة صباحًا حتى تتأكد من أن صلاح لن يهرب منها بعد أن يقوم من النوم وما إن فتح عينيه حتى ألقت عليه صراخها وربما قبل أن تقول له صباح الخير

- أنت حاتتجوز اللي اسمها نهال؟ !

وانتفض من فوق وسادته كأنه يتلقى كارثة وقال

- لا

وقالت له في سرعة

- خلاص ما دام مش حاتتجوزها اتجوزني

وصرخ

- إيه الكلام اللي بتقوليه ده من امتى بتتكلمي عن الجواز؟ !

وارتفع صراخها على صراخه

- من يوم ما شفتك وأنا باتكلم عن الجواز وأنت سامعني كويس وما بتردش وكنت ناوية أعيش وأنا باحلم بالجواز حلم أحلم وبس واستحملت كل حاجة

علشان أفضل عايشة في حلمي استحملت يوم ما خبتني عن الناس وفضلت تخبيني لغاية دلوقت مش عايز حد يعرف بيني وبينك إيه واستحملت أنك منعتني عن أني أتعلم الفن، كنت عارفة إنك بتفكر في نفسك أكثر ما بتفكر فيّ استحملت اللي بتقول عليهم معجبات ودلوقت حضرتك رايح جاي مع واحدة تانية وسايب الناس والجرايد تتكلم وأنت ساكت ومبسوط وآخر حاجة إنهم يقولوا إنك حاتتجوز حتى لو كانت إشاعة ليه الإشاعة ما تكونش عليّ أنا تعرف ليه لأنك مستعر مني مش مالية عنيك بتحبني في السر وبس ومين عارف بتحبني ولا ما بتحبنيش !

وصرخ صلاح

- أنت اتجننتي أنت مش فاطمة مش فاطمة اللي بحبها فاطمة قدرت تفهم إني فنان وقدرت تعرف إني ما اتجوزتش إلّا غنوة جديدة وإلّا لحنًا جديدًا و .

وقاطعته صارخة

- كفاية حكاية الفن بأه الفنان مش هو الإنسان اللي يودي غيره في داهية

وصرخ صلاح

- أنا ما وديش غيري في داهية أنا بودي نفسي وأنا ما طلبتش منك حاجة. ما كذبتش عليك وما وعدتش وما عملتش بوعدي أنت اللي راضية بي مش أنا اللي غاصب عليك

وقالت

- وأنا دلوقتي مش راضية حاتعمل إيه؟ !

قال

- أنت عايزه إيه؟

قالت

- عايزه أنك تتجوزني وإذا ما اتجوزتنيش خللي الناس تتكلم عني أنا

وقاطعها

- ما اقدرش مش ممكن وإذا ما كانش عجبك سيبيني ابعدي عني

وصرخت

- للدرجة دي للدرجة دي يا صلاح

ثم رفعت أباجورة الإضاءة من جانب فراشه وألقتها على الأرض، ثم أخذت تحطم كل ما تصل إليه يداها في الغرفة وهي تصرخ

- أنا أحسن منك ومنها ميت مرة أنا اللي عملته لك ما فيش واحدة تعمله لواحد أنا مجنونة أنا مجنونة !

وأمسكت بها حتى لا تحطم باقي الغرفة وأنا أحاول أن أهدئها، ولكنها تخلصت من بين يدي، وانطلقت تجري خارج البيت

وقفز صلاح من فوق فراشه يحاول أن يلحق بها ولكنها كانت قد خرجت وصفقت الباب وراءها بعنف كأنها تصفع البيت كله وعاد صلاح إلى فراشه صامتًا وعلى وجهه آثار معاناة عاطفية عنيفة إنه يحبها إني إلى اليوم مقتنع بأن الحب الوحيد في حياة صلاح هو فاطمة كل البنات اللاتي مررن به كن أشبه بألحان اجتماعية يواجه بها المجتمع حتى نهال ولكن فاطمة كانت حياته الخاصة حبه الذي يضعه بعيدًا عن عمله وعن مظهر الفنان وعن المظاهر والإشاعات الاجتماعية وقد بقي في فراشه صامتًا ثم مد يده إلى التليفون وطلب فاطمة ليست هي التي ترد وبعد قليل حاولت أنا أن أتصل بها في التليفون ولم ترد ثم عاد صلاح وحاول الاتصال بها بالتليفون ولم ترد وقال لي وكلماته ترتعش بين شفتيه

- أنا لازم أطمئن عليها لتكون عملت في نفسها حاجة قوم نروح لها في البيت !

*

(7)

كان من المستحيل أن نذهب أنا وصلاح لزيارة فاطمة في بيتها إن أهلها سيطردوننا بمجرد أن يروا صلاح وقد يعتدون علينا بالضرب فهم يعتقدون أن

صلاح هو الذي جنى على مستقبل فاطمة، لذلك فصلاح يصر، ثم رضي أخيرًا أن أذهب أنا وحدي إلى هناك .

وقلت له

- ولكني لا أعرف أحدًا من أهلها .

قال

- ولو اعمل نفسك زميلها في الجامعة ولّا أي حاجة

وقررت أن أذهب إلى بيتها بعد الساعة السادسة حتى أتأكد من أنها عادت إليه كعادتها إذا كانت قد قضت اليوم في الخارج

وضغطت على جرس الباب وفتح لي رجل مكفهر الوجه، لا شك أنه والدها وقلت له إني زميل فاطمة في الجامعة وإني جئت إليها بكراسة المحاضرات كما طلبت مني وصرخ الأب في وجهي

- ابعدوا عن فاطمة بأه كفاية اللي عملتوه فيها غور من وشي

وصفق الباب في وجهي !

وعدت إلى صلاح وكان يتحدث في التليفون يتحدث إلى نهال ولأول مرة أراه وهو يبذل جهدًا كبيرًا حتى يحتفظ بهدوئه وهو يتحدث إلى نهال وأنهى المكالمة بسرعة، وهو يسألني بلهفة

- لقيتها؟

ورويت له كل ما حدث وصلاح يزداد عصبية، وهو يردد دي مجنونة أنا عارف أنها مجنونة وبدأ يستعد للسهرة التي أقيمت يومها وهو في عصبية بل إنه قبل رفع الستار بدقائق غيّر برنامج الحفل، ووضع أغنية لم تكن في البرنامج مكان أغنية أخرى مما أخّر رفع الستار حوالي نصف ساعة حتى يعيد الموسيقيون تجميع أوراق اللحن الآخر ويستعد كل منهم وغنى صلاح وأحسست يومها لأول مرة أنه يغني لفاطمة وحدها يناديها من بعيد ويرجوها ألّا تتركه وحده

وانتهى الحفل في حوالي الثالثة صباحًا وذهبنا لتناول العشاء في الكافتيريا وصلاح لا يتحدث عن الحفل، ولا يحاسب نفسه أو يحاسب الموسيقيين كعادته ثم بعد ذلك فوجئت وأنا بجانبه في السيارة بأنه يسألني عن مكان بيت فاطمة،

ثم يقود السيارة إلى هناك ويوقفها بحيث يستطيع أن يراقب باب البيت وقال في إصرار كأنه لا يقبل المناقشة

- أنا متأكد أنها بايته في بيتها والصبح حاتنزل تروح الجامعة أو أي حتة

نستناها لغاية ما تنزل

وكانت الساعة الخامسة

ولم أناقش صلاح، إني أعرف جنونه

ونمت في السيارة وهو لا ينام

وأصبحت الساعة الثامنة والتاسعة والعاشرة والناس تمر وتنظر إلى صلاح في دهشة وبعضهم يقف ويحييه وهو يدعي لكل من يسأله أنه في انتظار أحد أصدقائه ولم تخرج فاطمة من باب البيت

وعاد صلاح إلى بيتنا وهو منهار، أخاف عليه أن تدهمه الأزمة ولكن الأزمة لم تدهمه، ويبدو أن الحب كالفن أقوى من المرض وقضى يومه وهو يحاول أن ينام، ثم يقوم يطوف أنحاء البيت في خطوات عصبية كأنه يبحث فيه عن فاطمة، ثم يعود ويحاول أن ينام

وفي اليوم التالي دق جرس التليفون، وكانت فتاة تريد أن تحادث صلاح وهممت أن أعتذر لأن صلاح لم يكن في حالة يستطيع فيها الكلام ولكنها أسرعت وقالت إنها صديقة فاطمة فأعطيت التليفون لصلاح وقالت له الفتاة إنها رأته أمس في سيارته في انتظار فاطمة، وكل سكان الحي رأوه، وكلهم يعرفون حكايته مع فاطمة وهي تريد أن تبلغه أن فاطمة نقلت هذا الصباح إلى المستشفى مستشفى المقطم وأنها تبلغه دون أن تستأذن فاطمة في إبلاغه وعندما سألها صلاح وهو يرتعش عن صحة فاطمة، أجابت

- دي تعبانة تعبانة قوي يا أستاذ كلنا بندعي لها !

وأصبح صلاح كأنه مجنون !

وبحثنا عن مستشفى المقطم

إنه مستشفى للأمراض العصبية

وسألت عنها في التليفون وقال لي عامل التليفون إنها ليست في خطر، وطلبت أن أتحدث إلى الطبيب المختص وقال لي أيضًا إنها ليست في خطر، ولكنها في حاجة إلى علاج يعيد أعصابها إلى طبيعتها ومضى أكثر من أسبوع استطاع صلاح خلاله أن يتعرف بطبيب المستشفى، وأن يتلقى منه كل يوم تقريرًا عن صحة فاطمة، إلى أن اتفق معه على أن يسهل له زيارتها في وقت لا يكون أهلها معها لم يقل للطبيب عن قصة حبه لها، ولكنه قال إنها معجبة قديمة تعودت أن تعبر عن إعجابها دائمًا وهو لا يعرف أحدًا من أهلها، ولذلك يريد أن يراها وحدها !

وذهبت معه إلى المستشفى

وكان لقاء عجيبًا

إن فاطمة قد استعادت كل أعصابها تمامًا ولكنها تغيرت إنها لا تحادث صلاح بنفس اللهفة، ولا بنفس اللهجة وهي تبدو دائمًا كأنها تفكر في شيء بعيد ورغم الكلام الكثير الذي قاله صلاح يؤكد لها حبه وارتباطه بها العمر كله، حتى بلا زواج وحتى لو تزوجت غيره فإن حبها هو الذي يعينه على فنه وعلى مرضه ورغم كل هذا الكلام فإن فاطمة كانت تتلقاه بابتسامة شاكرة دون أن يبدو عليها أنها أصبحت تتأثر بهذا الكلام

وخرجنا من المستشفى وصلاح حائر مثلي في الشخصية الجديدة التي رأى بها فاطمة

خرجنا وقد اطمأننا أن فاطمة ستترك المستشفى بعد أيام

كل ذلك وقصة صلاح ونهال مستمرة. وإشاعة زواجهما تتسع وبدأت الصحف تشير إليها دون أن يحاول صلاح أن يتدخل لينفي الإشاعة أو يسكت الصحف لقد كان في حاجة إلى نهال إنها أعطته مجتمعًا كان طول عمره يريد أن يصل إليه مجتمع القمم ومظاهر وتقاليد وفخامة حياة القمم وكانت نهال تبدو أحيانًا كأنها تلقنه دروسًا في تقاليد حياة هذا المجتمع، بل إنها بدأت تعلمه اللغتين الفرنسية والإنجليزية، وقد تعمد أن يجيد اللغتين حتى أنه لم يكتف بنهال فاتفق مع أساتذة يعطونه دروسًا خصوصية في البيت

والإشاعة أصبحت أكبر من أن تعيش العمر كله كإشاعة ونهال تعاني ضغطًا من عائلتها ومن خطيبها السابق لتعود إليه وأصبح صلاح مضطرًّا أن يواجه نفس المشكلة، مشكلة الزواج وهو يعرف عائلتها ويعرف أنها عائلة لا ترحب كثيرًا بزواجه من ابنتها ولكنه يستطيع رغم ذلك أن يتزوجها حتى لو اضطر أن يهرب بها ولكن هل يتزوج صلاح؟ لا إنه لا يريد لا يستطيع إنه ليس ملكًا لنفسه

إنه ملك فنه ملك الناس كلهم ولا أدري هل استطاع أن يقنع نهال بكلامه أو أنها اضطرت للاستسلام لما يريده حتى تحتفظ بكرامتها وتقاليدها وتعاليها؟ !

وقبلت أن تعود إلى خطيبها الأول تحت ضغط عائلتها، وقالت لصلاح

- إننا لا نستطيع أن نتزوج ونحن نعيش الحب وأنا مضطرة أن أعيش الزواج بلا حب

وقال صلاح بذكائه الذي لا يعجز أبدًا عن المنطق الذي يبرر به تصرفاته

- إن الزواج هو الواقع، والحب أقوى من الواقع وأنت وأنا مضطران أن نستسلم للواقع، ونحتمله لأننا لا نفقد الحب أبدًا

وقد عارضته أنا كثيرًا كنت أريده أن يتزوج نهال ما دام لن يتزوج فاطمة قلت له إن عبد الوهاب عاش عمره الفني ولا يزال يعيشه وهو متزوج، دون أن يفقد الجمهور ولا لهفة المعجبات، وكان يقول لي

- عبد الوهاب من جيل لم يكن فيه الزواج يستولي على الرجل كله وعبد الوهاب لا يعاني ما أعانيه من أزمات وعبد الوهاب أستاذي في كل شيء حتى في فن الحياة ولا أستطيع أن أرتفع إلى مستوى أستاذي .

وتزوجت نهال

وصلاح هو الذي أحيا حفل الزواج وكنت أحس به وهو يغني كأنه هو الذي يملك نهال وهو الذي تنازل عنها في سبيل إسعادها كان يتصرف كأنه صاحب البيت وكأنه صاحب الفضل وربما كان هذا هو الإحساس الذي كانت تحسه نهال نفسها فحتى بعد الزواج ظلت على علاقتها بصلاح تدعوه إلى بيتها وتسأل عنه، وتطمئن عليه وتحبه !

*

وخرجت فاطمة من المستشفى ولم نعلم بخروجها إلَّا عن طريق الطبيب ولم تتصل بصلاح بعد خروجها، وفوجئنا بأحد أصدقائنا من أفراد الفرقة الموسيقية يبلغنا بأنها ذهبت إلى نادي الفرقة وكانت تعرف كل أفراده عن طريق صلاح، وأنها بقيت هناك وقتًا طويلًا وأنها غنت لم تغن كمحترفة ولكنها غنت وسط أفراد الفرقة وهي تضحك معهم وقال صديقنا والله صوتها مش بطال وجمد صلاح لهذا التطور الذي حدث في حياة فاطمة، إنها لم تعد حريصة على أن

ترضيه بانعزالها عن الجو الفني وخصوصًا عن أصدقائه بل إنها كل يوم أصبحت مع صديق من هؤلاء الأصدقاء واستطعت أخيرًا أن أجدها ولمتها لأنها لم تحاول لقاء صلاح وقالت في بساطة

- هو عايز يشوفني خلاص أشوفه

وجاءت إلى البيت ولكنها جاءت إنسانة أخرى جلست تتكلم كأنها إحدى المعجبات وتهرب من أي حديث يبدأه صلاح عن الحب والفن حتى عندما هم بتقبيلها أعطته قبلتها في برود كأنها تحاول أن ترضيه أو كأنه زبون من زبائن القبل وعندما ثار صلاح وبدأ يصرخ في وجهها ويستعمل لأول مرة ألفاظًا جارحة تخدشها ردت عليه بهدوء

- اسمع يا صلاح أنا لسه بحبك ويمكن أفضل أحبك عمري كله إنما أنا قررت أني أحبك زي ما أنت بتحبني تمام أنت بتحط فنك ومستقبلك الأول، وبعدين الحب وأنا كنت بحط الحب الأول حتى لو ضحيت بفني ومستقبلي، إنما خلاص حبقى زيك، فني ومستقبلي الأول أنا فنانة يا صلاح وأنت عارف إني كلي فن وأحب أقولك إني سبت الجامعة وبقيت في معهد الباليه اخترت الباليه علشان أنا عارفه أنك مش عايزني أغني مش عايزه أبقى أنا وأنت في فن واحد وأنا مش عايزاك تضحي بحاجة إنما عايزاك تعفيني من التضحية خلاص أنا تعبت من التضحية !

واستمر النقاش والجدال بينهما كأنه لن ينتهي أبدًا

وأصبحت العلاقة بين صلاح وفاطمة علاقة غريبة لم تشهدها أي قصة حب إن كلا منهما يبدو كأنه يخاف الآخر، ويحارب الآخر، ويجادل الآخر ثم فجأة يلتقيان في ساعات حب عنيفة، يلتصق فيهما كل منهما بالآخر كأنه لن يتركه أبدًا، ثم يعودان إلى الخوف والحرب والمجادلة وقد جد على صلاح أنه أصبح يغار على فاطمة إنها أصبحت تعيش في الوسط الفني كله وبدأت الإشاعات تلاحقها عن علاقات بينها وبين هذا أو ذاك، ويجن صلاح إلى حد أن يتخذ مواقف قاسية من هذا أو ذاك قامت إشاعة قوية عن علاقة بين فاطمة وعازف الجيتار، فما كان من صلاح إلّا أن عزل عازف الجيتار من الفرقة واستبدل به آخر أما فاطمة فكانت قد تعودت على الغيرة منذ عرفت صلاح لم يعد يؤثر فيها استمرار صداقته بنهال ولا زيادة عدد المعجبات !

ولكن حب فاطمة كان يعود كما كان تمامًا إذا أصيب صلاح بالأزمة التي تقذف بطلقات الدم من فمه كانت لا تسمع بالأزمة حتى تترك كل ما هي فيه وتجري إليه لتجلس بجانبه على حافة فراشه وتبقى معه إلى أن تطمئن عليه تبقى معه مهما كلفها بقاؤها من تضحية بالفن والمستقبل اللذين تسعى إليهما وربما

كانت فاطمة هي أول من اكتشف أن أقوى علاج لصلاح في أزمته هو فنه كانت بعد أن يتوقف عن النزيف ويستريح في فراشه تطلب منه أن يغني وكانت أحيانًا تثيره حتى يغني قائلة

- صلاح سمعني الغنوة الجديدة فيها حتة مش عجباني .

أو أحيانًا كانت تبدأ هي في الغناء، حتى تأخذه إلى الإحساس بالتحدي فيغني معها أو يسكتها ليغني وحده ولا يكاد صلاح يبدأ في الغناء حتى يبدو كأنه يسترد حياته

ومرت شهور، وأقام معهد الباليه حفلته السنوية، وإذا بفاطمة تبدو في العرض متميزة عن كل الطالبات بل إنها استطاعت خلال هذه الشهور أن تكتسب ثقة وحب أساتذة المعهد بنفس أسلوب صلاح في اكتساب من يحتاج إليهم، فوضع أساتذة المعهد عرضًا في البرنامج تبدو فيه فاطمة وحدها وهي ترقص وتغني أيضًا

وأثارت فاطمة إعجاب من شاهدها وبدأت الصحف تتحدث عنها بدأت فاطمة تعيش بين الأضواء وقبل أن تتم دراستها في المعهد التحقت بفرقة الرقص الشعبي وأصبحت تقدم شيئًا جديدًا رقصات باليه كلاسيك، مع أغان شعبية تغني وهي ترقص

وأصبحت فاطمة نجمة

كل ما كان يضعفها في نظري أنها استمرت تقلد صلاح في كل شيء في حركاته وفي أسلوبه وفي تصرفاته وتفكيره ربما لم تكن تتعمد تقليده ولكنها كانت متأثرة به إلى حد أن سيطرت شخصيته عليها، وأصبحت تؤمن ألّا طريق للنجاح إلّا طريق هذه الشخصية حتى لو كانت تقدم فنًّا يختلف عن فن صلاح

وكنت كثيرًا ما ألح على صلاح أن يضم فاطمة إليه في عمل واحد حفلة غنائية فيلم سينمائي مسرحية ولكنه كان يرفض وكان يقول في سخرية مرة

- عايزني أنزل لمستواها ولّا ترفعها لمستواي والناس بعد ما يشوفونا حايتكلموا عنها ولّا عني

وكنت أقول له إن الناس لا تتكلم عن صلاح ولا عن فاطمة، ولكن تتحدث عن العمل الفني وإذا ضمها إليه في عمل واحد فإنه سيقدم عملًا فنيًّا ضخمًا يثير ضجة ويخلق مستوى فنيًّا جديدًا، وعبد الوهاب عمل مع أم كلثوم فقدما قفزة

فنية جديدة وارتفع عبد الوهاب وارتفعت أم كلثوم ولم يتأثر أحدهما بمستوى الآخر وكان يرد عليّ قائلًا

- عبد الوهاب ما اشتغلش مع أم كلثوم إلَّا بعد ما بطل يغني للناس اشتغل معاها من غير ما يواجه الناس وهي جنبه ما ظهرش معاها على مسرح ولا في فيلم ولا في أغنية واحدة مش ممكن اتنين يغنوا مع بعض حتى لو كانوا راجل وست وما يبقوش بيغنوا بيقولوا منولوجات وأنا مش عايز أبقى منولوجست يا سي عمر

وفاطمة تنطلق في آفاق النجاح أصبحت شخصية فنية قائمة بذاتها إنها ترقص رقصات الباليه وهي تغني وبدأ الناس يقارنون بينها وبين صلاح، كما كانوا يقارنون بين عبد الوهاب وأم كلثوم وانقسم الشعب إلى حزب صلاح، وحزب فاطمة، كما كان منقسمًا إلى حزب عبد الوهاب وحزب أم كلثوم

وقد بدأت فاطمة تحرص على إخفاء أي علاقة لها بصلاح، كما كان يحرص هو من زمان على إخفاء علاقته بها ترفض أن تظهر معه في مكان عام، وترفض أن تلتقط لها صورة معه، وأحاديثها عنه التي تنشرها الصحف أحاديث باردة وأحاديثه عنها أبرد وبرغم ذلك فالعلاقة بينهما مستمرة بأسلوب جديد !

إني في فترات متباعدة أفاجأ بهما في البيت يستردان كل حلاوة قصة الحب الأولى، وأحيانًا أيضًا كنت أكتشف أن صلاح قضى الليل في بيتها بعد أن انفصلت عن عائلتها وأصبحت تقيم وحدها والناس لا تعرف شيئًا !

ودائمًا إذا ما أصيب صلاح بأزمته جاءت فاطمة بسرعة وعادت الفتاة الصغيرة التي تضحي بكل شيء من أجل حبها وجلست بجانب فراشه حتى لو عرف الناس وكنت أنظر إليهما وأنا أتساءل: كيف ستنتهي هذه القصة؟! قصة أعجب حب بين رجل وامرأة لا إنهما ليسا رجلًا وامرأة إنهما فنان وفنانة !

(8)

هذه هي قصة حياة صلاح أو قصة ما عشته مع صلاح وقد عشت معه العمر كله إلى أن حدثت إصابته بالأزمة قبل أن يغادر المسرح ثم حدثت مرة أخرى وبعد أسبوع واحد عندما أقام حفل لإنشاء بيت للطلبة ويومها قرر الأطباء أنه يجب

أن يسافر إلى لندن ليتم علاجه هناك وحدد له بسرعة موعد مع الطبيب الإنجليزي وسافرت معه إلى هناك إلى لندن

ووضع الأطباء الإنجليز مرض صلاح في صورة أخطر مما وضعها أطباء مصر وبعد أيام طويلة قضاها صلاح وكل أدوات الكشف الطبي الحديثة مسلطة عليه تقرر إجراء عملية جراحية عاجلة له

ولم أفهم تفاصيل العملية، وربما لم أهتم بفهمها، يكفي أنها عملية جراحية، وأول عملية يتعرض لها صلاح وقضى صلاح بعد إجراء العملية خمسة عشر يومًا وهو غائب عن الوعي، وكلما أفاق، حقنوه ليعود إلى غيبوبته

ودخلت إليه مرة وهو راقد في فراشه في المستشفى وإذا بي أجده يغني صوت ضعيف منهار، ولكنه يغني به !

وقلت له

- ما تجهدش نفسك يا صلاح مش وقت الغنا

وقال وكأنه يبكي

- أنا حاسس إني حاموت، وعايز أموت وأنا باغني !

وكتمت دموعي حتى لا أبكي معه، ولا أغني معه أغنية الموت

والحمد لله بعد أيام بدأ صلاح يسترد حالته التي تعود عليها حالته بعد أن تنتهي الأزمة يغني ويعمل وهو في فراشه وفي مرة ذهبت إليه وفاجأني قائلًا

- طلع الناي

وكان يعلم أني أحتفظ دائمًا في جيبي بصفارة صغيرة أتسلى بالعزف عليها عندما أجد نفسي وحيدًا وأخرجت الناي من جيبي وبدأت أعزف عليه، وصلاح يغني وإذا بالممرضات يلتففن حولنا معجبات ضاحكات، بل كثير من المرضى الذين تسمح لهم حالتهم بمغادرة الفراش وبينهم كثير من العرب، جاءوا إلى غرفة صلاح ليستمعوا إليه

وبدأ صلاح يغني مرات كثيرة في المستشفى خصوصًا بعد أن سمح له الأطباء بمغادرة الفراش كان يطوف على المرضى ويغني لهم، وهو مريض بينهم وكان يمكن أن يغامر صلاح كعادته ويغادر المستشفى قبل أن يسمح له الأطباء، ولكنه كان لا يزال في خوف وحرج أمام الأطباء الإنجليز

وفي يوم قال لي صلاح

- إيه رأيك تعالى نغني لهم بالإنجليزي علشان يفهمونا

وبدأ صلاح يغني أغنية إنجليزية كانت شائعة ولكنه كعادته كان طموحًا عنيدًا مغامرًا، كان يريد أن يغني أغنية بالإنجليزية له وحده أغنية جديدة هو الذي يقدمها وبدأ يسأل عن أسماء وعناوين الموسيقيين الإنجليز سعيًا ليتفق معهم على تلحين أغنية له !

ولكن قبل أن يبدأ في صناعة الأغنية الإنجليزية سمح له الأطباء بمغادرة المستشفى على أن يعود إليهم بعد ستة شهور، لاستكمال العملية التي أجريت له

وفي الطريق إلى مصر قال لي صلاح

- اسمع أنا وحدي وعايز أغني بالإنجليزي طيب ليه كمان ما يكونش ملحن مصري يلحن للإنجليز

ومنذ وصل صلاح إلى مصر وهو يعمل مع الملحنين على إخراج أغنية بالإنجليزية. والواقع أن صلاح كان بعد هذه العملية أقوى وأسعد وأتم صحة مما كان قبل العملية واستطاع أن يقدم ثلاث أغنيات جديدة في أقل من شهرين، وأن يقيم عددًا من الحفلات لا يقل عن حفلة كل أسبوع، كأنه كان يريد أن يطمئن الناس على صحته

وفاطمة فرحة به وتخفي فرحتها وحبها وتلقاه سرًّا، هذه اللقاءات المتباعدة التي قد تتباعد أكثر من شهر وشهرين

إلى أن عدنا إلى لندن

ومرت الأيام الأولى بعد العملية والأطباء يجتازون به حافة الموت إلى أن استطاع أن يعود إلى حالة مقاومة الموت بالفن وبدأ يغني ثم أرسل يستدعي ثلاثة من الموسيقيين عازف الجيتار، وعازف الكمان، وعازف الطبلة، وقدم أغنيته الإنجليزية في المستشفى

ولا تتصور فرحة الممرضات والمرضى بالأغنية

لقد نجحت داخل المستشفى إلى حد أن كتبت الصحف الإنجليزية عن صلاح وأغنيته بل تقدم أحد المتعهدين الإنجليز بعرض إقامة حفل عام يغني فيه صلاح بالعربي للمقيمين العرب في لندن، ويغني بالإنجليزية للشعب الإنجليزي

وكان صلاح قد تعود على الأطباء الإنجليز، فأصبح ينقاد لتهوره، أو ينقاد لفنه دون أن يستأذنهم فكان يخرج من المستشفى بلا إذن ويعود دون أن يقول متى يعود، وفي مرة شكوته للطبيب، وقال لي في اطمئنان

- هناك شيء في الإنسان لم يصل إليه العلم بعد شيء أقوى من العلم إن صلاح يعرف مرضه جيدًا، وهو قطعًا لا يريد أن ينتحر فإذا كانت في داخله دوافع أقوى من المرض يجب أن نتركه لها من يدري ربما كانت هذه الدوافع هي سر استمراره في الحياة ربما كان تمسكه بفنه أقوى من كل ما تسلطه الحياة فلنستسلم للأقوى

وأصبحت هذه هي حياتنا

نقضي نصف السنة في مصر ونصفها الآخر في لندن مع الأطباء الإنجليز وصلاح لا يريد أبدًا أن يستسلم حتى يشفى تمامًا بمجرد أن يتحرك يعود إلى فنه وأقام حفلات عامة في لندن نجحت نجاحًا ضخمًا، وأصبحت أغانيه بالإنجليزية تذاع في الإذاعة الإنجليزية كما تذاع أغانيه في القسم العربي وكان يتفق على إقامة هذه الحفلات وهو راقد في فراشه وفي المستشفى إنه دائمًا مطمئن إلى أن فنه أقوى من مرضه وكان يخرج من المستشفى ليقيم الحفل رغم تحذير الأطباء بل كان أحيانًا يخرج من المستشفى ويأخذني من يدي وأجد نفسي في طائرة تطير بنا إلى المغرب أو إلى لبنان أو إلى الكويت لنقيم حفلًا هناك ثم يعود إلى المستشفى !

وفي مرة ظهرت في صحة صلاح عناصر جديدة خطيرة، وتقرر أن يذهب للعلاج في فرنسا بدلًا من لندن وانتشرت الإشاعة إلى أنه أصبح في حالة ميئوس منها وكل الناس في انتظار الخبر المفزع وأنا منهم !

وكنا في مستشفى باريس عندما فوجئت بفاطمة تدخل علينا

كانت قد تعودت أن لا تجلس بجانب فراش صلاح وهو يعالج في الخارج ولكن هذه المرة لم تستطع أن تقاوم الإشاعات، وجاءت لتجلس بجانبه

أصبح الحب بجانبه !

وساعده الحب حتى خرج من مرحلة الموت، وبدأ يستعين بقوة الفن للتغلب على الموت وانتصر الفن وعاد يغني وأقام حفلًا غنائيًّا في مسرح باريس لأول مرة تشترك فاطمة معه لقد ظهرت أمام الجمهور في باريس ورقصت وغنت ثم ظهر صلاح وغنى وحده غنى بالعربية وبالفرنسية أيضًا ثم ظهر الاثنان معًا وألقيا أغنية مشتركة

كان هذا هو أكبر تطور في قصة صلاح وفاطمة انتصر الحب حتى جمعهما في عمل واحد وإن كان لم يجمعهما في زواج ولا أعتقد أنه سيجمعهما في زواج أبدًا وحتى في باريس رأيت نهال تجلس بين جمهور المتفرجين وهكذا نعيش !

نعيش في فرحة نجاح فني وفي خوف دائم من الموت والنجاح والموت يتصارعان داخل جسد يعيش على الألم !

كيف ننتهي؟ !

لا أدري

لا أحد يدري

الله وحده رب الفن ورب العلم !

تمت